محمود شلبي

حياة يوسف

دار الجيل
بيروت - لبنان

محمود شلبي

حياة يوسف

دار الجيل
بيروت

الإهـــداء

اللهمَّ منكَ وإليكَ

محمود شلبي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه أحسن قصة ...

بصريح القرآن : « نحن نقص عليك أحسن القصص ... »

أو بلغة عصرنا ... أجمل قصة ... وأحلى حكاية ... وأرق رواية ...

لماذا كانت قصة يوسف ، أحسن القصص ، وأحلى الروايات ؟!

ألأن فيها من الوقائع ، ما ليس فى غيرها ؟!

كلا ... فمن القصص ما يزخر بالأحداث أضعاف تلك القصة !

أمن أجل أنها قصة نبى كريم ؟

كلا ... فمن الأنبياء من هو أعلى مقاماً من يوسف ... عليه السلام !

ألأنها ... من القصص الذى تولى الله تعالى قصّه ... على الناس ... فى كتابه الكريم ؟

كلا ... فكم من القصص ... قصّ سبحانه على الناس سواها !

فلماذا إذاً كانت قصة يوسف أحسن القصص بصريح القرآن ؟

لأنها قصة أخطر عاطفة بشرية ... العاطفة الخالدة ... التى نسميها « الحب » ! !

قال سبحانه « امرأةُ العزيزِ ، تُراوِدُ فتاها عن نفسِهِ ، قد شَغَفَها حُبًّا ... »

قد تغلغل حب يوسف ... فى شغاف قلبها ... فما تملك أن تدافعه ... وما تملك أن تقاومه !!!

الحب ؟!!

تلك العاطفة الكبرى ... من عواطف البشر ...

تلك العاطفة التى أخذت على الانسان عقله ، وتفكيره ، وأحلامه ، وحياته …

ما هو الحب ؟!

الجواب … فى قصة يوسف …

ما هو الجمال ؟!

الجواب … هو يوسف …

ما هو سلطان الحب على النساء ؟

الجواب : هو ما كان من امرأة العزيز … ونسوة فى المدينة …

كيف يكون موقف الانسان المؤمن من غواية الحب … وضلالات الهوى ؟

الجواب : انظروا ماذا كان من يوسف حين أبى ، واستعصى ، وآثر السجن … على حياة الهوى !!

جمال الصورة … هل هو نعمة ، أو نقمة ؟

الجواب : انظروا … ماذا أصاب يوسف … بسبب جمال صورته …

فقد أوتى يوسف « شطر الحسن » .

فالحسن حسنان …

حسن الظاهر … جمال الصورة …

وحسن الباطن … جمال الروح …

ولقد أوتى يوسف الحسن الظاهر … كاملا …

فضلا عن حسن الباطن … أوتى نور الأنبياء …

فافتتن النسوة بحسن الظاهر … حسن الجسد …

ولم يلحظن … حسن الباطن … المكنون فى جوهره الكريم …

فلما تبين لهم : « قُلْنَ : حَاشَ لِلَّهِ ماهذا بَشَرًا ، إن هذا إلا مَلَكٌ كريمٌ » …

أدركن أن الرجل … مكنون فيه … جمال باطن . . غير هذا الذى … يركزن عليه أبصارهن …

وغاب عنهن أن بحر جماله الباطن ... يذوب فيه جماله الظاهر ...

لقد كانت قصة يوسف أحسن القصص . . بما فيها من تلاطم عواطف الحب ، والجمال ، والمكر والفر ، حول تلك العاطفة الخالدة !!!

وجماهير الناس ... يهمها الحب وما يتعلق به ... أكثر من أى شيء آخر ...

وقد تكون أقاصيص الجهاد فى سبيل الحق ... أعلى مقاما عند الله ...

إلا أنها لا تستهوى الجماهير ... بمثل ما تستهويهم أقاصيص الحب والغرام ...

بأن عاطفة الحب ... عاطفة جنس ... والجنس هو الغريزة الأولى ... فى أحاسيس البشر .

وكانت أحسن القصص ، بما فيها من عواطف بشرية أخرى ... كبرى ...

غرائز الغل ، والحقد ، المبثوثة فى ثنايا جبلات البشر ...

غل الإِخوة ... غير الأشقاء ... على أخ لهم من أبيهم ...

غل يدفعهم ... إلى التفكير فى قتل أخيهم ...

وبما فيها من عاطفة الأبوة ... فى ذروتها ... حين أحب يعقوب ... يوسف ... حبا ملك عليه فؤاده ...

« لَيوسُفُ ، وأُخوه ، أحَبُّ إلى أبينا مِنَّا ... »

وكيف دفع هذا الحب ... أبناء الرجل أن يكيدوا لأبيهم كيداً عظيما !!!

وبما فيها من عاطفة الصبر الجميل « فَصَبْرٌ جميلٌ ... »

وكيف صبر الأب صبرا جميلا ... لا شكوى فيه . .

« إنّما أشكو بَثِّى وحُزْنى إلى اللهِ ، وأَعْلَمُ مِنَ اللهِ ما لا تعلمونَ » !!!

وبما فيها من أعاجيب ... مكنونات ... المقادير !!

أولئك الأخوة ... كان تدبيرهم الخبيث « اقتلُوا يُوسُفَ ... يَخْلُ لَكم وَجْهُ أبيكُمْ ... »

وكان تدبير القدر « وكذلِكَ يجْتَبِيكَ رَبُّكَ ، وَيُعَلِّمُكَ من تأويل الأحاديث

وَيُتِمُّ نعمتهُ عَليك، وعلى آل يعقوب، كما أتمها على أبوَيكَ من قبلُ إبراهيم وإسحاق!!
أرادوا قتله ... وأراد الله ... أن يكون نبيا ... وملكا ... وعظيما ... وخالدا ...
وجاءوه ... وأعلنوها « ... تالله لقدْ آثرَكَ الله علينا ... » !
وإنما كانت قصة يوسف أحسن القصص ... بما فيها من اظهار مكنونات عجائب معادن الأنبياء ...
أولئك الكواكب اللألاءة ... التي تتشعشع بجواهر حبات النور ... كلما مستها الحوادث ... زادتها اشعاعا وشعاعا !!

وبما فيها من تجلى عبقرية يوسف ... فى ادارة اقتصاديات مصر ...
فكانت خيرا عميا لأهل مصر ... وللمنطقة كلها ...
وبما فيها من الخاتمة السعيدة ... التى يتفضل الله بها ... على كل من اتقى وصبر ...
«... إنه مَن يَتقِ ويَصْبرْ ، فَإنَّ الله لا يُضيعُ أجْرَ المحسنين »

وبما فيها من ظلمات الشهوات ... شهوة الجنس ... وكيف تدفع امرأة العزيز ... أن تعرض نفسها عرضا ... على يوسف ...

ونور التعالى على المعصية ... «... مَعَاذَ الله ، إنهُ رَبى أحسَنَ مثواى .. »
وظلمات شهوة الحسد ... وكيف دفع اخوة يوسف إلى أحقر تدبير
إذ يجتمع عشرة رجال ... لقتل طفل صغير!!!
وبما فيها من نور التوكل ... لمن تلحظه عين العناية
« وأوحينا إليه لتُنَبِّئَنَّهُم بأَمرِهِمْ هذا ، وهم لا يَشْعُرُونَ » !!
وبما فيها من غرائز بشرية ... جياشة ... متدافعة ...
الأبناء يرمون أباهم بتخريف الكبر ...
« تاللهِ إنَّكَ لَفِى ضَلاَلكَ القَدِيم » !!!
يقولون هذا ... وهم يعلمون أن أباهم ... نبى ونور عظيم !!!

ولـكنهم يبغضون هذا المسمى يوسف .. الذى يذكره أبوهم دائماً !!!
وبما فيها من أعاجيب ... معادن الأنبياء ...
هؤلاء هم أخوته ... أذلاء ... بين يديه ...
فـكان ماقال : « لاَ تَـثْرِيبَ عَلَيْـكُمُ اليَوْمَ ... »
وقال : « ادْخلوا مِصْرَ إن شاءَ اللهُ آمنينَ » !!
عفو ... صفح جميل ... لاشىء فى قلبه !!!
وإن فى هذه القصة من الاشعاعات ... ما إن تفجر ... لملأ ما بين السماء والأرض شعاعا ونورا ...
فيها بحار ... أنوار ... يوسف ...
وما أدراك ما يوسف !!!
ثم ما أدراك ما يوسف !!!
ولعل ذلك هو السر ... فى أنها هى القصة الوحيدة ... التى قصها الله تعالى ... فى سورة وحيدة ... من أولها إلى آخرها ... فى القرآن الـكريم ...
اختصه بسورة وحده ... سورة يوسف ...
واختص القصة ... بجميع السورة ... من أولها إلى آخرها ...
وسلك فى سردها ... التسلسل التاريخى ... فـكانت أعجوبة ... وآية ... وإعجازا ... فى التفصيل ... والإجمال ...
« لَقَدْ كانَ فى يُوسُفَ وَإخوَتهِ آياتٌ للسَّائلينَ » .
« لَقَـدْ كانَ فى قَصَصِهِمْ عِـبْرَةٌ ... »
ومن أجل أن الله تعالى تولى تسجيلها كاملة ... فى سورة كاملة ... من كتابه الـكريم ...
ومن أجل أنها هى الوحيدة التى اختصت بذلك الشرف العظيم ...
ومن أجل أن حياة الأنبياء ... لا يجوز لنا أن نزيد أو ننقص ... أو نتخيل أو نتزيد ... فيها ...

ومن أجـل الحفاظ ... على اشعاعات أنوارها ... كما رتبها ربنا تبارك وتعالى ... فى كتابه المـكنون ...

من أجل ذلك كله ... سلـكنا فى « حياة يوسف » مسلـكا جديدا ...

أن نقدم إلى الناس ، حياة يوسف ، كما قدمها كتاب الله تعالى ...

فنمضى مع الآيات ... تبيينا ... وتفسيرا ...

ثم نتبع الآية ... بما فيها من اشعاعات ...

ثم ندع القارىء ... بعد ذلك ... يجوس خلال أنوارها ...

لتبقى للقصة اشعاعاتها ...

فلا نحجب قلب القارىء ... بظلمات التأليف ...

وإن للتأليف لظلمة ...

حين يطغى ... على أنوار التنزيل !!

ولعل هذا المنهج ... فى معالجة « حياة يوسف » وتقديمها إلى الناس . .

يكون ... إن شاء الله ... أجمل أسلوب ... لأجمل قصة .

القاهرة فى ١٣٨٨ هـ
١٩٦٨ م

محمود شلبى

قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

« إن الكريم

« ابن الكريم

« ابن الكريم

« ابن الكريم

« يوسف ، نبي الله

« ابن يعقوب ، نبي الله

« ابن إسحاق ، نبي الله

« ابن إبراهيم ، خليل الله »

بسم الله الرحمن الرحيم

– ١ –

الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ .

« الٓر » ألف ... لام ... را ...

من مثل هذه الحروف الميسورة المبذولة لكل الناس ... أنزل ذلك القرآن العظيم ...

فهل يستطيع أحد أن يأتى بقرآن مثله ؟

« تلك » الإشارة بالبعيد لعظمته ، وبعد مرتبته .

« آيات الكتاب » آيات القرآن ، الذى هو الكتاب الحق ...

« المبين » الظاهر أمرها وإعجازها . أو : الظاهر أنها من عند الله تعالى .

– ٢ –

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

« إنا أنزلناه » إنا ... نحن الله ... أنزلناه ... على رسولنا ... من عندنا .

« قرآناً عربياً » قرآنا بلغتكم .

« لعلكم تعقلون » لكى تفهموه وتحيطوا بمعانيه ، ولا يلتبس عليكم .

أو : لتستعملوا فيه عقولكم ، فتعلموا أن اقتصاصه كذلك ، ممن لم يتعلم القصص ، معجز ، لا يمكن إلا بالإيحاء .

قال بعضهم : نزل أشرف الكتب ، بأشرف اللغات ، على أشرف الرسل ، بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك فى أشرف بقاع الأرض ، وفى أشرف شهور السنة ، وهو رمضان ، فكمل له الشرف من كل الوجوه .

— ٣ —

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ .

« نحن » نحن الله ...

« نقص عليك » نحكى لك ...

« أحسن القصص » أبدع القصص طريقة ، وأعجبه أسلوبا ، وأصدقه أخبارا ، وأجمعه حكما وعبرا .

« بما أوحينا إليك » بإيحائنا إليك .

« هذا القرآن » هذا الكتاب العظيم .

« وإن كنت من قبله لمن الغافلين » وإن كنت يا أيها الرسول من قبل إيحائنا إليك هذا القرآن لمن الغافلين عنه ، لم يخطر ببالك .

والتعبير عن عدم العلم بالغفلة لإجلال شأن النبى صلى الله عليه وسلم .

اشعاعات

نحن ؟ ! !

الله يتكلم ... فيها جمال وجلال ...

ولكن ... لماذا كان قصص القرآن هو أحسن القصص ؟

الجواب ... بما أوحينا إليك هذا القرآن !

لسبب واحد ... هو أن الله هو الذى يتولى إيحائه إلى محمد صلى الله عليه وسلم !

ولكن ... لماذا كان هذا سببا جعل قصص القرآن أحسن القصص ؟

لأن الله حين يوحى ... وحين يقص ... إنما يقص الحق .

وشتان بين الحق المطلق ... وبين خيال المؤلفين .. وأوهام الملفقين ...

وحين يتكلم الله ... جل ثناؤه ... إنما هو الله يتكلم . .

والفرق بين كلام الله ... وكلام الناس ... كالفرق بين الله والناس ..

إن الله قد أحاط بكل شيء علما ... فهو يتكلم بعلم محيط ... أما البشر فضعاف . . محدود علمهم ... فإذا تكلموا . . . أو تخيلوا ... جاء خيالهم عبثاً ... وأفكارهم نقصا ... وشتان بين الكمال المطلق ... والنقص المطلق ... وبين العلم المطلق ... والجهل المطلق ...

ثم لماذا كانت قصة يوسف بالذات أحسن القصص ؟

ألأنها رائعة البيان ... متكاملة التبيان ؟

كلا ... وإنما لأنها جامعة لجميع العواطف البشرية الخالدة ... تزدحم فيها ازدحاما ...

تلك العواطف الخالدة خلود الحياة ... التي تمس أوتار القلوب ... وتستهوى جميع الناس ... بصرف النظر عن عقائدهم

ففيها الأبوة والبنوة ... ومشا كلها ...

وفيها حب الآباء لبعض الأبناء دون الآخرين وما يثير ذلك في نفوسهم ...

وفيها الضرائر ومشا كلهن ... وأفاعيلهن .

وفيها أحقاد الأخوة لأب على إخوتهم لأبيهم ...

وفيها ابتلاء الآباء في أعز الأبناء ..

وفيها أحزان القلوب ... وما تورثه من انهيارات في الأبدان . .

وفيها عاطفة الحب الجنسي ... تلك العاطفة التي أخذت على الناس تفكيرهم في كل زمان ...

وفيها ارتفاع الإنسان من الذلة إلى أبعد آفاق العزة ... وكيف يستقبل نعمة الله عليه آنذاك ...

وفيها ... وفيها ... وفيها ... مما سوف ندخل إلى تفصيله .

وبالجملة هي العواطف البشرية كلها مركزة تركيزا عظيما . .

— ٤ —

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ .

«إذ قال يوسف لأبيه» وأبوه هو يعقوب ، بن إسحاق ، بن إبراهيم ، عليهم السلام .

« يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » يا أبى : إنى رأيت فى المنام ... أحد عشر كوكباً من كواكب السماء ... والشمس ... والقمر ... رأيتهم جميعاً ... لى أنا ... ساجدين !

فماذا كان من يعقوب ... ذلك النبى الحكيم ... الذى يرى بنور النبوة ...

ماذا أبصر من يوسف ... من ذلك الطفل الجميل ... الرائع ..؟

لقد رأى فيه على الفور ... أنه هو الذى سوف يرث النبوة . . وأن الله قد جعل فيه نور النبوة ... وأعده لذلك إعداداً جميلا .

ولذلك قال له على الفور ..

— ٥ —

قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ .

« قال» قال يعقوب عليه السلام .

« يا بنى » صغره لصغر سنه ، وللشفقة عليه ، ولعذوبة المصغّر .

أى : يا صغيرى .

« لا تقصص رؤياك » إياك أن تخبر إخوتك بما رأيت فى المنام .

« على إخوتك » على أحد من إخوتك .

« فيكيدوا لك كيدا » فيفعلوا لأجلك .

أو : لإجلا لك تحيلا عظيما ، متلفا لك .

« إن الشيطان للانسان عدو مبين » ظاهر العداوة ، فلا يألو جهدا فى إغواء إخوتك وحملهم على ما لا خير فيه .

اشعاعات

لقد رأى يعقوب عليه السلام ببصيرة النبوة ... ونور الرسالة ... أن معنى الرؤيا .. أن يوسف سوف يعلو علوا عظيما ... وأن إخوته الأحد عشر سوف يسجدون له ... وأنه هو نفسه ـ يعقوب ـ وزوجة يعقوب ... سوف يسجدون له كذلك.

هذا من جهة الملك والسلطان والتمكن فى الأرض ..

وأما من جهة الجوهر ... فقد تأكد لدى يعقوب أن الميراث قد انتقل إلى يوسف .

وأنه لا أحد من إخوته سيكون نبياً .. وإنما اختص الله يوسف بفضله من دونهم .

فما معنى هذا ؟

معناه أنه شخصية جمعت بين جمال الظاهر ... فهو جميل الصورة ... أعطى شطر الحسن ..

وجمال الباطن ... وماذا بعد جمال النبوة ؟ !

ثم ماذا ؟

ثم ها هو يرى رؤيا تؤكد أنه سوف يكون عظيما فى الأرض .. متمكنا فيها .. يسجد له الناس ويخضعون . حتى اخوته ... وأبويه ... سوف يسجدون !

سوف يعلو يوسف علوا عظيما ...

سوف يعلو هذا الطفل ... الذى هو أصغرهم ... من دونهم جميعا ...

إنه الامتياز ... وبلاء الامتياز ...

طفل ... أجمل اخوته ... يتلألأ فى وجهه بهاء النبوة ... وروعة الامتياز ...

قد اختصه الله بشيء من عنده ... وصنعه على عينه ...

بينما اخوته لاشيء ...

ومن هنا ... كانت العقدة ...

إن الإنسان الممتاز لم يرتكب جريمة ...

وإنما يبدو امتيازه أكبر جريمة فى أعين الذين هم دونه !

وذلك بلاء الامتياز دائما ...

فكيف بيوسف ... وقد رفعه الله على اخوته رفعا عظيما ؟!.

جعله أحسنهم صورة ... وأنورهم قلبا ... وأعلاهم شخصية ...

كيف به ... وهو يتلألأ بين اخوته ... بينما هم صفرا لا يملكون شيئا ؟!

رأى يعقوب ذلك ... وما هو وراء ذلك ... بعين بصيرته ...

فأدرك ما كان وما سيكون فى اجماله ...

فنهى يوسف أن يقصص رؤياه على اخوته فيكيدوا له كيدا عظيما بسببها ، ويحتالوا لاهلاكه والقضاء عليه بكل الطرق الممكنة !

ثم ماذا ؟ قالوا : هذا يدل على جواز ترك إظهار النعمة لمن يخشى منه حسد ومكروه .

وقالوا : فيه حكم بالعادة ، أن الإخوة والقرابة يحسدون .

وقالوا : هذا يدل على أنه يجب فى بعض الأوقات إخفاء فضيلة ، تحرزا من الحسود .

— ٦ —

وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

«وكذلك يجتبيك ربك» مثل ذلك الاصطفاء، يصطفيك ربك يايوسف للنبوة والسيادة والعلو فى الأرض بالحق .

« ويعلمك من تأويل الأحاديث » ويعلمك ربك تعليما من عنده.. من تعبير المنامات، والأحاديث جمع حديث، سميت به الرؤيا لأنها إما حديث ملك أو نفس أو شيطان، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« الرؤيا ثلاث : رؤيا من الله، ورؤيا من الملك، ورؤيا من الشيطان ». [البخارى]

«ويتم نعمته عليك » ويبلغك إلى أقصى غايات النعمة الظاهرة والباطنة ...

أما ظاهرا فيمكنك فى الأرض تمكينا، وتعلو فيها علوا عظيما ...

وأما فى الباطن ... فتكون نبيا ... وترث النبوة التى آتاها الله من قبل ابراهيم، فورثها عنه إسحاق، وورثتها أنا عن إسحاق، وها أنت يا يوسف ترث تلك النبوة عنى ...

ولذلك قال ...

« وعلى آل يعقوب » ويتم نعمته على أبناء يعقوب... بأن اختارك لترث ذلك الميراث من بينهم جميعا ..

« كما أتمها على أبويك » كما أتم نعمته على جديك ...

« من قبل » من قبل وجودك يا يوسف ...

« إبراهيم » كما أتم نعمته تعالى الظاهرة والباطنة على إبراهيم، فاصطفاه، واجتباه، وآتاه، وهداه ...

« وإسحاق » وكما أتم نعمته الظاهرة والباطنة على جدك إسحاق ...

« إن ربك عليم » بمن هو مستحق للاجتباء والاصطفاء ... هو أعلم حيث يجعل رسالته ...

وقد هيأك لها يا يوسف ... وصنعك على عينه من أجل هذا ..

« حكيم » فى صنعه ... يؤتى كل ذى فضل فضله .

اشعـــاعات

فيها اشعاعات عليا ...

يعقوب تتدافع منه الأنوار ...

أنه نبي يتكلم ... انه أحد حلقات السلسلة الأربع المقدسة ...

قال صلى الله عليه وسلم : « إن الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم ، يوسف نبي الله ، ابن يعقوب نبي الله ، ابن إسحاق نبي الله ، ابن إبراهيم خليل الله »

نور ... من نور ... من نور ... من نور ...

وأي كرم بعد هذا ؟

سلسلة مقدسة ... كل منهم ورث النبوة عن الآخر ...

وتسلسلت فيهم تصديقا لقوله تعالى « وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب » ...

ورأى يعقوب تلك النبوة تتحقق فى يوسف ...

فأحبه حبا شديداً ... حب نبي لنبي ...

وحين يتلاقى نوران ... يصبح انفصامهما عسيرا ...

ومن هنا كان البلاء من جنس الصفاء ...

يعقوب شديد الحب والتعلق بابنه ... الذى ورث منه النبوة وأنوارها ...

إذن يكون البلاء ... هو الفصل بين يوسف وأبيه أربعين عاما !!!

تأمل ... كيف يربى الله أنبياءه ... وأحب خلقه إليه ؟!

ومن خلال رؤيا يوسف ... الطفل ... آنس يعقوب منها نارا ...

لقد رأى يوسف الكواكب والشمس والقمر ... له يسجدون ...

رأى الملأ الأعلى يسجد له . . فما معنى هذا ؟

معناه أن هذا الطفل سيكون موضع ظهور صفات الله تعالى ... وصفاته كلها عليا ...

سيكون مجلى أسماء الله تعالى ... « وعلم آدم الأسماء كلها » ... سيكون هذا الطفل كاملا ... مكملا لغيره ... سيكون نبيا ...

وستسخر له إمكانيات الأرض ... بدليل سجود الكواكب والشمس والقمر له ...

ثم ماذا ؟ ثم علم يعقوب أن هذا الطفل سيؤتيه الله القدرة على تعبير الرؤى ... على تأويل الأحاديث ... على معرفة ماسوف تؤول إليه تلك المنامات فى عالم الواقع ...

علم ذلك حين رأى طفلا يقص عليه مثل تلك الرؤيا المحكمة غاية الأحكام ، فعلم أن ذلك ليس إلا لنبي !

هنالك أدرك يعقوب ... أنها النبوة ... أن ابنه نبي ... جاء به الله ليرث عنه الرسالة، كما ورثها هو عن إسحاق وإبراهيم ...

ثم انظر إلى قول يعقوب لطفله « إن ربك عليم حكيم » ... لاتستغرب ياصغيرى أن يختارك ربك من دون إخوتك ... لأنه تعالى يعلم أن فيك امتيازاً خاصا يؤهلك لذلك، وهو تعالى دائما حكيم يضع كل شيء في وضعه المناسب ...

ثم التعبير بـ « ربك » فيه مافيه من الاحساس بنعمة الله عليه وعلى يوسف ... وأى نعمة وراء النبوة ؟

— ٧ —

لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءايَاتٌ لِّلسَّآئِلِينَ •

« لقد كان فى يوسف وإخوته » لقد كان فى قصتهم وحديثهم .

« آيات » دلائل على قدرته تعالى وحكمته فى كل شيء .

« للسائلين » لمن سأل عن نبئهم

أو : آيات على نبوته صلوات الله عليه ، لمن سأل عن نبئهم ، فأخبرهم بالصحة ، من غير تلق عن بشر ، أو أخذ عن كتاب .

قالوا : أى آيات معظات ، لمن يسأل عن قصتهم ويعرفها .

« تدلهم أولا : على أن الاصطفاء المحض أمر مخصوص بمشيئة الله تعالى، لا يتعلق بسعى ساع ، ولا إرادة مريد ، فيعلمون مراتب الاستعدادات فى الأزل .

« وثانيا : على أن من أراد الله به خيراً ، لم يمكن لأحد دفعه . ومن عصمه الله لم يمكن لأحد رميه بسوء ، ولا قصده بشر ، فيقوى يقينهم وتوكلهم .

« وثالثا : على أن كيد الشيطان وإغواءه أمر لا يأمن منه أحد ، حتى الأنبياء ، فيكونون منه على حذر . وأقوى من ذلك كله أنها تطلعهم من طريق الفهم ، الذى هو الانتقال الذهنى ، على أحوالهم فى البداية والنهاية ، وما بينهما ، وكيفية سلوكهم إلى الله ، فتثير شوقهم وارادتهم ، وتشحذ بصيرتهم ، وتقوى عزيمتهم »

— ٨ —

إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

« إذ قالوا ليوسف » إذ قال إخوته العشرة لأبيه ...

« وأخوه » وهو بنيامين شقيقه ، وأمهما راحيل بنت لابان ، خال يعقوب .

« أحب إلى أبينامنا » أى هما أحب إلى والدنا منا جميعا . يحبهما أكثر من أى منا .

« ونحن عصبة » والحال أنا جماعة أقوياء ، أحق بالمحبة من صغيرين ، لا كفاية فيهما. ونحن رجال أقوياء أشداء ، وجماعة كثيرة العدد ، نبلغ عشرة من الرجال ، أقدر على خدمته ، والجد فى منفعته. فكيف يؤثر عليهم طفلين لا يقدران على شىء ؟

« إن أبانا لفى ضلال مبين » إن والدنا لفى بعد عن الصواب عظيم ، واضح ، لا يخفى ضلاله على أحد !

اشعاعات

كان ليعقوب عشرة من الرجال الأشداء ...

ومن زوجه راحيل ، وبعد أكثر من أربعين عاما ، من العقم ، وُلد لراشيل يوسف ، ومن ورائه بنيامين .

فاشتد الأمر على أولاده ... كيف يحب يعقوب يوسف هذا الذى جاء مؤخرا أكثر منهم .. ثم كيف يحب هذا الأخير بنيامين ذلك الحب ؟

وكانت فتنة لهم ...

مصدرها هو امتياز يوسف من صغره ... فقد خلقه الله فيه ميراث النبوة كله من إبراهيم وإسحاق ويعقوب ... ورث عنهم صفوة نورها، وجمال لألائها ...

وجاء فيه فوق ذلك جمال أمه راشيل فقد كانت أجمل نساء زمانها، وجمال جدته سارة زوج إبراهيم فقد كانت أحسن نساء زمانها ..

طفل اجتمع له الحسن من طرفيه، حسن الباطن، بما أودع فيه من أنوار النبوة ... وحسن الظاهر بما أودع فيه من جمال الخلقة ...

فكيف لا يحبه أي إنسان يراه ...

ثم كيف بأبيه ... الذى يرى فيه علامات النبوة تتلألأ كالقمر المنير؟

أما أخيه الأصغر ... بنيامين ... فتلك طبيعة الآباء والأمهات ... أنهم يحبون أصغر أولادهم أكثر مما يحبون سائر أولادهم ...

قد يكون لأنهم آخر انتاجهم ... أو لأنهم أضعف الاولاد قدرة على نفع أنفسهم .. أو هى غريزة طبيعية فى الناس ..

فكان الأمر فتنة للعصبة .. للرجال العشرة الأشقاء ..

وبلاء لأبيهم شديد ...

— ٩ —

اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ .

« اقتلوا يوسف » قال قائل منهم وهم يأتمرون سرا فيما بينهم ... للخلاص من يوسف: اقتلوا يوسف ...

« أو اطرحوه أرضا » أو ألقوه فى أرض مجهولة، لا يعرفها أبوه، ولا يمكن ليوسف أن يعرف طريق الخلاص منها ..

« يخل لـكم وجه أبيكم » تخلص لـكم محبة أبيكم ، ويقبل عليكم بكليته ، ويتفرغ عن الاشتغال بيوسف ، فيشتغل بكم .

« وتـكونوا من بعده » وتـكونوا من بعد الفراغ من قتله أوطرحه .

« قوما صالحين » تمتنع من بينـكم هذه الفتنة التى حدثت فى الأسرة منذ وجد فيها هذا الطفل .

أى : تصلح دنياكم ، وتنتظم أموركم بعده ، بخلو وجه أبيكم لـكم .

اشعاعات

قالوا : لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم ، وعقوق الوالد ، وقلة الرأفة بالصغير ، الذى لاذنب له ، وبالـكبير الفانى ، ذى الحق والحرمة والفضل ، والده ، ليفرقوا بينه وبين ابنه على صغر سنه ، وحاجته إلى لطف والده ، وسكونه إليه .

وقال ابن كثير : اعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف . وظاهر السياق يدل على خلاف ذلك .

« ومن الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك ، وفى هذا نظر . ويحتاج مدعى ذلك إلى دليل . ولم يذكروا سوى قوله تعالى : (قُولُوا ءَامَنَّا بِاللهِ وما أُنزِلَ إِلَيْنَا ومآأُنزِلَ إِلَىٰٓ إبراهيم وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأَسْبَاطِ) وهذا فيه احتمال ، لأن بطون بنى إسرائيل يقال لهم الأسباط ، كما يقال للعرب قبائل ، وللعجم شعوب . يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بنى إسرائيل ، فذكرهم اجمالا لأنهم كثيرون ، ولـكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف . ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم »

ماهذا ؟ ... هذا أمر جدير بالالتفات والتفـكر ...

هل كان هؤلاء العشرة أنبياء أم كانوا ليسوا بأنبياء ؟

القطع ... أنهم ما كانوا وقتها أنبياء ، ولا كانوا بعدها أنبياء ...

البرهان الأول ... أنهم لو كانوا انبياء ... لتلألأت فيهم أنوار النبوة ومخايلها من صغرهم كما تلألأت فى يوسف ... ولاستغنى أبوهم بمايرى فيهم من علاماتها عن حب يوسف ...

وإنما كان يعقوب يراهم من النبوة صفرا ... يراهم بشرا ... مظلمين ... ليس فيهم من نور النبوة شيء ...

وكان الرجل ... ينتظر ذلك الطفل الذى يرث عنه النبوة بصفاتها ومقاماتها ...

حتى كان يوسف ... فكان هو الوارث ... وتلألأت فيه كل أنوار الميراث ...

فكان فيه امتياز جده ابراهيم ، خليل الرحمن ، بكل مافى شخصية إبراهيم من بهاء وجمال وصفاء ...

وكان فيه امتياز إسحاق ... بكل مافى اسحاق من صفات العلم والمعرفة ...

ثم كان فيه امتياز يعقوب نفسه ... فرأى فيه يعقوب تلك الصورة التى كان ينتظرها من أول يوم ...

فعلم يعقوب ... أنه هو ...

هو هذا ... ليس غيره ... حامل الرسالة ... وكنز الاشعاع ...

أما هؤلاء العشرة ... فكانوا مجرد رجال ككل الرجال ...

قد يكون فيهم صفات ممتازة عن غيرهم من ابناء عصرهم ... ولكنه امتياز الأجسام والعقول ...

وشتان بين امتياز وامتياز ... شتان بين امتياز النبوة فى علاها ... وامتياز الأبدان مهما كان ...

البرهان الثانى ... أن اندفاعهم إلى مثل ذلك المؤتمر ... حيث يفكرون فى اغتيال طفل صغير ... وهم رجال أشداء ... فيه مافيه من الغرائز الدنيا ، التى تؤكد أنهم كانوا مظلمين .. وهذاما كان يحبب يوسف إلى أبيه ، ويزيده حبا كلما رأى منهم تلك التصرفات الهابطة ...

البرهان الثالث ... أن وصفهم أبيهم بقولهم : إن أبانا لفى ضلال مبين ... وتأكيدهم لضلال الرجل ... وهو فى أعلى علالى الهدى ... يدل على أنهم قليلو الادراك لمقام أبيهم ، ومقام النبوة، وأنهم أبعد ما يكونون عن فقه النبوة .

البرهان الرابع ... أنهم يريدون تخلية وجه أبيهم لهم ... وهم فى استغناء عنه بحكم كونهم رجال أشداء ... لمجرد الغيرة ... وتلك مشاعر تكون ممن ليسوا بأنبياء ...

ما كانوا أنبياء ... قبل يوسف ولا بعده ...

كانوا بشرا ... لايرى فيهم يعقوب شيئا من لألاء النبوة ونورها ...

فلما جاءه يوسف ... بعد انتظار طويل ... اشتد حبه له ... حب نبى لنبى ...

حب من وجد شيئا قطع عمره كله يبحث عنه ... حتى إذا أشرف على الموت ... وجد ذلك الشيء فجأة !

— ١٠ —

قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ .

« قال قائل منهم » صريحا ، ورضى به الباقون .

« لاتقتلوا يوسف » لاتقدموا على قتل يوسف .

« وألقوه فى غيابة الجب » واقذفوه فى أعماق البئر .

والجب : البئر التى لا حجارة فيها .

اقذفوه فى أعماق بئر من تلك الآبار الجافة المنتشرة فى الصحراء ، والتى ليس فيها حجارة يستطيع أن يصعد عليها ويخرج منه .

« يلتقطه بعض السيارة » يلتقطه بعض الأقوام الذين يسيرون فى الأرض ، فيتملكه فلايمكنه الرجوع إلى أبيه ، فيحصل مطلوبكم من غير ارتكاب جريمة القتل .

« إن كنتم فاعلين » إن كنتم مصرين على أن تفرقوا بينه وبين أبيه .
وقد روى أن القائل هو أخوهم الأكبر ، بكر يعقوب (رؤوبين)

اشعاعات

كذلك ... يبتلى الله ... يعقوب ... ويبتلى يوسف ...

وتلك ضريبة ... مفروضة ... على كل ممتاز ...

فكيف بالأنبياء ... وهم أرقى مايستطاع من الامتياز ؟

لابد أن يكون بلاؤهم شديدا ... شديدا ... شديدا ...

وفى هذه ... يبتلى يعقوب بلاء ذا عديد من الشعب ...

فالمؤتمرون أبناؤه ... والمؤتمر به ابنه ... وحبيبه ...

والمصيبة مزدوجة ... والعقدة عقدتين .

وعانى يعقوب التجربة فى أشق صورها ...

وكان قدرا مقدورا !!

— ١١ —

قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ .

« قالوا » قال بعضهم ، أو قالوا جميعا .

« يا أبانا » يا والدنا .

« مالك لا تأمنا على يوسف » مالك تخافنا على يوسف ؟ !

لماذا تخشى عليه منا دائما ؟

« وإنا له لناصحون » ونحن نريد له الخير ، ونحبه ، ونشفق عليه ؟!

أرادوا بذلك استنزاله عن عادته فى حفظه منهم .

وفيه دليل على أنه أحس منهم بما أوجب أن لا يأمنهم عليه

اشعـاعات

لقد كان يعقوب ـ عليه السلام ـ يحس أن هؤلاء قوم لا يؤتمنون على يوسف ... وأنهم لا يتورعون أن يوقعوا به شرا ...

ويشير إلى ذلك قولهم « مالك لا تأمنا على يوسف » مالنا نراك هكذا دائما ... تخشى على يوسف منا ؟

هناك إذا صراع خفى ... الأب يخفى عن أبنائه إحساسه الخفى نحوهم .. وهم يضيقون بهذا الشعور من أبيهم ...

— ١٢ —

أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ .

« أرسلهُ معنا غدا » دعه يخرج معنا غدا حين نخرج للرعى فى الصحراء .

« يرتع » يأكل ويشرب ، ويسعى وينشط ، حيث يكون المياه والزروع .

« ويلعب » ويلعب كيف شاء ، كما يلعب سائر الصبيان .

فيكسبه ذلك نشاطا وحيوية وبهجة وسرورا ...

« وإنا له لحافظون» من أى مكروه ، فلا تخف عليه .

— ١٣ —

قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُم عَنْهُ غَافِلُونَ .

« قال : إنى ليحزننى » إنه ليحزننى أشد الحزن .

« أن تذهبوا به » أن تأخذوه معكم وتذهبوا به بعيدا عنى ، لأنى لا أصبر على فراقه

« وأخاف أن يأكله الذئب » وأخاف أن تغفلوا عنه ، فيعدو عليه ذئب من ذئاب الصحراء فيأكله .

« وأنتم عنه غافلون » إن زعمتم أنكم له حافظون ، فحفظكم إنما يكون ما دمتم ناظرين إليه ، لكن لا يخلو الإنسان عن الغفلة ، فأخاف غفلتكم عنه .

قالوا : « كان أشغل الأمرين لقلبه خوف الذئب عليه ، لأنه مظنة هلاكه .

« وأما حزنه لمفارقته ريثما يرتع ويلعب ويعود إليه سالما عما قليل ، فأمر سهل .

« فكأنهم لم يشتغلوا إلا بتأمينه وتطمينه من أشد الأمرين عليه »

— ١٤ —

قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ .

« قالوا » قال بعضهم ردا على أبيهم .

« لئن أكله الذئب ونحن عصبة » ونحن جماعة أشداء أقوياء ، يمكننا أن ننزعه من الذئب ، وأن نمنع الذئب عنه .

« إنا إذاً لخاسرون » إنا إذاً لعاجزون ... لا نساوى شيئا ، إذا لم نستطع أن ندفع الذئب عن طفل ونحن على هذه الحال من الكثرة والقوة !

- ١٥ —

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

« فلما ذهبوا به » أى بعد مراجعة أبيهم فى شأنه .

« وأجمعوا » واتفق رأيهم جميعاً .

« أن يجعلوه فى غيابة الجب » أن يلقوه فى أعماق البئر .

فيه تعظيم لما أزمعوا ، إذ أخذوه ليكرموه ، ويدخلوا السرور على أبيه ، ومكروا ما مكروا .

« وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا » وأعلمناه بوحينا إليه ... بأنك ستخلص مما أنت فيه ، وتحدثهم بما فعلوا بك ...

وذلك تبشيراً له .

« وهم لا يشعرون » لتحدثنهم بذلك وهم لا يشعرون أنك يوسف ، لعلو شأنك .. كما سيأتى فى قوله تعالى (فعرفهم وهم له منكرون) .

أو : أوحينا إليه ذلك وهم لا يشعرون بما أوحيناه اليه ، إيناساً له وإزالة للوحشة .

روى أنهم نزعوا قميصه الملون الذى عليه ، وأخذوه ، وطرحوه فى البئر ، وكانت فارغة لا ماء بها ، وجلسوا بعد ، يأكلون ويلهون إلى المساء !!

اشعاعات

لقد بدأت النبوة ...

« وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا »

كيف كان ذلك الوحى ؟

هل كان عن طريق جبريل عليه السلام ... أم كان مباشرة من الله إليه ...

أم كان عن طريق ملك من الملائكة ؟ !

علم ذلك عند الله ... وإنما المهم أن الإيحاء قد حدث ...

أن النبوة قد بدأت ...

الإيحاء إلى طفل ... كما أوحى تعالى إلى عيسى عليه السلام وهو فى المهد صبيا !!

عجب كله فعل الله تعالى !

طفل ... فى مأزق ... لا يدرى شيئا ... يقذفه عشرة رجال ... أشداء ... إلى بئر مهلكة ... عميقة ... لا ماء فيها ... ولا أمل فى الخروج منها ..

فى هذه الظلمات المتراكبة .. التى أحاطت بالطفل البرىء .. الضعيف ... العاجز .. الذى لا يستطيع أن يفعل شيئا لنفسه ...

فى هذا كله ... كان الإشعاع ... كان الوحى من السماء ...

كان الله ... هناك ... مع يوسف .

« وأوحينا » ؟!!

نحن كنا معه ... لم يكن وحده ... إنه لي ... وأنا له ...

وأوحينا ؟!

إلى يوسف ؟!

إلى حبيبنا ... الذي أعددناه لنا ... يوسف !!

لتنبئنهم ... سوف تخبرهم يايوسف مستقبلا ..

بأمرهم هذا ... بهذا الأمر الذي فعلوا بك ...

كيف كان شعور ذلك الطفل ، وهو يعانى تجربة الوحي إليه فى تلك السن ؟

ذلك أمر لا يعلمه إلا الله ... فتلك مقامات تكون بين الله وأنبيائه ... هم الذين يدركونها ..

وإنما الذى يصل إليه ادراكنا ... أن يوسف .. قد فقه ... واطمأن ... حين أوحى الله إليه .

ثم ماذا ؟

ثم عجائب « وهم لا يشعرون » ...

لم يشعر اخوته أنه أوحى إليه فى تلك الساعة الرهيبة ... ساعة ألقوه فى أعماق البئر ... وإنما ظنوا لجهلهم أنه هالك لامحالة ... وأنه وحده يعانى آلام الفناء ...

ولم يشعر اخوته ... حين دخلوا عليه ... وهو فى مقام الملك والعزة ... أنه هو يوسف ... استبعادا أن يكون هذا الملك ليوسف !!

هم جاهلون ... فى الأول ... وفى الآخر ...

ولقد قالها لهم يوسف « إذ أنتم جاهلون » ...

إنه الظلام ... الظلام حين يغشى القلوب ... فتعمى ... ولا تبصر ما وراء المادة !!

— ١٦ —

وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ .

« وجاءوا أباهم » وحضروا جميعا عند أبيهم يعقوب .

« عشاء » مساء ، بعد دخول الظلمة ، ليلا .

« يبكون » يفتعلون البكاء .

بيان لمكرهم بأبيهم ، بطريق الاعتذار الموهم موته ، القاطع عنه متمناه، لتنقطع محبته عنه ،ولو بعد حين ، فيرجع إليهم بالحب الكلى . وقدموا عشاء لكونه وقت الظلمة المانعة من احتشامه فى الاعتذار الكذب ، ومن تفرسه من وجوههم الكذب .

وأوهموا ببكائهم وتفجعهم عليه ، إفراط محبتهم له المانعة من الجرأة عليه .

— ١٧ —

قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ .

« قالوا ياأبانا إنا ذهبنا نستبق » أى فى العدو والرمى بالنصل .

إنا ذهبنا نلعب ونتسابق .

« وتركنا يوسف عند متاعنا » عند ثيابنا ومهماتنا ليحرسها .

« فأكله الذئب » فجاء الذئب وأكله كما حذرت .

« وماأنت بمؤمن لنا ولوكنا صادقين » ونحن نعلم أنك لاتصدقنا فى هذه الحالة ، ولوكنا عندك صادقين ، فكيف وأنت تتهمنا ، وغير واثق بقولنا ؟

اشعاعات

قالوا : استفيد من الآية أحكام :

أن بكاء المرء لايدل على صدقه ، لاحتمال أن يكون تصنعا .

مشروعية المسابقة ، وفيه من الطب رياضة النفس والدواب ، وتمرين الأعضاء على التصرف .

وروى عن عائشة قالت . سابقت رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين ، فسبقته فى المرة الأولى ، فلما بدنت سبقنى ، وقال : هذه بتلك . [ابن ماجة]

وفى الحديث : ليس من اللهو ثلاثة : ملاعبة الرجل أهله ، وتأديبه فرسه ، ورميه بقوسه. [أبو داود]

— ١٨ —

وَجَاءُو عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ .

« وجاءوا على قميصه بدم كذب» بيان لما تآمروا عليه من المكيدة ، وهو أنهم أخذوا قميصه الملون ، وغمسوه فى دم مَعز كانوا ذبحوه .

«قال: بل سولت لكم أنفسكم أمرا» بل الحقيقة أن نفوسكم سوغت لكم أمرا سيئا، من تغيب يوسف ، وتفريقه عنى ، والاعتذار الكاذب .

قالوا : وقوّاه على اتهامهم ، أنهم ادعوا الوجه الخاص الذى خاف يعقوب ، عليه السلام ، هلاكه بسببه أولا ، وهو أكل الذئب ، فاتهمهم أن يكونوا تلقفوا العذر من قوله لهم : (وأخافُ أن يأكلهُ الذئب) .

و (التسويل) تزيين النفس للمرء مايحرص عليه ، وتصوير القبيح بصورة الحسن .

« فصبر » فشأنى صبر .

سوف أصبر على هذا البلاء .

والصبر قوة للنفس على احتمال الآلام كالمصائب إذا عرضت .

«جميل» هو مالاشكوى فيه إلى الخلق ولاجزع ، رضا بقضاء الله ، ووقوفا مع مقتضى العبودية .

أى : سوف أصبر على تلك المصيبة التى لفقتموها صبرا لا أشكو فيه إلى أحد .

« والله المستعان على ماتصفون » والله المطلوب منه العون على احتمال ماتصفون من هلاك يوسف .

وقيل : المعنى : على اظهار حال ما تصفون ، وبيان كونه كذبا ، وإظهار سلامة يوسف ، فإنه عَلَمٌ فى الكذب .

وفى قوله : (والله ُالمستعانُ) اعتراف بأن تلبسه بالصبر لا يكون إلا بمعونته تعالى .

قالوا : لأن الدواعى النفسانية تدعوه إلى إظهار الجزع ، وهى قوية .

« والدواعى الروحانية تدعوه إلى الصبر والرضا .

«فكأنهما فى تحارب وتجالد ، فما لم تحصل إعانته تعالى لم تحصل الغلبة » .

اشعاعات

وقعت المصيبة ... وبدأت التجربة التى كتبت على يوسف وأبيه ...

وجاء الكذابون إلى أبيهم يتصنعون له بكاء ... ويلفقون له أعذارا ...

وأجمعوا على أنهم صادقين ... فماذا كان من يعقوب ؟

كذبهم جميعا ... بل سولت لكم أنفسكم أمرا ...

ورماهم جميعا بأنهم اتفقوا على هذه المؤامرة ... حقدا على يوسف ...

ثم تلألأت فيه أنوار النبوة ... فحجزته عن التفجع وإظهار الحزن ...

فأعلن ... فصبر جميل ... إنى سوف أصبر صبرا جميلا ...

سوف لا أشكو إلى أحد ... سوف آوى إلى الله فى مصيبتى ...

ثم ماذا ؟ ... ثم تلألأت أنوار النبوة مرة أخرى ... فقال ... والله ُ المستعانُ ...

ومنه تعالى أطلب العون على تحمل تلك المصيبة ...

على ماتصفون ؟

أطلب العون على تحمل ما تصفون من كيفية هلاك يوسف ...

العون على تحمل تصور منظره والذئب يقطعه ويأكله ويمضغه بأسنانه ، وينهشه بأنيابه !!!

وقد كنتُ لا أحتمل أن يمسه النسيم !!

مصيبة كبرى ... الطفل المحبوب عند أبيه ... لأنه مستودع النبوة ... ومجلى النور ...

يفعل به الذئب الأفاعيل، ويمزقه تمزيقا ... فتتبدد فى لحظة كل آمال يعقوب فى ابنه ... وكل ما كان يرجوه منه ...

مصيبة لها وقع الصاعقة على النفس ... إلا أن يعقوب ... تجلد ... واستقبلها فى صمت ...

وجعل الألم يلويه ... ويعتصره ... ويمزق فؤاده ...

فلا يزيد على أن يقول : فصبر جميل ... والله المستعان ...

وصبر يعقوب فى مصيبته صبرا جميلا ... فلم يشك ما حل به إلى أحد ...

وإنما جعل يبث إلى الله ...

وكلما اشتد به عصف الحزن ... اشتد التجاؤه إلى الله ... وطلب العون منه تعالى على تحمل مصيبته ...

والله المستعان ؟

اللهم أعنى على تحمل ما ابتليتنى به عونا من عندك ...

وتلك مقامات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ... حين تقع بهم المصائب ... صبر جميل ... والله المستعان ... لا يشكون إلى أحد ... ويستعينون بالله ... انه مقام التوحيد ... الأعلى ...

انهم لا يرون المصيبة من أحد ... وإنما يرونها شيئا مسهم بإذن الله ، وإنما الخلق أسباب ليس إلا ... فهم لا يشكون أحدا من الخلق ...

ولا يرون أن أحدا يستطيع أن يدفع عنهم المصيبة إلا بإذن الله .. فمن أجل ذلك لا يشكون إلى أحد ...

ثم ماذا ؟

ثم مقامهم ... إنهم يستعينون بالله وحده فى حمل آلامهم ... وتجرع مرارتها ... ليقينهم ان الله وحده هو القادر على امدادهم بتلك المعونة ...

ما هذا ؟

هؤلاء هم الأنبياء ... فبينما هم أشد الناس بلاء ...

تراهم أشد الناس علوا فى تحمل البلاء ... وارفعهم قدرا فى الالتجاء إلى الله !!!

لماذا وقعت تلك المصيبة بيعقوب ؟

إنها قهروت إلهى ... قهره قهرا إلى ربه ... فطوى له بساط القرب من ربه ...

أعطاه ولدا .. أجمل ولد ...

ولألأ له فيه اشعاع النبوة ... فرأى فيه نورها ...

فلما أيقن يعقوب أن الله قد آتاه وأعطاه ...

وفرح بنعمة الله عليه ...

واشتد حبه لتلك النعمة ... وصارت له قرة عين ... لا يطيق فراقها ...

سلبها فجأة منه ... على أيدى سائر أولاده ...

لتأخذ المصيبة عليه عقله ... فلايجد أمامه إلا أن يفر فرارا إلى ربه ...

ثم جعل الجناة هم أبناءه ... ليشعر نحوهم يعقوب بالمرارة ... فلايجد فى نفسه رغبة فى الشكوى إليهم ... لأنهم هم الجناة ...

ولايجد فيهم عوضا عما فقد ... بل يراهم سببا دائما لنكده وهمه ..

وبذلك تم عزله تماما عن نفسه التى كانت تحب يوسف ...

وعن أولاده جميعا ... أما يوسف فقد ذهب ... وأما سائر الأولاد فقد تحولوا إلى أعداء ...

فلم يبق أمامه إلا الباب الأوحد ...

إنه القهروت الالهى ... يسلطه تعالى على أحبابه ... ليلجئهم إليه الجاء ...

إنها عملية صعق السوى صعقا .

ودك الأغيار دكا ... فلا يبقى إلا وجه الله أمام المبتلى !!!

وهكذا ذهب كل شيء كان ليعقوب ... ذهبت الأغيار...

وكان عليه أن يسير إلى الله سريعا .

وبدأ قلب يعقوب يموج بأمواج الحزن والأسى ...

وبدأ أجؤاره يصاعد إلى الله...

وكلما أحس ثقل المصيبة ... رفع يديه إليه تعالى : اعنى يارب ... اعنى على حمل هذا البلاء...

وهكذا يصنع الله تعالى أنبياءه ... يصطفيهم ... ثم يبتليهم ... ليجتبيهم لنفسه ...

ثم ماذا ؟

قالوا : فى الآية من الفوائد ...

أن الجاه يدعو إلى الحسد ، كالمال . وهو يمنع من المحبة الأصلية من القرابة ونحوها ، بل يجعل عداوتهم أشد من عداوة الأجانب .

وأن الحسد يدعو إلى المكر بالمحسود ، وبمن يراعيه .

وأنه إنما يكون برؤية الماكر نفسه أكمل عقلا من الممكور ...

وأن الحاسد إذا ادعى النصح والحفظ والمحبة ، بل أظهره فعلا ، لم يعتمد عليه .

وكذا من أظهر الأمانة قولا وفعلا يفعل الخيانة .

وأن الاذلال والإعزاز بيد الله ، لا الخلق .

وأن من طلب مراده بمعصية الله بعد عنه .

وأن الخوف من الخلق يورث البلاء .

وأن الإنسان ، وإن كان نبيا ، يخلق أولا على طبع البشرية .

وأن اتباع الشهوات يورث الحزن الطويل .
وأن القدر كائن .
وأن الحذر لا يغنى من القدر .

— ١٩ —

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ .

« وجاءت سيارة » وجاءت قافلة .

وجاء قوم يسيرون.

« فأرسلوا واردهم » فبعثوا رجلا يرد لهم الماء ويستقى لهم .

« فأدلى دلوه » فأرسل دلوه فى الجب ليملأها ، فتعلق بها يوسف للخروج ، فلما رآه الرجل ...

« قال يابشرى » وقرىء (يا بُشرَاىَ) ابشروا ...

« هذا غلام » هذا صغير ... جميل ... وجدته فجأة يتعلق بالدلو ...

« وأسروه » وأخفوه .

« بضاعة » وجعلوه متاعا للتجارة .

وجعلوا يفكرون أنهم سوف يبيعونه ، ويربحون من وراء ذلك أموالا !

روى أنهم كانوا تجارا من بلدة مدين . فلما أصعد واردهم يوسف وضموه إلى بضاعتهم باعوه لقافلة مرت بهم سائرة إلى مصر بعشرين درهما من الفضة ، ثم أتوا بيوسف إلى مصر .

« والله عليم بما يعملون » والله وحده هو الذى يعلم ماذا يترتب على مايعملون .

هم ينظرون إلى الموضوع نظرة التجار ... الذين يبحثون عن المال ليس إلا ...

والله يريد من وراء ذلك أن يصل يوسف إلى مصر ... ليتحقق فيها مايريده له ...

— ٢٠ —

وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ .

« وشروه بثمن بخس » وباعوه بثمن حقير ...

لأنه لقيط ، لم يدفعوا فيه شيئا ... ولأنه لا يملك ، إذ لو ملك استوفوا ثمنه .

« دراهم معدودة » كناية عن القليل ، لأن الكثير يوزن عندهم .

أى باعوه بثمن حقير ... دراهم قليلة ، معدودة ، لاتوزن ، محدودة ، عشرين درهما من الفضة .

«وكانوا فيه من الزاهدين» وكان الذين التقطوه، فى يوسف من الزاهدين ،من الراغبين عنه ...

كانوا يودون التخلص منه بأى ثمن !!

اشعاعات

قالوا : من الفوائد أن الفرج قد يحصل من حيث لا يحتسب . وأنه ينتظر للشدة .

وأن من خرج لطلب شىء قد يجد ما لم يكن فى خاطره .

وأن الشىء الخطير قد يعرض فيه ما يهوّنه .

وأن البشرى قد يعقبها الحزن ، والعزة قد يعقبها الذلة ، وبالعكس .

ثم ماذا ؟

فيها أن يوسف كان صغيرا جدا وقتها إذ لو كان يدرك شيئا لأخبر أهل القافلة عن أهله .. ولردوه إلى يعقوب ... ولكن معنى ذلك أنه لا يستطيع أن يرشد عن أبيه ... وعن اخوته ... وعما فعل به ...

ويرجح أنه كان وقتئذ لا يجاوز ثلاث سنين على الأكثر ... لأن الطفل بعد هذه السن يستطيع إذا ضل عن أبويه أن يرشد عنهما ..

ويشير إلى ذلك قول الرجل وهو يصيح « يابشرى ...هذا غلام»..أى هذا صغير .

— ٢١ —

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

« وقال الذى اشتراه من مصر » روى أن القافلة لما نزلت مصر اشتراه منهم رئيس الشرطة عند ملك مصر ، أى وزير الداخلية ، فأقام فى بيت سيده ، والعناية الربانية تحفه ، والنجاح يحوطه .

فكان يرى سيده أن كل ما يأتى به ينجحه الله تعالى على يده ، فنال حظوة لديه ، وأقامه قيِّماً على كل ما يملكه ، وضاعف تعالى الخير فى زرعه وماله وثروته .

« لامرأته » لزوجته .

وكانا عاقرين ... لا يولد لهما ، ففرحا به فرحا شديدا ...

« أكرمى مثواه » اجعلى مقامه حسناً مرضيا .

و (المثوى) محل الثواء ، وهو الإقامة .

أى : أكرميه على أبلغ وجه وأتمه .

« عسى أن ينفعنا » فإنى أشعر نحوه بحب شديد ، وأتوسم فيه خيراً كثيرا سوف يعود علينا .

« أو نتخذه ولدا » أو نتبناه .. عوضاً عما نحن فيه من العقم ، والحرمان من الذرية ..

« وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض » كما جعلنا له مقاما كريما فى منزل العزيز جعلنا له تصرفا بالأمر والنهى ، ومكانة رفيعة فى أرض مصر ، ووجاهة فى أهلها ، ومحبة فى قلوبهم .

« ولنعلمه من تأويل الأحاديث » ليكون عاقبة ذلك تعليمه ، تأويل الرؤيا التى ستقع من الملك ، وتفضى بيوسف إلى الرياسة العظمى .

« والله غالب على أمره » والله لا يُمَنع عما يشاء ، ولا يُنازع فيما يريد .

أو : والله غالب على أمر يوسف ، أريد به من الفتنة ما أريد غير مرة ، فلم يكن إلا ما أراد الله له من العاقبة الحميدة .

« ولكن أكثر الناس لا يعلمون » لا يدركون أن الأمر كله بيده تعالى ، فيأتون ويذرون زعما أن لهم شيئا من الأمر .

أو : يجهلون لطائف صنعه ، وخفايا لطفه .

اشعاعات

فيها أنوار ... وألطاف ... ورحمات ... ونواميس ...

فمن إشعاعاتها أن الذى اشتراه من مصر ... كان ذا سلطان ... وزيراً للداخلية ... بيده السلطة العليا فى الأمن فى البلاد .

ومثل ذلك الرجل ... يكون الذى فى بيته ذا أمر ونهى كذلك ... تبعاً لسلطات سيده ..

وهذا تمهيد ... وتدريب ليوسف ... على مباشرة السلطات ومهام المناصب ... فى المستقبل ...

وكان ذلك الرجل عقيما ... وكانت زوجته عاقرا ... فهناك استحالة أن يكون لهما ذرية ... ومثل هؤلاء يكون شوقهم إلى الطفل شديدا ...

وهذا هو ما حدث عندما شاهده العزيز لأول مرة .. فقد أحبه حبا شديداً ... وتعلق به قلبه .

ومن ذا الذى لا يحب طفلا .. على صورة يوسف .. فيه لألاء النبوة ظاهرا وباطنا ؟

فعوضه الله تعالى بحب أبيه ... حب العزيز ...

وهكذا ... قطعه من هناك ... ليصله هنا ... إنه هو البر الرحيم ! !

ثم ماذا ؟ ... ثم هذه ... امرأة العزيز ... ما إن رأته ... حتى جنت به حبا ... وشغفها حبا . .

وما لها لا تحب طفلا لا يوجد على وجه الأرض مثل جماله ... ولا أرق من صفاته ؟

أحبته بغريزة الأمومة المحرومة من الطفولة إلى الأبد ...

وأحبته بغريزة الأنثى التي تدرك باللاشعور امتياز الذكر الذى أمامها حين تجتاحه بعينيها !!

وأحبته لمجرد أنه طفل رائع الجمال حلو التقاطيع ... بارع القسمات . . فى نظراته قوة خارقة ... أعدها الله لتسود على أهل مصر جميعا ...

فرأت فيه الطفل الذى كانت تتمنى !!

وهكذا ... عوضاً عن أمه التى فقد ... أبدله الله أما حنونا ... وقلبا شفوقا . .

قطعه هناك ... ووصله هنا ... إنه هو الودود الرحيم !

ثم ماذا ؟

ثم انظر إلى تعبير العزيز « أكرمى مثواه » ...

من الذى دفع العزيز أن يقول هذا الكلام ؟.

إنه الله ... هو الذى حرك قلب العزيز نحو يوسف ... وجعله يحس أن هذا طفل غير الأطفال جميعا ... إنه شيء آخر ... شيء ممتاز ... يتمنى كل إنسان أن يكون له ولدا ...

ونفس الشعور كان عند امرأته ... تلقته بفرحة لا تعدلها فرحة ...

تماماً كما صنع الله تعالى بموسى . .

« وأَلْقَيتُ عَلَيكَ مَحَبَّةً مِنّي » ... كما ألقى الله تعالى محبة على الطفل موسى . . جعلت امرأة فرعون تقول « ... قُرةُ عَينٍ لى ولك ، لا تقتلوه ، عسى أن ينفعنا ، أو نتَّخِذَه ولداً ... »

ألقى الله تعالى محبة على يوسف ... فما رأته امرأة العزيز ... حتى وقع من قلبها موقعاً عظيما ...

أرأيت ؟ ... كما صنع بالطفل موسى ... صنع بالطفل يوسف !!

ناموس واحد ... يسرى فى أنبياء الله تعالى !!!

لقد كان يوسف وقتها لم يبلغ الثالثة من عمره ...

وكان موسى وقتها رضيعا ... ولد لساعات قليلة ...

هذا يدفع إلى امرأة عاقر ... زوجة الملك ...

وهذا يدفع إلى امرأة عاقر ... زوجة العزيز ...

فماذا تفسر ذلك ؟

إلا أن يكون الصانع واحدا ... له ناموس واحد ... لا يتغير !!

وهكذا ... مكن الله ليوسف فى الأرض ... حين جعله ذا تأثير خارق على قلب وزير الداخلية ... وقلب زوجة وزير الداخلية ... ومتى هيمن يوسف على قلبيهما فقد هيمن على عقولهما .. ومتى هيمن على عقولهما فقد هيمن على ما تحت يد الوزير من سلطات !

تمكين باطن ... يؤدى إلى تمكين ظاهر ...

وكذلك مكنا ليوسف من قلبيهما ... فمكنا له بذلك فى الأرض !!

فانظر إلى عجائب صنعه تعالى !!

ثم ماذا ؟ ... أو ماعلاقة تعليمه تأويل الأحاديث ... بهذا الذى حدث ليوسف ؟

قد يبدو ألا علاقة ... ولكن هناك علاقة ... بعيدة ... عميقة ...

أن التمهيد ليوسف فى قصر وزير الداخلية ... وإشرافه على شئون الوزير الخاصة ... يعطيه الفرصة ليتعرف على شخصيات مصر ... ليشتهر أمره بينهم ... ويزدادوا له حبا . . ويزدادوا له تعظيما ...

وهذا سوف يكون له من الآثار البعيدة بعد ذلك ماله ...

حتى إذا رأى الملك رؤياه ... وحاروا فيها جميعاً ... وقع اختيارهم على يوسف ... ذلك المشهور بينهم جميعاً ... ليؤول الملك رؤياه ...

فيزداد شهرة على شهرة ... تدفع الملك أن يختاره ليكون رئيساً للوزراء !!

ثم ماذا ؟

ثم ذلك الناموس الرهيب ... «والله غالب على أمره» ... والله غالب أمرُه ... نافذ حكمه ... إرادته هى الغلابة الغالبة ... دائما ... وأبدا ... لا يكون إلا مايريد ...

هذا هو الحق ... «ولكن أكثر الناس لا يعلمون» ... وهذا هو المؤسف من الأمر !!

يتوهم الناس أن لهم شأنا ... ولا شأن لهم فى الحقيقة ...

أو أن لهم إرادة فعالة ... لا يمنعها شىء ...

والحقيقة العميقة جدا جدا جدا ...

أن الناس لهم إرادة ... منحهم الله إرادة حرة ... يفعلون مايشاءون ...

ولكن إرادة الله هى الغالبة ... على تلك الإرادات جميعاً ...

إذا شاءت سمحت لها أن تمضى ... وإذا شاءت لم تسمح ...

«وما تشاءون إلا أن يشاء الله» ...

ولعل هذا هو سر قوله «والله غالب على أمره» ...

لم يقل «والله نافذ أمره» وإنما «غالب» ... إشارة إلى أن هناك شيئا قد غُلب على أمره ...

هنالك الناس جميعا ... لهم إرادات حرة ...

ولكنها إذا تسلطت عليها إرادة الله غُلبت هنالك ... ونفذت فيها كما تشاء ...

وهذا الناموس ... يكشف الغطاء عن ذلك الأمر المشكل الذى حير كثيراً من الناس ...

انها نظرية السلطة العليا ... تبطل السلطة الدنيا ...

أنت أيها الإنسان لك إرادة ؟ ... نعم ... ولكن هناك إرادة عظمى ... لها أن تلغى إرادتك فى أى وقت ...

منحك هو إرادة حرة ... والذى منح له أن يسلب فى أى وقت مامنح ...

— ٢٢ —

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ .

« ولما بلغ أشده » ولما بلغ يوسف زمان اشتداد جسمه وقوته .

ولما اكتملت رجولته ، واكتمل عقله .

قالوا : العرب تقول : بلغ فلان أشده ، إذا انتهى منتهاه فى شبابه وقوته قبل أن يأخذ فى النقصان .

« آتيناه حكما » آتيناه من لدنا حكما بين الناس ... أعطيناه رياسة وعلوا بالحق ...

« وعلما » وعلما من لدنا ... آتيناه علما عظيما ... علوم النبوة ... وعلوم الملك وسياسة الشعوب ... وحسن تصريف مقدرات البلاد ...

وفى تنكير الحكم والعلم .. إشارة إلى عظمة ذلك الملك ، وعظمة ذلك العلم ...

« وكذلك نجزى المحسنين » ومثل هذا الجزاء العظيم ... نكافىء دائما الذين أحسنوا فى حياتهم الدنيا ... الذين اتجهوا الينا ... وأرادوا وجهنا ...

اشعاعات

أفى تلك الآية اشعاع ؟!

بل اشعاعات ... بل اشعاعات الاشعاعات !

تكاد من نورها ... تقول : دعونى !؟

فيها ناموس عظيم ... أوجبه الله تعالى على نفسه ... « وكذلك نجزى المحسنين »..

ناموس لايتبدل ... كل من أحسن فى حياته ... كل من أخلص لله قلبه ... كان حتما أن يؤتيه الله حكما وعلما من لدنه ...

ذلك أن القلب هو جهاز الاستقبال للاذاعات الالهية ... إن صح ذلك التعبير ...

صفات الله تعالى ... فعالة دائما ... منطلقة فى الوجود دائما ...

وقلوب الخلق هى الأجهزة التى أعدها الله تعالى لاستقبال آثار تلك الصفات ...

فمن أحسن...فمن أخلص قلبه لله...أى أدارقلبه لله... أى فتح قلبه لاستقبال الاذاعة الالهية ... لاستقبال الارسال الالهى ...

التقط قلبه تلك الموجات الالهية المنتشرة فى الكون كله !!

ماهذا ؟

هذا اشعاع باهر ...

إن القلوب خلقها الله له ... له وحده ... أجهزة مخصصة لاستقبال موجات رحماته التى يرسلها فى ثنايا الكون كله ...

فمتى خلصت له...وتخصصت له ... استقبلت فورا تلك الموجات... موجات الرحمة والعلم...والرضى ... والأنس ... والخير ...

أى : آتيناه حكما وعلما ...

عجائب والله عجائب !!

كما تدير مفتاح التليفزيون على محطة ما ... فتكون إذاعة تلك المحطة ...

كذلك هذه القلوب ... لها مفتاح ... هو الاحسان ... هو الاخلاص...هو التوجه المباشر إلى الله ... هو إرادة وجه الله ...هو أن لايكون فيها مكان لغيره سبحانه ...

ومتى أدرت ذلك المفتاح ... كانت الاذاعة على الفور...تدفقت الموجات الالهية إلى قلبك تدفقا مباشرا ...

بل تلك الموجات أرقي وأرقى ... وأعلي وأعلي ... وله المثل الأعلي ...

— ٢٣ —

وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ .

« وراودته » وطلبت منه أن يواقعها بشتى أنواع المطالبة والمخادعة .

« التي هو في بيتها » المرأة التي يعيش يوسف في قصرها .

« عن نفسه » أي خادعته ، ولاطفته ، لتستميله إليها ... وتدفعه إلى ما تريد منه أن يفعل .

« وغلقت الأبواب » وأحكمت إغلاق الأبواب . لتحقق بذلك خلوة تامة بيوسف .

« وقالت» وقالت ليوسف .

« هيت لك » تعال ...

« قال » قال يوسف .

« معاذ الله » أعوذ بالله معاذاً مما تدعينني إليه ، إنه زنى وخيانة فيما أؤتمنت عليه ، وضراً لمن توقع النفع ، وإساءة إلى من أحسن إلى !!

« إنه ربى » إنه الله ربى ...

«أحسن مثواى» أحسن مقامى ، وأكرمنى غاية الإكرام ... فكيف أقابل إحسانه إلى ، بالإساءة ، والمعصية ؟

أو : إن الشأن الخطير هذا ، وهو ربى ، أى سيدى العزيز ، أحسن مثواى ، أى تعهدى ، حيث أمرك بإكرامى ، فكيف يمكن أن أسىء إليه بالخيانة فى حرمه ؟

وفيه ارشاد لها إلى رعاية حق العزيز بألطف وجه .

« إنه لا يفلح الظالمون » المراد بالظالمين كل من ظلم ، كائنا من كان فيدخل فى ذلك المجازون الاحسان بالإساءة والعصاة لأمر الله تعالى ، والزناة لأنهم ظالمون لأنفسهم وللمزنى بأهله .

اشعاعات

قالوا : فيها ثمرات ...

أن الواجب عند الدعاء إلى المعصية الاستعاذة بالله من ذلك ، ليعصمه منها ، ويدخل فيها دعاء الشيطان ، ودعاء شياطين الإنس ، ودعاء هوى النفس .

أن السيد والمالك يسمى (رَبًّا) .

وأقول ... فيها اشعاعات كبرى ...

أن نشأة يوسف فى قصرها ... من صغره حتى بلغ أشده ... أى من دون الثالثة ... حتى صار شابا قويا ... تشتهيه كل انثى ... جعلها تطلع على خفايا شخصيته الباهرة القاهرة

فشخصية يوسف كانت باهرة ... بما فيها من أنوار ساطعة ...

وقاهرة ... بما فيها من قوة أعدها الله لتحكم وتتحكم ...

فهو الجميل الأخاذ ... والقوى الجذاب ... وهذا آخر ما تطمح إليه الأنثى ...

كما اطلعت منه على خفاياه ... فبهرها سناه ...

فبينما هو أحسن الناس صورة ... إذا هو أحسنهم خلقا ...

وبينما ظاهره أنه مملوك ... إذا هو ملك يملك ولا يُملك ...

ها هى فى جمالها ... وزينتها ... وسلطانها عليه ...

ترتب ترتيبا ... وتخلى القصر ممن فيه ...

وتغلق أبواب القصر ، وأبواب جناحها ، وأبواب حجرة نومها ...

أعدت الجو ... جو المتعة ... والاستمتاع ...

وها هى تتثنى ... وتراوده بشتى طرق المراودة ...

وتستسلم له بشتى وسائل الاستسلام ...

وتغريه بكل امكانيات الإغراء عندها ...

عطور ... زهور ... اخراج ... خلوة ...

كل شيء يدعو إلى الاستجابة ...

وهو يأبى .. ويأبى .. حتى تضطر المرأة أن تصارحه برغبتها فيه علانية بعد أن فشلت وسائل التلميح والإغراء فقالت له : هيت لك ..

أي تعال .. تعال ياحبيبي ..

تعال يامحبوبي .. إني قد جننت بك حبا ..

فماذا كان ؟

ما إن وصلت إلى هذا الحد من الاصرار على تنفيذ رغبتها حتى نادى يوسف ربه :

معاذ الله .. أعوذبك يالله ، أن تعصمني من تلك الفحشاء ..

ثم صاح : كلا .. إنه ربي .

لن أعصيه من أجلك .. إنه أحسن مثواى .. إنه أكرمني فكيف أقابل اكرامه بالإساءة

ثم أعلن يوسف ناموسا خالدا من نواميس الله ... إنه لا يفلح الظالمون .. لا يفلح من ظلم .. أبدا ... لأن الظلم ظلمات ..

ماهذا ؟ . لقد افتتنت المرأة بجمال يوسف ، فأرادته لنفسها ، وراودته عن نفسه ...

وهنا تلألأ معدن يوسف فأبى ... ثم أبى ...

لقد كانت ترى في يوسف مجرد رجل ككل الرجال ..

تراه رجلا قويا جميلا .. يحقق رغبتها الجنسية على أكمل وجه ..

تراه مجرد مملوك لها .. لها أن تأمره فيطيع .. لها أن تستمتع به كيف شاءت متى شاءت ..

ولا تتصور أنه سوف يعصى لها أمرا !!

وجاءته بكل فتنتها .. فجاءها بكل امتناعه .

وجاءته بكل ظلماتها ، فصدها بكل أنواره ..

لقد رأت المرأة من يوسف ظاهره ... رأت منه رجلا حسن الصورة قوى البدن ... فيه جاذبية تجذب النساء إليه جذبا ..

وغاب عنها حقيقة أنواره .. فلم تر ما أودع الله فيه من أسراره !

— ٢٤ —

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ.

« ولقد همت به » ولقد عزمت امرأة العزيز عزما جازما ، لا يلويها عنه صارف . عزمت على ضرورة مخالطته ، والظفر بما تريد منه ، بعد ما باشرت مباديها من المراودة ، وتغليق الأبواب ، ودعوته إلى الاسراع إليها بقولها (هَيْتَ لكَ) مما اضطره إلى الهرب إلى الباب .

والهم يكون بمعنى القصد والإرادة .

ويكون فوق الارادة ودون العزم ، إذا أريد به اجتماع النفس على الأمر والازماع عليه . وبالعزم : القصد إلى امضائه . فهو أول العزيمة .

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ، مالم تتكلم به ، أو تعمل به . [البخارى]

« وهم بها » معنى الهم هنا هو خطور الشيء بالبال ، أوميل الطبع ، كالصائم فى الصيف يرى الماء البارد ، فتحمله نفسه على الميل إليه ، وطلب شربه ، ولكن يمنعه دينه عنه .

فالهم هنا عبارة عن جواذب الطبيعة ، ورؤية البرهان جواذب الحكمة .

وهذا لا يدل على حصول الذنب ، بل كلما كانت هذه الحال أشد ، كانت القوة على لوازم العبودية أكمل .

وقالوا : إن همه هنا بمعنى ميله إليها ، بمقتضى الطبيعة البشرية ، وشهوة الشباب ، ميلا جبليا لا يكاد يدخل تحت التكليف ، لا أنه قصدها قصدا اختياريا .

« لولا أن رأى برهان ربه » لولا أن رأى برهان ربه لهم بها كما همت به ، لتوفر الدواعى .

ولكنه رأى من تأييد الله له بالبرهان ماصرف عنه السوء والفحشاء .

لولا أن رأى برهان ربه : أى حجته الباهرة ، الدالة على كمال قبح الزنى، وسوء سبيله. والمراد برؤيته لها كمال ايقانه بها ، ومشاهدته لها مشاهدة واصلة إلى مرتبة عين اليقين وكأنه عليه السلام قد شاهد الزنى بموجب ذلك البرهان النير ، على ما هو عليه فى حد ذاته أقبح ما يكون ، وأوجب مايجب أن يحذر منه ، ولذلك فعل مافعل من الاستعصام والحكم بعدم افلاح من يرتكبه .

أى : لولا مشاهدة برهان ربه فى شأن الزنى لجرى على موجب ميله الغريزى، ولكن حيث كان مشاهدا له من قبل ، استمر على ماهو عليه من قضية البرهان .

وهذا بيان أن امتناعه — عليه السلام — لم يكن لعدم مساعدة من جهة الطبيعة ، بل لمحض العفة والنزاهة ، مع وفور الدواعى الداخلية ، وترتيب المقدمات الخارجية ، الموجبة لظهور الأحكام الطبيعية .

« كذلك لنصرف عنه السوء » لندفع عنه المنكر والفجور والمكروه .

« والفحشاء » ولندفع عنه الفحشاء ، وهى ما تناهى قبحه ... لندفع عنه الزنى .

« إنه » إن يوسف

« من عبادنا المخلصين » من عبادنا الذين أخلصناهم لطاعتنا ، وعصمناهم ، لنخصصهم لأنفسنا .

وقرىء : المخلِصين

بمعنى الذين أخلصوا دينهم لله

اشعـاعات

ماذا فى هذه ؟ ...

فيها أجمل أزمة نفسية يمكن أن يتعرض لها إنسان ...

وأشق امتحان ... يمكن أن يجوزه بشر ...

وفيها شهادة ليوسف .. أنه أعرض عن شيء .. ليس من المستطاع الاعراض عنه ..

والمنظر فى الجملة ... هو هذا ... امرأة على الغاية من الجمال والدلال والشباب ... فى خلوة تامة ... وأبواب مغلقة ... فى جو يشجع كله على الجريمة ...

أقبلت إليه شبه عارية ... تدعوه إلى نفسها ... بكل ما يمكن لأنثى أن تستميل به الذكر ...

وشاب على الغاية من الجمال ... وعلى الغاية من القوة ...

تفرض عليه المرأة هذا الوضع فرضا ...

وتدعوه إلى نفسها بكل ما يثير الغريزة الجنسية فى الذكر !

ماذا يحدث فى هذا الموقف ؟

الذى يحدث أن المرأة التى تريد ... وتمنى نفسها بقضاء لحظات من اللذة والمتعة ... تكون على الغاية من التفتح والرغبة والاشتهاء ...

وأن الذكر الذى رأى أمامه فجأة امرأة عارية ... أو شبه عارية ... تعرض نفسها عليه ... تتحرك فيه الغريزة ... وتحدثه نفسه بجمالها ، واشتهائها ...

شىء غريزى ... لايقاوم ...

فماذا حدث من يوسف ؟

تحركت فيه الغريزة ... وتحرك فيه العقل فى وقت واحد ...

هذه تشتهى ... وهذا يقيم له البرهان على أن هذا الذى تحدثه به نفسه ، إنما هو فعل قبيح ، ومعصية تغضب الله تعالى ...

وانتصر العقل .. على الغريزة ..

وكان ذلك امتحاناً رهيباً ..

جازه يوسف .. ونجح فيه نجاحاً باهرا ..

هذه هى القصة التى أكثر الناس من ليّها بألسنتهم ... وذهبوا فيها المذاهب .. منظر عادي .. مألوف ..

إنه الصراع النفسى الذى يحدث فى نفس كل إنسان عندما يتعرض للوقوع فى معصية .

تجاذب طرفى الاستعلاء .. والنزول ..

تجاذب الغريزة مع العقل ..

وانتصر العقل .. وكان ذلك بتأييد من الله ليوسف .

لماذا ؟

لأنه مخلص لله .. اختاره الله لنفسه .

ولم تظفر المرأة من يوسف بشىء مما كانت تمنى به نفسها !!!

— ٢٥ —

وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

« واستبقا الباب » ولقد همت به ، وأبى هو ، واستبقا الباب .

أى قصد كل سبق الآخر إلى الباب .

فيوسف ــ عليه السلام ــ ليخرج ، وهى لتمنعه من الخروج .

والمراد بالباب هنا الباب الخارجى للقصر ، الذى منه المخلص والمهرب ..

لقد فر يوسف منها .. وتوجه نحو باب القصر الخارجى .. ليهرب من تلك الفتنة التى أحيط بها ..

وانطلقت هى من ورائه .. وهى على ماهى عليه من إخراج وعرى .. تريد أن تمنعه .. وتجذبه إليها مرة أخرى !!

« وقدت قميصه من دبر » أى اجتذبته من خلفه فانقد ، أى انشق قميصه .

« وألفيا سيدها لدى الباب » وصادفا زوجها هناك قادما عند الباب .

« قالت » قالت امرأة العزيز .. حين ضبطها زوجها وهى على تلك الحال .

« ماجزاء من أراد بأهلك سوءا » ما عقاب من أراد أن يزنى بزوجتك ؟

« إلا أن يسجن » إلا أن يلقى فى السجن .

« أو عذاب أليم » أو يعذب على ذلك أشد العذاب .

اشعاعات

انطلقت صاحبتنا وراء يوسف .. تحاول أن تمنعه من الخروج .. وترغمه على الاستجابة لرغبتها الحارقة ..

وفجأة كان وزير الداخلية ... كان زوجها عائدا .. من الخارج ..

وفجأة .. كذلك .. تصرفت المرأة الذكية .. وخرجت من المأزق ..

فاتهمت يوسف بأنه كان يريد أن يغتصبها .. وأنها كانت تقاومه .. وهو يريد أن يرغمها !!!

ولم تقف عند ذلك .. بل حكمت هى فى القضية ..

وحددت العقوبة .. إما السجن وإما التعذيب أشد العذاب !!

فماذا نأخذ من هذا ؟

نأخذ منه أن فى هذه عدة أزمات متداخلة فى بعضها البعض ..

أزمة للزوج .. حين يفاجأ بزوجته .. مع شاب .. وهما فى حالة مريبة .. وهو لا يدرى ما القصة ؟ ... وهو على ماهو عليه من المهابة والسلطة فى منصبه ... فاذا بمنزله فى مثل هذه الفوضى !!

ثم هذا الشاب ... يوسف ... الذى أكرمه ... ورباه ... ورعاه ... كيف سولت له نفسه أن يخونه هذه الخيانة ؟

أزمة عنيفة جداً ... وقع فيها الزوج فجأة !!

وأزمة ليوسف .. حين يجد نفسه فجأة أمام سيده ... الذى أحسن إليه ، ورباه ... وأكرمه ... فى مثل هذا الموقف ...

وماذا يكون إحساس يوسف ، وهو يشعر بالآلام التى تجتاح الرجل ، وهو يفاجأ بتلك المفاجأة ؟

ثم كيف يبرىء نفسه ... وهى قد سارعت إلى اتهامه .. والمرأة مصدقة دائما فى تلك المواقف؟

وأزمة .. للمرأة نفسها .. حين فوجئت بزوجها .. يضبطها متلبسة .. كل الشواهد تشير إليها .. ولذلك سارعت إلى اتهام يوسف .. قبل أن ينتشر الأمر !!

وهكذا .. أزمات متداخلة .. تتلاحق سراعاً ..

فما كان من يوسف .. كذلك إلا أنه تصرف بسرعة .. ودفع عن نفسه تلك التهمة الشائنة .. فقال ..

— ٢٦ —

قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ .

« قال » قال يوسف دفاعا عن نفسه ، ونفيا لتلك التهمة الشائنة عنها .

« هى » هى ولست أنا

« راودتنى عن نفسى » حاولت معى شتى المحاولات لاغرائى على ماتريد .. فأبيت .. واعرضت .. وفررت منها فرارا .. فوثبت من خلفى .. تشدنى إليها شدا ..

« وشهد شاهد »وشهد رجل هذا المشهد العجيب..وكان ذلك الرجل قادما مع زوجها

« من أهلها» من أسرتها .. وليس من أسرة زوجها .

« إن كان قميصه قد » إن كان قميصه تمزق .

« من قبل » من أمام .

« فصدقت » فصدقت زوجتك أيها العزيز .

« وهو من الـكاذبين » لأن قدّه من أمام أمارة الدفع عن نفسها به ، أو تعثره في مقام قميصه بسبب إقباله عليها ، فقدّ لإسراعه خلفها .

— ٢٧ —

وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ .

« وإن كان قميصه قد من دبر » تمزق من خلف .

« فكذبت » فكذبت امرأتك أيها العزيز .

« وهو من الصادقين » لأنه امارة ادباره عنها ، بسبب أنها تبعته ، واجتذبت ثوبه إليها فمزقته ..

— ٢٨ —

فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ .

« فلما رأى » فلما رأى العزيز .

« قميصه » قميص يوسف .

« قد من دبر » شق من خلف .

« قال » قال العزيز .

« إنه من كيدكن » إن هذا الذى حدث من مكركن وحيلكن أيها النساء .

« إن كيدكن عظيم » إن مكركن شديد .

وإنما استعظم كيدهن لأنه ألطف وأعلق بالقلب ، وأشد تأثيرا في النفس ، ولهن فيه دلال ورفق ، وبذلك يغلبن الرجال .

— ٢٩ —

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ .

« يوسف » ثم قال العزيز موجها الكلام إلى يوسف : يا يوسف .

« أعرض عن هذا » أعرض عن هذا الأمر واكتمه ، ولا تحدث به .

«واستغفري لذنبك»واعتذري إلى يوسف عن الاساءة إليه .

استغفري لذنبك الذي وقع منك من ارادة السوء بهذا الشاب ، ثم قذفه بما هو بريء منه .

« إنك كنت من الخاطئين » إنك كنت من القوم المتعمدين للذنب .

إنك كنت من المحترفين الاجرام ، الذين يرتبون للجريمة ، ويهيئون لها الأسباب ، ثم يرمون بها البرآء .

يقال : خطيء إذا أذنب متعمدا ، وأخطأ إذا فعله من غير تعمد .

اشعاعات

اختلفوا في أسباب تهاون العزيز مع امرأته إلى حد أنه اكتفى منها بالاعتذار إلى يوسف .

فمن قائل : كان رجلا حليما !

ومن قائل : عذرها لأنها رأت مالا صبر لها عنه .

ومن قائل : إنه كان قليل الغيرة .

ومن قائل : هي لطف من الله تعالى بيوسف عليه السلام .

ومن قائل : إنه مقتضى تربة مصر .

ومن قائل : إن لاختلاف أحوال العمران في الخصب والجدب ، وأقاليمه في الحرارة والبرودة وتوابعهما ، أثرا في أخلاق البشر وأبدانهم .

وعندي أن العزيز كان رجلا ككل الرجال، ليس بقليل الغيرة، ولا بشديد البرودة .

وإنما هو يعلم تمام العلم أن يوسف لن يرتكب الفحشاء .. مهما كانت المغريات .. لأنه خالطه .. طيلة طفولته ... وصباه .. وشبابه .. فتأكد لديه أنه عفيف متعفف ، ذا إرادة خارقة في السيطرة على نفسه ، وكبح جماحها .

وهذا هو أقوى الأدلة عندي ، في موقف الرجل .

أنه موقن أن يوسف لن يفعل سوءا بزوجته أبدا .

هذا من ناحية .. ومن ناحية أخرى .. أن الرجل خاف الفضيحة والتشهير السياسى .

فهو وزير للداخلية .. أى يشغل أكبر منصب سياسى بعد الملك .

وهو صاحب السلطات الواسعة ، فلو أن الأمر ذاع فى مصر ... أن امرأة العزيز على علاقة بمملوكها .. لكان ذلك ضربة قاضية لمستقبله السياسى فى البلاد .

ولتلقفه خصومه السياسيون ، وشهروا به تشهيرا .

ولذلك رأى الرجل الداهية ، أن يعالج الأمر علاجا عميقا .

فطلب من يوسف أن يعرض عن الموضوع .. ويعتبره منتهيا .. ويكتمه ولا يتحدث به إلى أحد .

وذلك بعد أن أعلن إليهما أن الفعل من ترتيب زوجته .. فبرأ بذلك يوسف واتهمها

ثم طلب إليها أن تعتذر إلى يوسف لأنها ارتكبت جريمة كبرى .

وبذلك يفوت على خصومه السياسيين أن ينالوه من هذا الطريق فيقولوا : وزير الداخلية يكتشف فضيحة فى قصره .. امرأة العزيز تراود فتاها .. المملوك الساحر على علاقة بسيدته .. زوجة وزير الداخلية تقع فى غرام .. يوسف . فاتن النساء !!

إلى غير هذا من أراجيف التشهير السياسى الذى يكون فى مثل هذه الحالات .

أضف إلى ذلك أن الرجل أذل امرأته بهذا .

فهو قد سجل عليها الجريمة .. واحتفظ بهذا السلاح لديه .. ليشهره فى وجهها فى أى وقت .

هذا فضلا عن أن الرجل كان مترفا ... بورجوازيا ، ابن قصور ، ولم يكن على دين يقبح لديه الفحشاء ... وإنما كان ابن ذوات ... قد ألف مثل هذه الألاعيب الغرامية فى مجتمعه ... ولا يراها كبيرة .

ولذلك عالج الموضوع بما يتناسب مع تفكير هؤلاء الناس .

ولكن هل هذا كله قد أدى إلى كتمان الفضيحة .. واسدال ستار النسيان على الموضوع؟

كلا .. فقد تسرب الخبر فى العاصمة .. وأصبح حديث القصور .. ونساء القصور ...

ولذلك يقول ..

— ٣٠ —

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ .

« وقال نسوة » وانتشر الخبر ... وشاع وذاع وقال نسوة من ربات القصور ...

« فى المدينة » فى العاصمة ... فى مصر .

« امرأة العزيز » زوجة الأمير .. زوجة صاحب العزة والسلطة والسيادة ...

« تراود فتاها » تطلب من مملوكها ... تعرض نفسها على مملوكها ... بكل ما يتصور من أساليب العرض والاغراء ...

« عن نفسه » تخادعه عن نفسه ... ليقع بها ، ويأتيها ... ومع هذا كله يتنزه عنها ، ويأبى !!!

« قد شغفها حبا » قد خرق حبه شغاف قلبها ، حتى وصل إلى الفؤاد .

والشغاف حجاب القلب .

« إنا لنراها فى ضلال مبين » إنا لنراها فى خطأ عن طريق الرشد والصواب . واقحام الرؤية ، للاشعار بأن حكمهن بضلالها صادر عن رؤية وعلم ، مع التلويح إلى تنزههن عن مثل ذلك .

اشعاعات

وانتشر الأمر ... رغم محاولات العزيز ... وأصبحت القصة حديث العاصمة . . وموضع فكاهة النساء والبيوتات ...

زوجة الأمير ... زوجة وزير الداخلية تعرض نفسها على مملوكها ... والمملوك يأبى !!

هذه امرأة مجنونة .. امرأة مستهترة .. امرأة فاجرة .. وهذا هو معنى: إنا لنراها فى ضلال مبين ..

امرأة لم ترع حرمة قصرها .. وحرمة زوجها .. وحرمة أسرتها ..
فيرد بعضهن : قد شغفها حبا .. الحب .. الحب .. ماذا تصنع وقد جنت بحبه ؟! .
فالمفهوم من الفقرات الثلاث أن الموضوع أصبح حديث الصالونات والمجتمعات والقصور .. وغير القصور .

والآية تسجل بعضا من اتهامات الناس لها ، وأقاويلهم فيها ... فتسجل :
« امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه » .
« قد شغفها حبا »
« إنا لنراها فى ضلال مبين »

هذا جزء من كل .. وليس كل ماقيل وإنما هو أهم ما قيل ..
تسجله الآية .. لتشير بذلك إلى مدى انتشار الموضوع فى العاصمة والبلاد المصرية ...

وإلى جوار ذلك .. تنتشر كذلك شهرة يوسف فى البلاد .. بالأخلاق العليا فى أعينهم.

وحين تقع الواقعة ... خاصة فى المسائل الجنسية .. تكثر أقاويل الناس . ويطلقون ألسنتهم فيها اطلاقا .. خاصة إذا كانت الحادثة تتصل بكبار المسئولين فى البلاد .
وتلك عادة الناس جميعا .

والانسان أسرع مايكون إلى التصديق فى الأمور الجنسية .

يكاد يصدق كل مايسمعه .. بل يضيف هو إليه من خياله مايشاء .. وهو ينقله إلى غيره .. وهكذا .

ومعنى هذا أن الدولة كلها أصبحت تتحدث بالقصة ..
وأن الموضوع أصبح حديث الطبقات جميعا ..

— ٣١ —

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئًا وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ.

« فلما سمعت بمكرهن » فلما وصل إلى سمع زوجة العزيز ، اغتيابهن وسوء أقوالهن . فلما صك سمعها .. وتناهى إليها ما يقال عنها .. خاصة من صديقاتها وعدواتها من نساء القصور .

أو (المكر) على حقيقته ، وكن قلن ذلك لتريهن يوسف ..

« أرسلت إليهن » أرسلت تدعوهن إلى الضيافة ، مكرا بهن ..

« واعتدت » وأحضرت وهيأت .

« لهن » للنساء المدعوات في قصرها ...

« متكئا » ما يتكئن عليه من الوسائد وغيرها ...

أي أعدت لهن مجلسا من تلك المجالس الناعمة التي تكون في القصور الكبرى .. خاصة قصور الأمراء والملوك .. أي فتحت لهن ... واستقبلتهن .. في صالونات قصرها ... في قاعة الاستقبال الكبرى في القصر .. حيث الأرائك الناعمة المريحة .. التي تسمح للجالس أن يتكىء كما شاء .. في راحة تامة .. وانسجام عظيم ..

« وآتت كل واحدة منهن سكيناً » وبدأت الحفلة الكبرى ..

واستقبلت امرأة العزيز ضيفاتها في صالونها ..

ثم جاء موعد تقديم العشاء .. فانتقلن إلى بهو الطعام تتقدمهن صاحبة الدعوة ... وانتشرن حول الموائد الكثيرة المنتشرة في القصر .. وكان أمام كل مدعوة صحافها ... وسكينها .. وملعقتها .. وشوكتها .. كما هو الشأن في مثل هذه الحفلات ..

فليس معنى « وآتت كل واحدة منهن سكيناً » أن الأمر اقتصر على السكين .. كلا

وإنما المعنى . . أن هناك حفلة فى القصر وهناك أدوات المائدة أمام كل منهن . . ومن بينها سكين . . كما هى العادة . .

وبينما هن مشتغلات . . منهمكات فى الطعام . . والضحكات . .

كانت المفاجأة . .

« وقالت اخرج عليهن » أمرت امرأة العزيز يوسف أن يخرج عليهن جميعاً . . وهن منهمكات فى الطعام . .

وخرج يوسف . . ملكا غير متوج . . أو ملَكا فى صورة بشر . . الجمال والجلال يتلألأ فى وجهه . . صورة لم تشهد الأرض مثلها حسنا . .

وكانت مفاجأة لهن جميعاً . .

« فلما رأينه » فلما فوجئن كلهن . . فلما وقعت أعينهن على يوسف . .

« أكبرنه » أعظمنه ، وهبن حسنه الفائق .

وقع من أنفسهن موقع الاكبار والإجلال ، وبدا فى عيونهن وقلوبهن ، عظيما غاية العظمة ، جميلا غاية الجمال . .

« وقطعن أيديهن » وظلت أعينهن معلقة به ، حتى نسين أنفسهن ، وقطعن أيديهن بالسكاكين ، أى جرحنها . .

« وقلن حاش لله » وقلن جميعا : حاشا لله . .

حذفت ألفه تخفيفا . .

أى تنزيها له سبحانه عن صفات النقص والعجز ، وتعجبا من قدرته على مثل ذلك الصنع البديع .

« ما هذا بشرا » لا يمكن أن يكون هذا بشر . .

وإنما نفين عنه البشرية لغرابة جماله ، وأثبتن له الملكية ، على نهج القصر ، بناء على ما ركز فى الطباع أن لا أحسن من الملك ، كما ركز فيها أن لا أقبح من الشيطان . ولذلك يشبه كل متناه فى الحسن والقبح بهما .

« إن هذا إلا ملك كريم » نحن نقطع أن هذا ليس ببشر وإنما هو ملك من ملائكة السماء .. فى صورة بشر ..

اشعاعات

ماهذا ؟ حفلة ساهرة كبرى .. فى قصر العزيز .. يدعى إليها نساء الطبقة الراقية جميعاً ويخرج عليهن يوسف .. فيكون الذهول .. وتأخذ المفاجأة عليهن جميعا عقولهن . فيغفلن عن الطعام .. وعن كل شىء حتى يقطعن أيديهن بالسكاكين التى يحززن بها الطعام !!! .

ثم يشهدن جميعا : سبحان الله !

كيف خلق الله مثل هذا الجمال ؟ .

مستحيل أن يكون هذا بشر !..

إنه ملك كريم فى صورة انسان ..

ارتفاع .. شهرة .. مجد .. عظمة .. قل ماشئت .

فان الله أراد أن يرفع يوسف .. ويمكن له فى الأرض .. وهذا شىء مما يتفضل به تعالى عليه .

نساء العظماء جميعا .. يشهدن له تلك الشهادة .. فماذا بقى بعد هذا ؟ !

كيف كان جمال يوسف .. هذا الذى بهر النساء جميعا ..؟

وبهر أباه فكان لايصبر على فراقه ؟ .

كان شيئا لايعلمه إلا الله .. وحين يريد الله أن يبدع جمالا فهو الابداع .

ومهما اطلقنا لخيالنا فى تصور جمال يوسف .. فسوف تأتى صورة خيالنا باهتة .. دون الحقيقة بكثير ...

فالأولى أن ندع التحديد .. ونتصور أن يوسف عليه السلام كان فى أحسن صورة .. وإنما كان يزيده جمالا على جمال ..

لألاء النبوة .. واشعاعات أنوراها .. وهى تترقرق فى ثنايا وجهه .. وهذا ماأنطق النسوة جميعا : ماهذا بشرا .. إن هذا إلاملك كريم !!

رأين فى وجهه جمال النبوة .. ونور السمو ...

فانطلقن يؤكدن أنه ليس ببشر .. وإنما هو ملك كريم !!!

— ٣٢ —

قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ .

« قالت » امرأة العزيز .

« فذلكن الذى » فهذا هو الذى .

« لمتنى فيه » فى الافتتان به .

« ولقد راودته » ولقد أغريته بشتى طرق الاغراء ، وعرضت عليه نفسى بشتى طرق العرض .

« عن نفسه » وجعلت اغريه وأدعوه .

« فاستعصم » فامتنع ، طالبا للعصمة ، مستزيدا منها .

قالوا : الاستعصام بناء مبالغة ، يدل على الامتناع البليغ ، والتحفظ الشديد ، كأنه فى عصمة ، وهو يجتهد فى الاستزادة منها .

« ولئن لم يفعل ما آمره » ولئن لم يأت ما أريد منه .

« ليسجنن » ليعاقبن بالسجن .

« وليكونا من الصاغرين» أى الاذلاء المهانين .. بعد أن كان فى عزوسيادة ونعمة .

اشعاعات

فى قولها : فذلكن الذى لمتنى فيه ...

رقة نسائية مابعدها رقة .. كأنها تقول لهن : هذا هو الجمال القاتل الساحر الفتاك الذي تتحدثن عنى بسببه .. وتلومونني من أجله ...

ثم زادته عظمة إلى عظمته أمامهن جميعا فأعلنت فى غير حياء ولاخجل كانها طلبت إليه معروفا : ولقد راودته عن نفسه فاستعصم !!! ولقد طلبت إليه فأبى ثم أبى ثم أبى .. وكنت كلما اقبلت عليه وترامیت على يديه .. كلما تباعد وتباعد عنى !!!

ثم هددته أمامهن كلهن .. انتظر ماذا يكون جوابه .. بعد أن طلبت إليه على الملأ .. « ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن » .

لأصدرن أمرى بسجنه إلى الأبد .. وأى سجن ؟! .. «وليكونا من الصاغرين» .. سجن الأشغال الشاقة المؤبدة . حيث الاذلال والمهانة والعذاب ... وهو الآن مخير ... بين المتعة واللذة .. وبين المهانة والعذاب ...

وهذا يدل على مدى ماوصل إليه جمال يوسف وانه جمال لايقاوم .. جعل المرأة تعلن بلااستحياء أنه رجل لايمكن أن تقاومه امرأة فى الأرض . وانه ممايزيده اغراء للمرأة أنه كلما طُلب ازداد امتناعا !!!

ثم كان آخر ماعندها أن أعلنت عقابه بالسجن إن لم يفعل !!

فماذا كان من يوسف ؟!

-- ٣٣ --

قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ .

« قال» فما أن سمع يوسف تهديدها علانية بسجنه أمام النساء جميعا .. حتى قال...

«رب» التجأ فورا إلى الله .. وأسقط الأغيار اسقاطا تاما ..

لم يدخل فى جدل معها .. لماذا .. وكيف ؟ كلا ... وإنما اتجه مباشرة اليه تعالى ...

وناداه : رب ...

« السجن أحب إلىّ » الاقامة فى السجن والاصابة بعذابه وآلامه أحب إلى نفسى .
«مما يدعوننى إليه » من تلك الفحشاء التى يدعوننى إليها كلهن .
وهذا يشير إلى أنهن جميعا عرضن أنفسهن عليه بكل الطرق الممكنة من الاغراء .

وأنه وجد نفسه فجأة . محاطا بهن . هذه تداعبه .. وهذه تضاحكه .. وهذه تريد أن تقبله . . وهذه تدعوه إلى سهرة ممتعة . . وهذه تدعوه إلى خلوة . . وهذه تريد منه ولو كلمة .

وبعدهن جميعا . امرأة العزيز . . الموتورة . . الجريحة الكرامة . . المجنونة بحبه .. تنتظر ماذا يفعل معهن .. وكيف يتصرف .. وترقب وتترقب .

شاب كله قوة وشباب ونضارة وجمال .. وأجمل نساء مصر .. وأرقاهن .. وأحلاهن يترامين كلهن عليه .

فيترك ذلك كله .. ويستصرخ ربه : رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ..
« وإلا تصرف عنى كيدهن » وإلا تدفع عنى فتنتهن .. وأساليبهن الجهنمية .. واغراءاتهن الفتاكة .. وإلا تصرف عنى ما أردن منى .

« أصب إليهن » أمِلْ إليهن .. إلى إجابتهن بمقتضى البشرية .
« وأكن من الجاهلين » بسبب ارتكان ما يدعوننى إليه من القبيح .

قالوا : هذا فزع منه ، عليه السلام ، إلى ألطاف الله تعالى ، جريا على سنن الأنبياء ، والصالحين ، فى قصر نيل الخيرات ، والنجاة عن الشرور ، على جناب الله عز وجل ، وسلب القوى والقدر عن أنفسهم ، ومبالغة فى استدعاء لطفه فى صرف كيدهن بإظهار أن لاطاقة له بالمدافعة ، كقول المستغيث : أدركنى وإلا هلكت ، لا أنه يطلب الإجبار والإلجاء إلى العصمة والعفة ، وفى نفسه داعية إلى هواهن .

وقالوا : وذلك الدعاء هو صورة افتقار القلب الواجب عليه أبدا .

اشعاعات

وهكذا وضع الله تعالى يوسف – عليه السلام – ا لوجه أمام الفتنة الكبرى .. وأحاطه بها من كل جانب ..

ودفع به إليهن ... ودفعهن إليه ... لينظر ماذا يفعل ؟

بجلنه من كل باب ... ففر من كل باب ..

وتذللن له بكل وسيلة .. فهرب بكل وسيلة ..

فلما أحس بالفتنة تريد أن تسعى إليه ... صاح به سبحانه ... صيحته الكبرى ... رب السجن أحب إلى مما يدعونني إليه ..

ثم تلألأ أكثر وأكثر فأعلن : وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن .. أنت وحدك الذى يستطيع انقاذى من تلك الموجات المغرقة .

ثم تلألأ وتلألأ .. فأعلن : وأكن من الجاهلين . . أنا بشر .. ضعيف . . يتضعضع سريعا أمام الفتنة .. فلا تتركني وحدى .. فأميل إليها بغريزتى .. وأتحول إلى مجرد إنسان تستعبده شهوته .. وهذا شر أنواع الجهل ..

إنه يوسف .. يبتلى فيما أوتى .. فى الجمال الذى آتاه ..

هل يقول كما يقول كل الناس : استمتع بشبابك ... أم يكون له موقف آخر ؟

وصب عليه البلاء صبا .. وساق اليه الفتن سوقا ..

فما كان منه – عليه السلام – إلا أن ارتفع فوق الأحداث ، وارتفع على نفسه .. وأسقط كل شىء .. أسقط نفسه .. وأسقط كل شىء حوله .. وأسقط ما حوله .. وطار إليه سبحانه .. وهو يصرخ : رب .. رب .. أنت .. وحدك .. تنقذنى ..

إنه يوسف ..

فماذا كان من الله ؟

— ٣٤ —

فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

« فاستجاب له ربه » أجاب له دعاءه .. على الفور ..

إنه دعاء مستغيث .. دعاء قلب فر من كل شيء .. إلى ربه .. فكيف لا يستجيب له؟

« فصرف عنه كيدهن » فأيده بالتأييد القدسي ، فصرفه إلى جناب القدس ، ودفع عنه ، بذلك ، كيدهن .

فأمده الله تعالى فورا بامداد من عنده .. بطاقة فوق طاقته .. استطاع بها أن يدفع عن نفسه تلك الفتن جميعا ..

« إنه هو السميع » لدعاء المتضرعين إليه .

« العليم » بحقيقة ما فى قلوبهم وهم يستصرخونه ويستغيثونه . . . فيعطيهم مايصلح حالهم ..

اشعاعات

فيها لألاء .. وسناء ..

ما إن استغاثه .. واستصرخه .. حتى قال له : لبيك يوسف لبيك !!!

فاستجاب له ؟! فورا .. كان معه ..

ومتى كان معه .. فلا شيء يريده يوسف بعد ذلك ..

فصرف عنه كيدهن ؟ !

إنه لم يصرف عنه النساء .. وإنما صرف قلبه عن الصبابة بالنساء ..

وهذا أعلى أنواع التأييد .. أن تكون فى الشيء .. ولست فيه ..

أن تكون فى الدنيا .. ولست منها . .

أن تكون فى الغنى .. ولست منه . .

أن تكون فى الأسباب .. ولا تراها . .

أن تكون فى الحياة .. ولست حيا إلا به تعالى ..

أن تكون فى كل شىء .. ولست منه فى شىء ..

ثم يتشعشع نورها .. ويتشعشع .. إنه .. هو ..

الله يتكلم عن نفسه .. ويؤكد .. ويؤكد .. أنه هو .. أنه وحده هو .. السميع .. المجيب لدعاء من أراده وحده بدعائه .. ولم يخلط شيئا آخر ..

يجيب دعاء من فر إليه.. ولم يرسواه .. ولم يشرك بهأدنى شرك ..

وهاهنا .. كان فرار يوسف اليه عظيما ، وارتفاعه اليه سريعا .. واستصراخه شديدا ..

فسارع تعالى اليه إنه هو العليم بيوسف .

هل هناك جمال بعد هذا الجمال ؟

اللهم أكرمنا ولو شيئا يسيرا مما أكرمت هؤلاء !!

— ٣٥ —

ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ .

« ثم بدا لهم » ثم كان من رأيهم :

ثم كان من رأى العزيز وزوجته

« من بعد مارأوا الآيات » من بعد ما تأكدوا من براءته ، ورأوا بأعينهم الشواهد، والبراهين المؤكدة لنزاهته .

من بعد مارأوا الآيات التى حققناها فى يوسف. الدالة على أنه شىء آخر غير سلوكهم جميعا .

« ليسجننه حتي حين » ليلقونه في السجن إلى مدة يرون رأيهم فيها .

اشعاعات

أى آيات هذه التى رأوا من يوسف .

أو أى معجزات التى شاهدوا منه ؟ .

هل جاءهم يوسف بخارقة كما جاء الأنبياء من قبله ؟ .

هل أجرى الله على يديه معجزة من تلك المعجزات التى يؤيد بها انبياءه ؟

كلا .. وإنما كان يوسف نفسه هو المعجزة !!

شخصية يوسف نفسها .. انواره الظاهرة .. والباطنة .. سلوكه .. استعصامه الدائم .. علوه على الشهوات .. عزيمته على الرشد .. عدم خشيته من التهديد بالسجن ..

هذه هى المعجزة .. شخصية يوسف نفسها هى الآيات الكبرى ..

وحين يكون الاعجاز فى نفس الشخصية .. فذلك هو الاعجاز ..

إن ما كان من يوسف . . وانتصاره على جميع الفتن التى حوصر بها . . هو . . الآيات التى رأوا .

رأوا شيئا خارقا .

شابا تدعوه سيدته .. فيأبى .

ثم تدعوه مرات أخرى .. فيأبى .

ثم يهدد بالسجن .. فيزداد علوا .

ثم يهدد بالاذلال والتعذيب .. فيزداد فرارا إلى ربه .

وقبل هذا وذاك .. عنده من الجمال .. ما يقهر أى امرأة قهرا .. ويأتى بها طوعا إليه !

شخصية خارقة .

ويزيدها عجبا .. أنه رغم ما هو عليه من جمال .. لا يرى شيئا من ذلك الجمال .. إلا أنه نعمة من نعم الله .. عليه أداء شكرها .. بصيانتها عن الانحراف .

وكان كل ذلك سببا فى اشتهار أمره بين الناس ..

فتحدثت النسوة عن عجائبه .. وعن موقفه الخارق حين عرضن أنفسهن عليه .. فامتنع منهن جميعا .. وجرح كبرياءهن جميعا .

هذه هى الآيات .. هذه هى المعجزات التى رآها المصريون جميعا من يوسف . شخصية معجزة .. محيرة .

فكان قرارهم .. كان قرار وزير الداخلية .. وزوجه .. وجميع أهل السلطة أن .. يدخل يوسف السجن لماذا ! .. الأنه مجرم ؟ .

كلا .. لأنه أصبح فتنة للنساء جميعا .. وفتنة للرجال من بعدهن ...

فماذا يفعل رجل حين يسمع أن امرأته عرضت نفسها على يوسف ؟

وكم كان عدد الرجال الذين أوذوا فى أعراضهم وكرامتهم حين سمعوا أن زوجاتهم أو بناتهم أو اخواتهم قطعن أيديهن حين رأين يوسف ؟

أو ماذا يكون شعور هؤلاء الرجال وهم يشهدون نساءهم ولاحديث لهم إلا يوسف.. وجمال يوسف .. وسمو يوسف .. واستعصام يوسف ؟

لا بد إذا من استئصال تلك الفتنة من البلاد .

لابد من سجن يوسف .. إنه مرتكب أكبر جريمة .. لماذا يكون أجمل الرجال؟ ! وهكذا .. ابتلى يوسف بالجمال .. وابتلى من حوله بجماله !

ودخل يوسف السجن .. لأنه أجمل الناس صورة .. وأجمل الناس أخلاقا !!!

— ٣٦ —

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّى أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِى أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْه نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ .

« ودخل معه السجن فتيان » روى أنهما غلامان كانا لفرعون مصر ، أحدهما رئيس سقاته ، والآخر رئيس طعامه ، وغضب عليهما فحبسهما ، فكانا مع يوسف ، ثم رآهما يوما وهما مهمومان ، فسألهما عن شأنهما ، فذكرا له أنهما رأيا رؤيا غمتهما ، وليس لهما من يعبرها .

فقال لهما : أليس التأويل لله ؟ قصّا عليّ !

فذلك قوله تعالى ..

« قال أحدهما » وهو صاحب شرابه .

« إنى أرانى أعصر خمرا » أى عنبا ، تس[illegible]نب بما يؤول إليه .

وذلك أنه قال : رأيت فى المنام كأنّ بين يـ[illegible]ـاء فيه ثلاثة قضبان عنب ، ثم نضجت عناقيدها وصارت عنباً ، وكانت كأس فرعون فى يدى ، فأخذت العنب ، وعصرته فى الكأس ، وناولتها فرعون .

« وقال الآخر » وهو صاحب طعامه ..

« إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه » .. وذلك أنه قال له : رأيت كأن فوق رأسى ثلاث سلال حُوّارى ، والطير تأكل من السلة العليا فوق رأسى .

« نبئنا بتأويله » أخبرنا بتفسير ما رأينا ، وما يؤول إليه أمر هذه الرؤيا .

« إنا نراك من المحسنين » الذين يحسنون عبارة الرؤيا .

أو : من المحسنين إلى أهل السجن ، تداوى مريضهم ، وتعزى حزينهم ، وتوسع على فقيرهم ، فأحسن إلينا بكشف غمتنا ، إن كنت قادرا على ذلك .

اشعاعات

ودخل يوسف السجن ؟!

يوسف .. البرىء .. المتعفف .. الذى أبى الفحشاء فى أى صورة من الصور .. الذى حفظ عرض العزيز .. ونفر نفورا شديدا أن يخونه فيما ائتمنه عليه !

يوسف .. الجميل الصورة .. الجميل الخُلق .. حتى شهدت له النسوة .. إن هذا إلا ملك كريم !

يوسف هذا .. يدخل السجن .. وكان من الأولى أن تدخله امرأة العزيز !!

لماذا يختار الله تعالى لأنبيائه .. وأوليائه .. ذلك الاختيار ؟ !

لماذا يسلط عليهم الجبابرة والطغاة .. ويمكن هم منهم .. فيتهموهم بالباطل ويدخلوهم السجون بغير ذنب ؟ !

لأن السجون وحياة السجون .. عالم غير هذا العالم الذى يعيش فيه الناس .. لو اطلعوا عليه لولوا منه فرارا ولملئوا منه رعبا !

عالم تمحى فيه كل المعانى الكريمة .. وتبقى كل المعانى الأليمة .

وما ظنك بحياة يلقى فيها السجين كأنه بهيم .. فى إذلال .. وتعذيب .. وتحقير .. وتسخير .. كيف تكون ؟

أو ما ظنك بحياة ليس فيها من معانى الحياة من شىء ؟

فلا طعام إلا كسيرات من خبز أسود .. أو قطرات من عسل أسود .. أو ذرات من جبن متعفن ؟!

أو ما ظنك بالمئات يكدسون متراصين ليلا ونهارا كما تتزاحم أعداد الأسماك فى علب السردين ؟!

مهما وصفنا .. فالسجن أدهى وأمر !!

هذا هو السجن الذى دخله يوسف بغير ذنب .. إلا أنه أبى أن يأتى امرأة العزيز .. ويحقق مشتهاها !!

لماذا كل هذا .. وهل هذا هو التكريم لأنبياء الله ؟

نعم .. ثم نعم ..

لأن النفس طالما هى فى بحبوحة من العيش .. مستحيل أن تدرك حقيقة الحياة و

يجرى فيها .. أو تدرك نعمة الله عليها فيما تتقلب فيه من أنعام ... لأن إلف الشىء يفقده قيمته ..

فإذا نزع الله يوسف من حياة القصور .. والنعيم .. والترف .. والدلال .. والجمال .. واللذة .. والأبهة .. والسلطة ..

إذا نزعه من كل ذلك فجأة .. وألقاه إلى السجن ..

وجد يوسف نفسه فى مكان مظلم .. ضيق .. ليس فيه من لوازم الحياة إلا أحقرها .. وأقلها .. مما تعافه الكلاب ..

حدث انقلاب هائل فى أحاسيسه كلها .. كانت صدمة شديدة جداً .. تقهره على أن يدرك ما لم يك يستطيع أن يدرك من قبل .

يدرك أن هذه الشمس الساطعة طول نهارها .. ولا يلتفت إليها الإنسان .. ولا يعتبرها نعمة تذكر .. يدرك أنها نعمة عظمى .. حين يلقى إلى زنزانة مظلمة فى السجن لا يرى الضوء فيها إلا من خلال كوة حقيرة !!

ويدرك أن الهواء الحر .. الذى كان ينعم به ولا يحس له قيمة .. هو من أجل النعم التى آتاه الله .. حين يجد نفسه يكاد يختنق .. من ذلك الهواء الحبيس فى ظلمات الزنازين فى حياة السجون .

ويدرك أن أحقر مستوى من المعيشة فى الحياة العادية .. هو أرقى من أى مستوى فى حياة السجون ..

ويدرك أن الحرية هى أغلى شىء .. وأكبر نعمة تنعم على الإنسان ..

ويدرك أن فى الحياة آلاما وأهوالا .. ما كان ليدركها لولا أن رأى حياة السجون وعاشها وعاناها ...

وأن هؤلاء الألوف معه فى السجن .. هؤلاء الأخلاط من المجرمين العتاة .. إلى الأبرياء المظلومين .. يرغمون إرغاما أن يتخالطوا .. ويتزاحموا .. ويتزاحموا .. ليلا ونهارا .. حتى يود أحدهم لو يزحزح عن صاحبه ولو إلى النار !!

من طول ما سئم رؤيته .. ومل صحبته .

وأن أضيق الضيق فى الصدور .. أن يرغم الإنسان على ما لا يحب .. أو يعاشر من لا يتفق معه فى الميول .

ويدرك .. ويدرك .. ويكشف له الغطاء عن الكثير مما كان يجهل فى هذه الحياة ..

من أجل ذلك يُدخل الله يوسف السجن .. بغير ذنب . .

ليكشف له الغطاء .. ويرفع عن قلبه الحجاب ..

ليشعر يوسف بمرارة الاتهام بالباطل .. حتى إذا حكم تجنب أن يتهم أحدا بالباطل .

وليشعر يوسف بآلام السجين ، حتى إذا حكم من بعد .. عمل على الغاء هذه السجون أورفع مستواها .. وتعديل لوائحها الجهنمية .

وليشعر أن أحقر نعمة يؤتاها . . ينبغى تعظيمها . . وتلقيها أحسن التلقى . . حتى إذا ماخرج من السجن استقبل الحياة استقبالا جديدا .. بنظرة جديدة . . كلها حب للحياة وواهب الحياة ..

وليشعر يوسف أن الحرية أغلى من كل شيء .. حتى إذا ماعادت إليه حريته .. عمل على احترام حقوق الغير .. واحترام حريته ..

وليشعر يوسف أن هؤلاء السجناء .. مساكين لايشعر بهم أحد فى الدنيا .. يعيشون نسيا منسيا .. حتى إذا خرج يوسف من السجن .. وتولى أمر البلاد .. عمل على العفو عنهم .. واعطائهم الفرصة للحياة الكريمة مرة أخرى ..

من أجل ذلك .. وماوراء ذلك .. أدخل الله يوسف السجن ..

ليصهره بآلام الحرمان . . والضيق . . والغربة . . والذل . . والسخرة . . فيخرج نقيا .. خالصا . .

وجمع الله على يوسف غربتين فى هذا الأمر ..

فقد كان من قبل هذا غريبا .. لاأهل له فى مصر .. وكان يجد فى حياته فى رعاية امرأة العزيز وصاحبها .. شيئا من العوض عن فقده لأهله جميعا ..

ثم هاهو الآن تجتمع عليه غربة جديدة .. فيدخل السجن .. ويعزل عن مجتمع الطبقة الراقية الذى كان يعزيه شيئا ما عن غربته ..

غربتان .. تجتمعان على يوسف ..

وتلك ضريبة النبوة .. وتجربتها .. يعانيها ! !

وآية أخرى . .

أن يوسف دخل السجن وهو البرىء مع فتيين ..

أى مع مملوكين .. مثله فى المملوكية .. مستعبدين مثله . قد ذاقا آلام الاسترقاق .. وذل الاستعباد ..

ولعل هذا مما أوقع الصداقة بينهم .. وألف بين قلوبهم . .

كما أن هذين الفتيين .. فى نفس المستوى الوظيفى الذى كان فيه يوسف ..

فيوسف كان مديرا لقصر الأمير .. وزير الداخلية . .

وهذان .. أحدهما رئيس سقاة فرعون .. والثانى رئيس طعام فرعون ..

نفس المستوى تقريبا ..

ثم ماذا ؟ ثم كلمة .. عن الرؤى والأحلام فى حياة السجون ..

إنها شىء مهم جدا . . فالسجين رجل انقطعت كل أسباب حياته . . أو ألغيت حياته حين ألغيت حريته ، فهناك كبت شديد فى باطنه . . يتحول إلى أحلام ورؤى فى منامه ..

ولذلك تجد فى حياة السجون سيال دائم لاينقطع من الرؤى والأحلام التى تكون من السجناء ..

ويكونون أشوق مايكون إنسان إلى من يعبرها لهم . . ويدلهم على تأويلها . .

لأنها هى الخيط الوحيد الباقى لهم فى الحياة .. ووسيلة الإخبار الوحيدة عندهم !!

ولايعرف قيمة الحلم .. وتعبير الحلم .. فى حياة السجون .. إلا من عانى تجربة السجن.

ويفهم من ذلك أن يوسف اشتهر شهرة كبيرة فى السجن .. بسبب امتيازه بعلم التعبير.

وأن المساجين كانوا يهرعون إليه .. ليعبر لهم رؤاهم ..

وأن سلوكه لراقى .. وأخلاق النبوة التى كان يتحلى بها فى السجن .. رفعت من مقامه فى أعينهم جميعا ..

فليس أوقع من الفعل الجميل فى نفس السجين . .

إنه يعيد إليه الثقة فى الحياة .. ويرد اليه الأمل فى الناس ..

فشهرة يوسف فى السجن ... كانت لسببين ..

أخلاقه العالية جدا .. التى تعتبر شيئا نادرا وجوده فى هذا المجتمع الملىء بالمذنبين .

وعلم الرؤيا التى آتاه الله تعالى .. وماله من أهمية عند المساجين ..

ثم دأبه على نشر الدعوة إلى الله بكل وسيلة فى تلك القلوب الميتة .. اليائسة .. التى يئست من الله .. ومن الناس ..

فكان دخوله السجن رحمة لهؤلاء جميعا .

ورحمة لنفسه .. أن انكشف لها مالم تكن تعلم من قبل ..

ورحمة مستقبلة لأهل مصر جميعا .. حين يحكمهم .. فيشعر بآلامهم .. وأحلامهم .. فيسوسهم سياسة الرحمة والشفقة .. والحرية .. والمساواة .. ويتقى فيهم أن يظلم منهم أحدا بعد أن ذاق مرارة الظلم .. واتهام الأبرياء ..

ثم ماذا .. ثم بين عليه السلام ، لهما بأن مارأياه سهل التاويل ، لوجود مثاله فى المنام وأن له علما فوقه ، وهو أنه يبين لهما كل جليل ودقيق من الأمور المستقبلة ، وإن لم يكن هناك مقدمة المنام ، حتى إن الطعام الموظف الذى يأتيهما كل يوم ، يبينه لهما قبل إتيانه ، وأن ذلك ليس من باب الكهانة ، بل من الفضل الربانى لمن يصطفيه بالنبوة ، وهذا معنى قوله تعالى :

— ٣٧ —

قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ،

« قال » قال يوسف .

« لا يأتيكما طعام ترزقانه » يوزع عليكما ، كتعيين يومى ، كما يوزع على المساجين .

« إلا نبأتكما » إلا أخبرتكما .

« بتأويله » الاذكرته لكم قبل أن يحضر إليكم ، وعينته لكم قبل أن تراه .

بأن يقول : يأتيكما طعام كيت وكيت ، فيجدانه كذلك .

ومراده — عليه السلام — بذلك : بيان كل مايهمهما من الأمور المرتقبة قبل وقوعها .

وإنما تخصيص الطعام بالذكر لكونه عريقاً فى ذلك ، بحسب الحال ، مع مافيه من مراعاة حسن التخلص إليه مما استعبراه من الرؤيين المتعلقتين بالشراب والطعام .

« ذلكما » ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات .

« مما علمنى ربى » شىء مما تفضل به علىّ ربى ، فعلمنيه من لدنه ، بالوحى ، والإلهام ، لا من التكهن والتنجيم .

وفيه إشعار بأن له علوماً جمة ماسمعاه شذرة من جواهرها .

وإنما يكشف لهم من علومه الجليلة ، ما يتناسب مع استعدادهم ليس إلا ..

« إنى تركت ملة قوم» المراد بتركه ملة الكفر الامتناع عنها رأساً ..

إنى نبذت أسلوب قوم .. طريقة قوم .

« لا يؤمنون بالله » لا يصدقون بالله ، ولا بذاته ، ولا بصفاته ، ولا يوحدونه التوحيد الحقيقى .. الخالص .

« وهم بالآخرة هم كافرون » منكرون لليوم الآخر .. أشد الانكار ..

اشعـاعات

غاب عن الـكثيرين أهمية الاخبار بالطعام قبل توزيعه فى حياة المساجين .. ونقول هنا .. أن أهم شىء عند المساجين أن تبشرهم ماذا سوف يأكلون ؟

ذلك أنهم مساكين . . لايجدون شيئا يؤكل إلا مايوزع عليهم من طعام محدد . . معلوم ..

وأنه محرم عليهم أن يأكلوا .. أويجدوا مايأكلون .. غير المفروض عليهم يوميا ..

فاذا وجد الشخص الذى يبشرهم بماسوف يأكلون اليوم.. أوالوجبة القادمة .. فانهم يفرحون لذلك أشد الفرح .. خاصة إذا بشرهم بوجبة فيها شىء مما يشتهون .

وتراهم جميعا إليه يتطلعون .. فى لهفة وترقب !!

ثم ماذا .. ثم فى قول يوسف « ذلـكما مما علمنى ربى » اشعاع جميل ..

أن يوسف ذوعلوم .. واسعة .. علمه الله إياها .

وأن لـكل نبى عند ربه فضلا عظيما . . يختصه به دون غيره . .

وأن يوسف كان ذا إحساس عظيم بفضل الله عليه .

وأن المأساة . . مأساة السجن . . لم تؤثر فى روحه المعنوية . . بل كان له من علمه بالله . . ومما علمه ربه . . عالمه الباطن الذى يسعد فيه .. ويرقى إليه . . فلا يشعر بشىء من آلام الظاهر التى فى السجون .

وأن يوسف شىء عظيم جداً جداً . . يتشعشع ذلك من قوله « مما علمنى ربى » فهناك فى قلبه علوم عظيمة مكنونة . .

وأن حلوله — عليه السلام — فى السجن كان رحمة لهم جميعاً ..

أشاع فى جحيم السجن تياراً من الرحمة عظيما ..

فتحول السجن إلى دعوة ربانية . . يقوم بالدعاية إليها نبى كريم . . وشخصية عظمة . . هى شخصية يوسف ذات المهابة . . والقوة . .

— ٣٨ —

وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَاءِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ .

« واتبعت ملة » واتبعت طريقة . . وأسلوب . .

« آبائى » أجدادى

« إبراهيم » الذى اتخذه الله خليلا . . جدى لأبى . .

« وإسحاق » جدى . .

« ويعقوب» أبى ..

« ما كان لنا أن نشرك بالله » ما صح ولا استقام ذلك لنا ، فضلا عن الوقوع . . وإنما عبر عنه بذلك ، لكونه أدخل بحساب الظاهر فى اقتدائهما به عليه السلام .. والتخصيص بهم ، مع أن الشرك لا يصح من غيرهم أيضاً ، لأنه يثبت بالطريق الأولى .

أو : المراد نفى الوقوع منهم لعصمتهم .

« من شىء » أى لا نشرك به شيئاً من الأشياء ، قليلا أو حقيراً ، صنما أو ملكا أو جنياً أو غير ذلك .

« ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس » يعنى عدم الإشراك بالله ، وهو التوحيد ، من نعم الله العامة . التى يجب شكره تعالى على الهداية لها بالفطر السليمة ، ونصب الدلائل الأنفسية والآفاقية .

« ولكن أكثر الناس لا يشكرون » ولكن أكثر الناس نبذوا هذه النعمة بعد ماحق عليهم شكرها .

اشعاعات

من أين ليوسف أن يعرف أن آباءه كانوا إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وأنهم كانوا على ملة التوحيد ، وقد بيع صغيرا لا يدرك من أبوه ولا من جده ؟!

الجواب .. « ذلك مما علمنى ربى » .

بالوحى .. إنها النبوة .. هى التى تتكلم الآن ..

كشف الله له الغطاء .. فعلمه مما كان .. وماسيكون ..

فهو — عليه السلام — يقرأ من الغيب باذن ربه ..

ولذلك يقول يوسف .. احساسا بتلك النعمة الجليلة .. نعمة النبوة .. « ذلك من فضل الله علينا » .

أرأيت ؟.. يوسف يعلو عنده الشعور بالنعمة فيسجله تسجيلا جميلا ..

ومن أوفى بنعمة الله من الانبياء ؟!

ثم ماذا ؟ ثم فيها نواميس ..

الناموس الأول .. ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ..

هناك استحالة أن يشرك الأنبياء بالله أى شىء ..

انهم عباد لله وحده .. لايرون سواه .. ولايثبتون وجودا الاله .. فمستحيل أن يكون منهم اى شرك بالله .

وتلك قمة قمم التوحيد .. التى لا يرقى إليها الا اياهم ..

هم فى أعلى عليين من ادراك حقيقة التوحيد ..

انكشفت لهم الحقائق .. فادركوا من الحق مالم يدرك سواهم ..

وذلك اعلى انواع التفضل التى يمكن أن يتفضل الله بها على بشر .. « ذلك من فضل الله علينا » ..

الناموس الثانى .. « وعلى الناس » .. إن الناس جميعا يدعوهم الله تعالى إلى ذلك .. ليرقوا فى معاريجها قدر طاقتهم .. فيمسسهم فضله .. ويرتفع بهم إلى منتهاه ..

الناموس الثالث .. «ولـكن أكثر الناس لايشكرون» ..أن اكثر الناس لايريدون هذا الفضل .. ولايرغبون فيه .. ولايحسون أنه نعمة .. ويعرضون عنه اعراضا كبيرا .

لماذا ؟ .. لأنهم يكفرون بالموضوع من أساسه ..

يكفرون بفكرة التوحيد الخالصة .. ولايطيقونها .. فكيف يشكرون شيئا لايحسون له بقيمة فى أنفسهم ؟!

هناك استحالة ..

الناموس الرابع .. أن يوسف يرى أن اعظم الفضل ..أن يتفضل الله على عبد فيعرفه تلك العلوم العليا .. علوم العلم بالله .. وادراك حقيقة التوحيد الخالصة .

وماراه يوسف .. هو مايراه الانبياء جميعا .

وهو الحق .. لأن الانسان كلما ازداد علما بالله .. كانت فكرته عن الأمور أشمل وأكمل ، وحكمه عليها ادق واحكم .

— ٣٩ —

يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ .

« ياصاحبى السجن » ياصاحبىّ فى السجن ..ياصديقىّ .

« أأرباب متفرقون خير » أأرباب شتى تستعبد الناس خيرلهم .

« أم الله الواحد القهار » أم أن يكون لهم رب واحد قهار لايغالب ؟

وفى قوله : (أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ)إشارة إلى ما كان عليه أهل مصر لعهده — عليه السلام — من عبادة أرباب شتى .

قالوا : كما أن مصر كانت تغلبت فى العلوم والسلطة ، كذلك فى عبادة الأصنام ، فإن أهلها فاقوا كل من سواهم فى الضلال ، فكانوا يسجدون للشمس وللقمر والنجوم والأشخاص البشرية والحيوانات ، حتى الهوامّ وأدنى حشرات الأرض .

وقالوا: « دلت الآية على أن الشرع كما جاء مطالبا بالاعتقاد ، جاء هاديا لوجه الحسن فيه .

« وذلك أن هذه الآية تشير إشارة واضحة إلى أن تفرق الآلهة يفرق بين البشر فى وجهة قلوبهم إلى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم .

« وهو يذهب بكل فريق إلى التعصب لما وجه قلبه إليه .

وفى ذلك فساد نظامهم كما لايخفى .

« أما اعتقاد جميعهم بإله واحد ، فهو توحيد لمنازع نفوسهم إلى سلطان واحد ،يخضع الجميع لحكمه ، وفى ذلك نظام أخوتهم . وهى قاعدة سعادتهم .

«فالشرع جاء مبيناً للواقع فى أن معرفة الله بصفاته ، حسنة فى نفسها ، فهو ليس مُحْدِثَ الحسن » .

اشعاعات

فيها ناموس عظيم .

هو « أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد ».

يؤكد هذا الناموس أن فكرة تعدد الآلهة فكرة باطلة .

وأن الله يتحتم أن يكون واحدا.

لماذا ؟ الجواب هو آخر كلمة فى الآية .. « القهار » .

لأن الله قهار .. يقهر كل شىء . ويخضعه لسلطانه .. فمن الحتم التوجه إلى مصدر القوة والتسلط الحقيقى .. إلى الله .

فمهما عبد الإنسان من شىء من دون الله .. فإن هذا الشىء مربوب لله.. خاضع لسلطانه مقهور تحت جبروته .. فهو لا يملك لنفسه شيئا .. فمن العبث أن يعبد الإنسان شيئا هذا حاله من الضعف ..

وأن من الخير للانسان أن يتجه إلى ذلك الإله الواحد .

وأنهم بذلك إنما يتجاوبون مع الناموس الطبيعى .. والفطرة التى فطرهم الله عليها .

وأسعد ما يكون الإنسان حين يتلاقى سلوكه .. واتجاهه .. مع فطرته !!

— ٤٠ —

مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

« ما تعبدون من دونه » ماتعبدون من دون الله .. ما تعبدون متجاوزين عبادته تعالى

« إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم » يعنى أنكم سميتم ، مالا يستحق الإلهية آلهة ، ثم طفقتم تعبدونها ، فكأنكم لا تعبدون إلا أسماء فارغة لامسميات تحتها .

« ما أنزل الله بها من سلطان » من حجة تدل على صحتها .

« إن الحكم » فى أمر العبادة والدين .

« إلا لله » لأنه مالك ، وهو لم يحكم بعبادتها لأنه ..

« أمر ألا تعبدوا إلا إياه » لأن العبادة غاية التذلل ، فلا يستحقها إلا من له غاية العظمة

« ذلك » ذلك التوحيد الدال على كمال عظمة الله ، بحيث لا يشاركه فيها غيره .

« الدين القيم » الدين الحق المستقيم ، الثابت .

« ولكن أكثر الناس لا يعلمون » أى لجهلهم ، ولذا كان أكثرهم مشركين .

قالوا : لا يخفى أن قوله تعالى : (قال لا يأتيكما طعام) إلى هنا ، مقدمة لجواب سؤالهما عن تعبير رؤياهما ، مهد — عليه السلام — بهاله ليدعوهما إلى التوحيد ليزدادا علما بعظم شأنه ، وثقة بأمره ، توسلا بذلك إلى تحقيق مايتوخاه من هدايتهما ، لاسيما وأن أحدهما ستعاجله منيته بالصلب ، فرجا أن يختم له بخير .

اشعاعات

كل شيء يعبد من دون الله إنما هو وهم من الاوهام .. التي لا حقيقة لها .

لقوله « ماتعبدون من دونه إلاأسماء سميتموها ». اوهاما اخترعتموها.. وتخيلتموها.. وتصورتموها ثم عبدتموها

والإنسان عبد أوهامه دائما .. يتوهم ما لا وجودله .. ثم ينتهى به الأمر إلى عبادة ذلك الوهم !!

فى قوله «إن الحكم إلا لله» .. فيها ناموس عظيم .. إن الدين الحق هو ماشرعه الله.. لا ما وضعه الناس .

لأن الله هو مالك هذا الملك .. والحكم لا يكون إلا لمن ملك .

فماذا شرع الله لعباده .. الذين يملكهم ؟

« أمر ألا تعبدوا إلا إياه » .. أمر ألا يعبد شيء سواه .

وهذا منطق طبيعى .. إله .. خلق خلقا .. فمن حقه أن يأمرهم بما شاء منهم .

فكان أمره إليهم .. لاتعبدوا إلا أياى .

ومن عجائب توافق رسالات الرسل جميعا .

أن يوسف عليه السلام يقول « أمر ألا تعبدوا إلا إياه » ..

ثم يأتى محمد صلى الله عليه وسلم فى آخر الزمان .. ويعلن نفس الناموس ..

« إياك نعبد .. وإياك نستعين » !!

وهكذا .. تتحد رسالاتهم .. ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وفيها أن عبادة الله وحده .. هو الدين القيم .. المستقيم .

وأن أى أتجاه آخر غير هذا .. انحراف .. وضلال بعيد ..

وفيها أن الأغلبية العظمى من الناس لا تعلم هذه الحقيقة البسيطة .. حقيقة التوحيد . وتنصرف عنها لجهلهم بها دائما ..

وهذا واضح جدا .. لو ألقينا نظره شاملة على الكرة الأرضية الآن .. ثم تفكرنا كم من سكانها يدين بعقيدة التوحيد الخالصة ؟

قليل .. قليل جدا !!

-- ٤١ --

يَاصَاحِبِي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ.

« يا صاحبي السجن » يا صديقيّ في السجن .

« أما أحدكما فيسقى ربه خمراً » أما أحدكما فيخرج من السجن ويعود إلى ما كان عليه من سقى سيده الخمر .

« وأما الآخر فيصلب » فيحكم عليه بالإعدام ، ويقتل ، ويعلق على خشبة .

« فتأكل الطير من رأسه » فتأتى الطيور وتنقض على لحم رأسه وتأكل منه .

« قضى الأمر الذى فيه تستفتيان » قطع ، وتم ، ما تستفتيان فيه .

يعنى مآله ، وهو نجاة أحدهما ، وهلاك الآخر .

والتعبير عنه بـ (الأمر) وعن طلب تأويله بـ (الاستفتاء) تهويلا لأمره ، وتفخيما لشأنه ، إذ الاستفتاء إنما يكون فى النوازل المشكلة الحكم ، المبهمة الجواب .

وإيثار صيغة الاستقبال، مع سبق استفتائهما فى ذلك ، لما انهما بصدده ، إلى أن يقضى — عليه السلام — من الجواب وطره .

أو قضى الأمر للذى فيه تستفتيان .. بمعنى : فرغ من أمركما .. عند أهل السلطة .. وصدر حكمهما بشأنكما .. أن يقتل أحدكما صلبا .. ويبرأ الآخر ويفرج عنه فورا ..

أى : انتهى الأمر .. وصدر الحكم .. ولا رجعة فيه .. أحدكما سوف يقتل .. والآخر سوف يفرج عنه فورا ...

اشعـاعات

فسّر يوسف ـ عليه السلام ـ لهما رؤياهما .

فـكان تفسيره بشرى بالإفراج عن أحدهما .. وخروجه من السجن .. وعودته إلى عمله كما كان فى القصر الملـكى .. رئيساً للسقاة ..

بينما كان تفسيره صاعقة انقضت على رأس الآخر .. قبل أن تنقض عليه الطيور تأكل من رأسه ..

ذلك أنه أخبره أنه سوف يقتل صلبا .. وتعلق جثته .. وتنهشه الطيور الجارحة !

والآية تدل على أن يوسف كان يخاطب رجلا محكوما عليه بالإعدام . .

أى رجلا لا أمل له فى شىء فى الحياة .. وإنما ينتظر الموت .. فى كل لحظة ..

ولعل هذا هو ما جعل يوسف يواجهه بالحقيقة .. لينقذه من ضلاله فى آخر لحظة من حياته .

فرجل كهذا .. أغلب الظن أنه ارتـكب جريمة القتل العمد .. لذلك كانت عقوبته القتل صلبا ..

فهو رجل مجرم ... شديد الإجرام ..

يضاف إلى ذلك صدور الحـكم عليه بالإعدام صلبا .. فهو رجل يائس من أى خير .

يضاف إلى ذلك أنه رجل كافر .. لأنه لا يعرف الله .. وإنما يعبد أوهاما ..

اجتمعت عليه ظلمات ثلاث ... بعضها فوق بعض .

ظلمة الإجرام .. والإسراف فى الإجرام .. وظلمة اليأس من الحياة .. وظلمة الـكفر بالله .. والانحراف عن طريقه ..

فمثل ذلك الرجل لا بد لإيقاظه من قوارع تصك كيانه وتهزه هزاً عنيفاً ليستيقظ ..

وهذا ما فعله يوسف ـ عليه السلام ـ قذفها فى وجهه « وأما الآخر فيصلب » سوف تقتل أيها الرجل ..

كلمة رهيبة .. أن تقول لإنسان ينتظر مصيره الرهيب فى السجن « سوف تقتل » ..

ولكن يوسف صكه بها ليوقظه .. ليخرجه من ظلماته ..

ثم زاده قرعا .. « فتأ كل الطير من رأسه » !

يالها من قارعة .. يرعب لها المجرم رعبا شديدا ..

كل ذلك لتنهار معنويات الرجل ، ويستسلم لأى يد تمتد لتنقذه مما هو فيه ..

وقد كان ... وامتدت يد يوسف ـ عليه السلام ـ لتخرجه من ظلمات الإجرام واليأس والكفر .. إلى نور الإيمان بالله .

ومثل هؤلاء .. الذين يكونون فى انتظار تنفيذ حكم الاعدام فيهم .. هم أقرب الناس إلى الاستجابة للحق إذا دعوا إليه ..

تعتريهم حالة تصوف عالية جدا ..

لأنهم عاينوا الحقيقة .. وأصبحوا على حافة الآخرة !!

فى قوله « قضى الأمر » .. نبوءة ليوسف — عليه السلام —

أى أن الافراج عن الاول .. والحكم باعدام الآخر ..

قد تقرر .. وصدرت أحكامه .. وهو فى طريقه إلى التنفيذ ..

وذلك لا يكون علمه .. إلا بوحى يوحى !

— ٤٢ —

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ .

« وقال » وقال يوسف ..

« للذى ظن » للذى أيقن، وتأكد له ..

« أنه ناج منهما » للذى علم نجاته من الفتيين ..

أى خلوصه من السجن والقتل .. وبراءته منهما ، وهو الساقى ..

« اذكرنى عند ربك »اذكر حالى وصفتى ، وعلمى بالرؤيا ، وماجرى علىّ ، عند الملك سيدك ، عسى يخلصنى مما ظلمت منه .

اشرح قصتى ومظلمتى للملك .. فأنت تخلو به كثيرا ..

قل له هناك رجل اسمه يوسف ، مظلوم فى السجن .. كان معى .

وليس له من جريمة إلا أنه أبى أن يأتى امرأة العزيز .. زوجة وزيرداخليتك .. فلفقوا له التهم ظلما .. وقذفوه إلى السجن ..

اكشف ياصاحبى للملك حقيقة أمرى .. لعله يخرجنى من سجنى ..

« فأنساه الشيطان » فأنسى الشيطان . . يوسف . .

« ذكر ربه » ذكر ربه الذى خلقه ، وابتلاه بالسجن لحكمة يريدها ..

« فلبث» فمكث .

« فى السجن بضع سنين» عدد سنين .. سبع سنين ..

زيادة تربية له .. لما كان منه ..

اشعاعات

فى هذه الآية انوار تتعالى .. وتتماوج بعيدا ..

قال مرة « اذكرنى عند ربك » ..

ومرة « فأنساه الشيطان ذكر ربه »

أما الرب فى الأولى .. فهو فرعون .. الذى يملك العفوعنه .. ويملك اخراجه من السجن..

وأما الرب فى الثانية .. فهو الله .. الذى يملك فرعون ، وأسباب فرعون .

وكان درسا قاسيا .. أدب يوسف أحسن تأديب ورباه أعلى تربية .. شىء طبيعى جدا .. أن يقول المسجون لزميله فى السجن .. الذى تقرر الافراج عنه .. وخروجه إلى الحياة .. خصوصا إذا كان هذا المفرج عنه ذا منصب رفيع . . مديرا للبروتوكول ..

أوصى يوسف صاحبه أن يذكر قصته عند الملك .. عسى أن يأمر الملك باخراجه من السجن .

شيء طبيعي هذا .. أن يسعى رجل مظلوم إلى رفع الظلم عن نفسه..

ولكن هذا يكون مباحا .. بل مطلوبا .. ممن هم دون مقام يوسف ..

أما يوسف .. فله مقام آخر عند الله ..

إنه من عبادنا المُخلَصين .. ومثل هؤلاء لايرضى الله لهم إلا اسقاط الاسباب والتوجه المباشر إليه .. هنالك يتولاهم هو .. ويخرجهم من السجن هو ..

من أجل ذلك كان الرد عنيفا .. والمؤاخذة أشد ..

أوصى يوسف الرجل أن يذكره عند ربه ..

فماذا حدث ؟ .. خرج الرجل .. وانهمك في مسئولياته .. ونسى أن يذكر قصة يوسف للملك ..

وكانت النتيجة أن قضى يوسف سبع سنين في السجن .. يصلى سعيرها ..

إنه مقامهم ..

لايرضى منهم .. الامارضيه لابراهيم حين عرض له جبريل .. وهو يلقى في النار ، فقال . ألك حاجة ياإبراهيم ؟ .. قال : أما إليك فلا !!!

— ٤٣ —

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّى أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ .

« قال الملك » وقال فرعون ملك مصر .. لمن حوله من الكبراء والمسئولين .

« إنى أرى » فى المنام .

«سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف» كأن سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات عجاف، أى هالكات من الهزال .

جمع عجفاء، بمعنى المهزولة، ضد السمينة .

« وسبع سنبلات خضر » ورأى رؤيا ثانية كأن سبع سنبلات ..

« وأخر يابسات » أى وسبعا أخر يابسات دقيقة، أى نبتت وراءها، فابتلعت السنابل الخضر الممتلئة .

وإنما استغنى عن عددها وإعدامها للخضر، للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات لأنها نظيرتها ..

« ياأيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون » ياأيها الأمراء والكبراء أفتونى فى منامى إن كنتم للمنام تفسرون .

خطاب للأشراف من قومه، وللعلماء من مملكته .

وكان دعا، اثر استيقاظه، سحرة مصر وحكماءها، وعلماءها، وقص عليهم رؤياه هذه..

— ٤٤ —

قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ .

« أضغاث أحلام » تخاليط أحلام .

جمع ضغث . وفى الأصل ماجمع من أخلاط النبات وحُزِمَ، ثم استعير لما تجمعه القوة المتخيلة من أحاديث النفس ووساوس الشيطان، وتريها فى المنام .

و (الأحلام) جمع (حلم) وهو مايراه النائم، فهو مرادف للرؤيا، إلا أنها غلبت فى رؤيا الخير، والشىء الحسن، وغلب الحلم على خلافه . وفى الحديث : الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان .

والمراد بالجمع فى (الأحلام) مافوق الواحد، لأنهما حلمان، رأى كل واحد منهما اثر استيقاظه منه، كما روى .

« ومانحن بتأويل الأحلام بعالمين » وما نحن بتفسير الأحلام الباطلة بعالمين .. وإنما التأويل للرؤيا الصادقة ..

أي : ولاتأويل للأحلام الباطلة ، فنكون به عالمين ..

وقول الملك لهم أولا : (إن كُنتُمْ لِلرُّؤْيا تَعْبُرُونَ) دليل على أنهم لم يكونوا فى علمه عالمين بها . لأنه أتى بكلمة الشك ، وجاء اعترافهم بالقصور مطابقا لشك الملك الذى أخرجه مخرج استفهامهم عن كونهم عالمين بالرؤيا .

— ٤٥ —

وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ .

« وقال الذى نجا منهما » وقال الذى نجا من صاحبي السجن ، وهو مدير الشراب .. وهو الساقى .

« وادكر بعد أمة » وتذكر بعد مدة وكان تذكره على ماروى بعد بضع سنين .

« أناأنبئكم بتأويله » أنا أخبركم بتفسيره ، بالتلقى عمن علمه ، لامن تلقاء نفسى . ولذلك لم يقل : أناأفتيكم فيها .

« فأرسلون » فابعثونى إلى يوسف ، وإنمالم يذكره ، ثقة بما سبق من التذكر ..

— ٤٦ —

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ .

« يوسف » فذهب اليه فى السجن ، فقال : يا يوسف !

« أيها الصديق » يامن عرفنا صدقك فى كل أحوالك ..

ودات الأيام على صدق ماأوّلت لنا من أحلام رأيناها وقصصناها عليك ..

يوسف .. أيها الصادق .. العظيم !.

« أفتنا » أوّل لنا تأويلا سريعا ..

« فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف » .. لقد رأى الملك رؤيا عجيبة ... رأى كأن سبع بقرات سمان .. عظام الجثة .. يخرجن من النهر ... ثم جاء من بعدهن سبع بقرات مهز لات .. خرجن من النهر .. وابتلعنهن ابتلاعا ..

« وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات » كما رأى الملك رؤيا ثانية .. كأن سبع سنبلات خضر .. يأكلن سبع سنبلات يابسات ..

أفتنا أيها الصديق فى هاتين الرؤيين ..

فإن الملك قد جمع عظماء دولته .. وسألهم تعبير ما رأى .. فلم يستطيعوا له جوابا ..

« لعلى أرجع إلى الناس » وإنى لأرجو أن أعود إلى الملك والذين اجتمعوا من حوله سريعا ..

« لعلهم يعلمون » وإنى لأرجو أن أخبرهم بتفسيرك .. وأرجو أن يعلموا بسبب ذلك تفسير ما رأى الملك .. وبالتالى يعرفون فضلك وعلمك وبراءتك ونزاهتك ..

فيعيدوا النظر فى حكمهم عليك بالسجن .. ويخرجوك منه اخراجا كريما ..

اشعاعات

يوسف ؟!

فيها اشارة لطيفة .. إلى ما كان من شوق ولهفة فى ذلك اللقاء ..

وكم يكون رقيقا .. ومؤثرا .. لقاء الأحبة .. بعد غيبة طويلة ؟!

فكيف .. وهذا الرجل الذى نجا .. إنما توثقت الصداقة بينه وبين يوسف وهما فى السجن وتوطدت .

وها هو يعود إلى السجن بعد سنين .. ليرى يوسف .. مازال فى بلائه ..

يعانى اذلال السجون وآلامها .. بينما هو فى عزة الحرية ولذائذها .

كان لقاء مؤثرا ..

وكان لهذا اللقاء رد فعل عنيف فى نفس الرجل ..

حين جىء بيوسف فى اذلال السجين .. إليه . .

فما أن رآه .. حتى تلقاه فى تأثر بالغ .. وهتف به : يوسف ؟!!

ثم ازداد تأثره ... وانفجرت عيناه بالبكاء .. لما يرى من اهانة يوسف .. وهو يعلم أنه خير الناس .. وأعلمهم .. وأحكمهم . . وأنزههم . .

فهتف به أيها الصديق .. أيها العظيم يوسف .. أيها الصادق فى كل شىء ..

ايها المبتلى من أجل صدقك .. ولو كنت من الكذابين المخادعين مادخلت السجن ولا ابتليت . .

فماذا كان من العظيم ؟

— ٤٧ —

قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُم فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ .

« قال » قال يوسف لصاحبه .

« تزرعون سبع سنين دأبا » دائبين مواظبين كل عام منها ..

« فما حصدتم » فما حصدتم من الزرع . .

« فذروه فى سنبله » فلا تدرسوه ، وإنما اتركوه فى سنابله ، فانه أبقى له وأحفظ ..

« إلا قليلا مما تأكلون » ويستثنى من ذلك قدر ماتستهلكون سنويا .. قدر مايأكل الشعب . .

اشعاعات

ما هذا ؟ ..هذا يوسف .. عليه السلام .. يتلألأ .. وهذا ما آتاه ربه يتجلى ..

وحين يأذن الله تعالى لفضله أن يظهر .. يكون منه العجب ..

إن يوسف يقرأ من صفحة الغيب .. يطالع فيها ويتلو .. كأنما قد نشرت له السنون القادمات .. ورأى جزئياتها ..

وتفصيلاتها .. فجعل يتحدث بتفصيل ما سيكون . .

تزرعون سبع سنين .. سيكون النيل فيها مرتفعا .. والخير عميما .. والمحاصيل عظيمة نامية .. سبع سنين متواليات .. تدأبون أيها المصريون فيها .. على الزراعة . . وتتوافر لكم فيها كميات هائلة من القمح والشعير وغيره من المحاصيل .

ثم ماذا ؟ . ثم يخطط يوسف لهم .. التخطيط الواجب أن يسيروا عليه فى تلك السنين السمان..

فما حصدتم فذروه فى سنبله . . فما جمعتم من القمح والشعير .. والفول والذرة .. فذروه فى سنبله . . فدعوه .. فى سنابله . . فى أغلافه . . كما هو .. فيما عدا ما يخصص للاستهلاك السنوى للشعب . .

فما معنى هذا ؟

معناه أن علوم النبوة التى آتاها الله يوسف .. واختصه بها .. قد تفجرت ..وجاء حينها..

معناه أن الله يسوق بدايات التمكين ليوسف فى الأرض .

وأن الله .. وإن ألقى يوسف فى السجن .. ولكنه تعالى يرعاه ..ويتولاه..ولا ينساه!

ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ .

« ثم يأتى من بعد ذلك » ثم يأتى من بعد السنين السبع المذكورات .

« سبع شداد » سبع سنين صعاب على الناس ، لقوة القحط ...

ثم يستمر انخفاض الفيضان .. سبع سنين متتابعات .. حتى تكون شدة .. وتنخفض المساحات المزروعة .. لقلة المياه ... وتكون مجاعات ..

« يأكلن ما قدمتم » يستهلكن ما ادخرتم ..

يأكلن ما دفعتم لهن من الحبوب المتروكة فى سنابلها .

ولما عبر عن البقرات بالسنين ، نسب الأكل إلى السنين ، كما رأى فى الواقعة البقرات يأكلن حتى يحصل التطابق بين المعبر وهو المرئى فى المنام ، والمعبر به ، وهو تأويله .

« إلا قليلا مما تحصنون » مما تحرزون وتخبئون للزراعة .

— ٤٩ —

ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ .

« ثم يأتى من بعد ذلك » ثم يأتى من بعد السنين السبع الشديدة ، التى استهلكت جميع ما ادخره الناس من حبوب ..

« عام » سنة مباركة ، كثيرة الخير ، غزيرة النعم .

« فيه يغاث الناس » فيه يمطرون من الغيث ... أى تسقط فيه أمطار غزيرة فى منابع النيل ... فيأتى فيضان عال جدا ... يغمر الأراضى كلها ... وتزدهر البلاد بالخصب والمحاصيل الوافرة ...

أو تسقط أمطار غزيرة على البلاد المصرية نفسها .. تعوض الناس ما كان من انخفاض مياه النيل .

أو : يغاث الناس من القحط والمجاعات .

أو : يرفع عنهم مكروهه .. من الغوث ..

« وفيه يعصرون » ما كانوا يعصرونه على عادتهم ، من عنب ، وزيتون ونحوهما . .

وقيل : معنى (يَعصرون) يحلبون الضروع .

واللفظ بعموم معناه يشمله ، لأن الحلب فيه عصر الضرع ليخرج الدرّ .

قالوا : تأول البقرات السمان ، والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب ، والعجاف ، واليابسات بسنين مجدبة ، ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأن العام الثامن يجيء مباركا خصيبا ، كثير الخير ، غزير النعم ، وذلك جهة الوحي .

اشعاعات

وهكذا .. انفجرت النبوة عيونا .. وانطلقت إشعاعاتها ذات اليمين وذات الشمال !!

الرجل يستفتي يوسف — عليه السلام — في تعبير رؤيا الملك .. فيفسر له الرؤيا الأولى والثا[نية]

ثم لا يقف عند هذا الحد .. بل ينبئهم بما سيكون بعد تلك السنين الأربعة عشر . . ستأتي السنة الخامسة عشر سنة رخاء وسخاء ..

أمطار غزيرة في ينابيع النيل .. تجرى منه فيضانات مرتفعة جدا في النيل ..

وأمطار غزيرة على سائر البلاد .. تخضر لها الأرض وتهتز ..

ويبلغ من ازدهار الزراعات والبساتين في البلاد ..

أن العنب يكثر جدا . . ويزيد عن استهلاك المصريين .. فلا يجدون أمامهم إلا أن يعصروه.. ويختزنوه ، وكذلك سائر المحاصيل .. من الفواكه .. كالبرتقال والزيتون .. تزيد عن استهلاك الشعب .. فيعصروها .. ويختزنوها .. شرابًا .. أو زيتا .. أو غير ذلك ... من أفانين الاختزان ..

عام .. سوف يعوض الناس ما كان من قحط وشدة طيلة السنين السبع الشداد ..

فما معنى هذا ؟

إن الرجل لم يكن يطمع في أكثر من تفسير رؤيا الملك . .

فإذا بيوسف يفسر له الرؤيا ...

بل يخطط للدولة كلها وهو فى سجنه وبلائه .. ما ينبغى عليهم أن يفعلوه ليتقوا آثار المجاعة الممتدة سبع سنين شديدة . .

ثم ليس كذلك . . بل يبشرهم جميعاً . . بما سيكون بعد ذلك من رخاء عميم . .

ثم لا يقف عند هذا . . بل يبلغ به الإحكام . . أن يحدد لهم كل شىء تحديدا . .

إنها النبوة تتفجر . . «ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ..»

لقد كانوا رحمة ... وأى رحمة ؟ !

— ٥٠ —

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ .

وذهب الساقى فرحا إلى الملك ، وقص عليه ، وعلى من حوله ، ممن ينتظرون .. تفسير يوسف للرؤيين . . ثم أثار دهشتهم جميعاً . . حين أخبرهم بنبوءته بما سيكون فى العام الخامس عشر . . من ارتفاع البلاء . . ونزول الأمطار . . وانتشار الرخاء . .

وأحس الذى رأى على الفور . . أحس الملك أن ذلك التعبير . . وذلك التنبؤ . . لا يمكن أن يكون إلا من رجل عظيم . . أو نبى كريم . . فأصدر أمراً ملكيا على الفور . .

« وقال الملك ائتونى به » أخرجوه من السجن فوراً ، وأحضروه إلى . .

لتذهب قوة فوراً . . وتحضره عندى على الفور . .

« فلما جاءه الرسول » فلما جاءه رسول الملك يستدعيه إلى الملك ..

« قال » قال يوسف له :

« ارجع إلى ربك » ارجع إلى سيدك الملك

« فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن » أى ما شأنهن وخبرهن ؟

أمره بأن يسأله ويستفهمه عن ذلك .

ولم يكشف له عن القصة ، ولا أوضحها له ، لأن السؤال مجملا ، مما يهيج الملك على الكشف والبحث والاستعلام ، فتحصل البراءة .

وإنما كان السؤال المجمل يهيج الإنسان ويحركه للبحث عنه ، لأنه يأنف من جهله وعدم علمه به .

ولو قال : سله أن يفتش عن ذلك ، لكان طلباً للفحص عنه ، وهو مما يتسامح ويتساهل به ، وفيه جرأة عليه ، فربما امتنع منه ، ولم يلتفت إليه .

قالوا : إنما تأنى وتثبت فى إجابة الملك ، وقدم سؤال النسوة ، لتظهر براءة ساحته عما قرف به وسجن فيه ، لئلا يتساق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده ، ويجعلوه سلماً إلى حط منزلته لديه ، ولئلا يقولوا : ما خلد فى السجن إلا لأمر عظيم ، وجرم كبير ، حق به أن يسجن ويعذب ، ويستكف شره .

وفيه دليل على أن الاجتهاد فى نفى التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف فى مواقعها .

وعن النبى صلى الله عليه وسلم : لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره ، والله يغفر له ، حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى اشترط أن يخرجونى . ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال (ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ) ، ولو كنت مكانه ولبثت فى السجن ما لبثت ، لأسرعت الإجابة ، وبادرتهم الباب ، ولما ابتغيت العذر . إن كان لحليماً ذا أناة . [رواه عبد الرزاق فى مصنفه مرسلا عن عكرمة]

وقد روى فى المسند ، والصحيحين مختصراً ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى » .

قالوا : مدحه النبى صلى الله عليه وسلم على هذه الأناة ، وكان فى طى هذه المدحة بالأناة والتثبت تنزيهه وتبرئته مما لعله يسبق الوهم أنه هم بامرأة العزيز هما يؤاخذ به .

لأنه إذا صبر وتثبت فيما له أن لا يصبر فيه ، وهو الخروج من السجن ، مع أن

الدواعى متوفرة على الخروج منه ، فلأن يصبر فيما عليه أن يصبر فيه من الهم ، أولى وأجدر .

قالوا : وإنما لم يتعرض لامراة العزيز ، مع مالقى منها مالقى ، من مقاساة الأحزان ، محافظة على مواجب الحقوق ، واحترازاً عن مكرها ، حيث اعتقدها مقيمة فى عدوة العداوة . وأما النسوة فقد كان يطمع فى صدعهن بالحق ، وشهادتهن بإقرارها بأنها راودته عن نفسه فاستعصم ، ولذلك اقتصر على وصفهن بتقطيع الأيدى ، ولم يصرح بمراودتهن له ، وقولهن (أطع مولاتك) واكتفى بالإيماء إلى ذلك بقوله : « إنَّ ربى بكيدِهِنَّ عليمٌ » يعنى ما كدنه به .. وفى إضافة علمه إلى الله إشارة إلى عظمه . وأن كنهه غير مأمول الوصول إليه ، لكن ما لا يدرك كله لا يترك كله . وفيه تشويق وبعث على معرفته ، فهو تتميم لقوله (اسأله) الخ . ودلالة على أنه برىء مما قرف به ، للاستشهاد بعلمه تعالى عليه . وفيه الوعيد لهن على كيدهن . وأنه تعالى مجازٍ عليه .

— ٥١ —

قَالَ مَاخَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَاعَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ .

« قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه » استئناف مبنى على السؤال ، كأنه قيل : فماذا كان بعد ذلك ؟ فقيل : قال الملك : ما خطبكن ـ أى شأنكن ـ إذ راودتن يوسف يوم الضيافة ؟ يعنى : هل وجدتن منه ميلا إليكن ؟

« قلن حاش لله » تنزيه لله تعالى .. سبحان الله ...

« ما علمنا عليه من سوء » من قبيح .

ما صدر عنه ولو أقل القليل من الفعل السيىء ... إنه إنسان كامل .

«قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق » الآن ثبت واستقر الحق وظهر بعد خفائه ،

« أنا راودته عن نفسه » أنا أعترف أنى أنا التى راودته عن نفسه وليس هو .

« وإنه لمن الصادقين » فى قوله هِىَ راوَدتنى عن نفسى .

قالوا : ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة والنزاهة .. واعترافهن على أنفسهن ، بأنه لم يتعلق بشىء مما قرفنه به ، لأنهن خصومه وإذا اعترف الخصم بأن صاحبه على الحق وهو على الباطل ، لم يبق لأحد مقال ..

اشعاعات

ما معنى هذا ؟ وكيف تأتى للملك أن يجمع هؤلاء النسوة جميعا ؟

يفهم من تسلسل الحوادث .. إما أن يوسف قد أخبر الرسول بتفصيل قصتهن ، وأسمائهن ، وما حدث منهن ، وطلب إليه أن يروى للملك الحقيقة كاملة .. فذهب الرسول إلى الملك ، وقص عليه كل ما كلفه به يوسف ـ عليه السلام ـ فأرسل الملك إليهن جميعا ، بما فيهن امرأة العزيز ..

ثم تولى الملك التحقيق بنفسه معهن . وواجههن بالحقيقة .. فاعترفن لفورهن جميعا ، فلما رأت امرأة العزيز أنهن قد أجمعن على براءته ..

لم تجد بدا من الاعتراف هى الأخرى فاعترفت : أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين .

هذا احتمال هو عندى الأقوى والأولى .

واحتمال آخر ... لا بأس به ... ن قضية يوسف كانت قضية مشهورة عند الملك والشعب ...

وأنها نظرت أمام القضاء ملفقة على أن يوسف قد راود امرأة العزيز عن نفسها ، وأنها دفعته عنها ، وتلك جريمة كبرى أن يجترىء مملوك على سيدته إلى مثل ذلك الحد ..

وانه اتهم تلفيقا كذلك باتهام أشد .. هو أنه حاول أن يعتدى على المدعوات فى حفل امرأة العزيز الساهر كذلك ..

وأنهن جميعاً وعلى رأسهن امرأة العزيز .. اشتكين مما حدث منه ..
فكان أن قبض عليه ... وأودع السجن رهن التحقيق ... فى جريمة شروع فى الزنى بامرأة العزيز ومدعوات امرأة العزيز !!!
ثم رفعت القضية إلى القضاء .. وكان الحكم بسجنه سجنا مؤبدا !!

تلفيق .. فى تلفيق .. فى تلفيق ..
واستغل العزيز سلطاته .. فى التأثير على القضاء ..
واستصدر هذا الحكم منهم .. وأذيع الحكم على الشعب ..
وكان ذلك المكر منهم جميعا لتغطية الفضيحة فى البلاد ..
حيث قد شاع وذاع أن امرأة العزيز تراود فتاها ..

ثم شاع وذاع أن النسوة كذلك تراود يوسف عن نفسه .. وهو يستعصم منهن جميعا ..
فلم يكن بد من تغطية ذلك كله .. بان تصور الأمور على العكس من ذلك وايهام الشعب أن يوسف هو المعتدى .. وأنه سوف يلقى جزاءه الأليم !!

وأن تلك القضية كانت مشهورة بين الناس ، وعلى رأسهم الملك الذى صدق على الحكم بسجنه ..
وأن الملك كان ممن خدع بذلك التلفيق الذى لفقوه ورفعوه إليه على أنه حقيقة ..
فلما رفعوه إليه صدق على الحكم وهو يعتقد أن يوسف آثم أثيم !!

— ٥٢ —

ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ .

« ذلك » تقول امرأة العزيز : ذلك الذى اعترفت به على نفسى .
« ليعلم » ليعلم يوسف .

« أنى لم أخنه بالغيب » أنى لم أكذب عليه فى حال الغيبة ، وجئت بالصحيح والصدق فيما سئلت عنه .

أو : ليعلم زوجى أنى لم أخنه بالغيب فى نفس الأمر ، ولاوقع المحذور الأكبر ، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع ، فاعترفت ليعلم أنى بريئة .

« وأن الله لايهدى كيد الخائنين » لا يرضاه ولا يسدده .

وقد قيل : إن ذلك من كلام يوسف .

والمعنى : ذلك التثبت والتأنى والتشمر لظهور البراءة ليعلم العزيز أنى لم أخنه بظهر الغيب فى أهله .

أو : ليعلم الله أنى لم أخنه ، لأن المعصية خيانة .

ثم أكد يوسف أمانته بقوله : (وأنَّ اللهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ) وأنه لو كان خائنا لما هدى الله عز وجل أمره ، أى : سدده وأحسن عاقبته .. وفيه تعريض بامرأة العزيز فى خيانتها أمانته ، وبالعزيز فى خيانة أمانة الله تعالى ، حين ساعدها بعد ظهور الآيات على حبسه .

اشعـــاعات

فى قولها : ذلك .. ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ..

فيها اعلان لحبها الشديد ليوسف .. وانها لم تستطع أن تكتم أمره عن أحد .. وأنها حريصة على ارضائه فى كل مناسبة ..

إنى اعترف .. لا لشىء .. إلا ليصل إلى علم يوسف .. أنى لست بخائنة .. ولست بمنحلة .. ولست بعاهرة .. وإنما أنا أحبه .. وحبه هو الذى حركنى إلى ذلك .. وها أنا أقول الحقيقة ارضاء لنفسه .. التى أحب أن تكون راضية عنى !!

إن المرأة قد شغفها يوسف حبا !!

وفيها كذلك تسجيل لشدة احساس المرأة بجريمتها .. وأنها لفقت تلك التهمة لشاب بريء .. وتسببت فى سجنه اعواما بغير ذنب .. فهى تريد أن تخفف من آثار الجريمة .. وتعلن براءته .. ليخرج من ذلك العذاب ..

وأما على التفسير الآخر : ذلك ليعلم زوجى أنى لم أخنه مع ذلك الشاب . . ولم أطعنه بالغيب .. من وراء ظهره . .

ففيها براءة من تلك المرأة .. فهى تريد أن يتأكد زوجها من براءتها .. فلا ينظر إليها على أنها امرأة خائنة !!

— ٥٣ —

وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ .

« وماأبرئ نفسى » قال يوسف ، لما حصحص الحق ، وظهرت براءته . وشهد ببراءته من كل سوء النسوةوامرأة العزيز أمام الملك: وماأبرىء نفسى .

أى لا أنزهها من الزلل ، ولا أشهد لها بالبراءة الكلية ، ولا أزكيها ..

أراد أن يتواضع لله ، ويهضم نفسه ، لئلا يكون لها مزكيا ، وبحالها فى الأمانة معجبا ومفتخرا ، وليبين أن مافيه من الأمانة ليس به وحده ، وإنما هو بتوفيق الله ولطفه وعصمته .

« إن النفس لأمارة بالسوء» إن النفس البشرية تأمربالسوء ، وتحمل عليه بما فيها من الشهوات .

« إلا مارحم ربى » إلا مارحم الله من النفوس التى يعصمها من الوقوع فى المساوىء .

« إن ربى غفور » إن ربى يتجاوز دائما للناس عن خطاياهم .. ويسترها عليهم .. ما استغفروه . .

« رحيم» وذلك لأنه واسع الرحمة ..

اشعاعات

فيها لألأء يوسف ..وانواره المشرقة ...

ففيها نواميس كاملة من تلك النواميس التى لايدركها إلا من اصطفاهم الله تعالى .. وآتاهم .. وهداهم ..

الناموس الأول .. وما أبرىء نفسى ..

يعلن يوسف — عليه السلام — ناموسا خطيرا جدا .. هو ناموس النقص .

أن كل نفس ناقصة .. مهما كملت أو تكاملت أو كمُلت .

وإنما هو أمر نسبى .. وأن كمال النفوس يتدرج إلى اعلى .. ويصل الانبياء جميعا إلى أعلى درجات الكمال .. ولكنهم مع ذلك يلحقهم التقصير كغيرهم بحكم بشريتهم .. وإن فاقوا النفوس جميعا كأنبياء ..

ومهما تكاملت النفوس .. فإن من وراء كمالها كمالا أعلى ..

حتى الأنبياء ..

وفى قول يوسف : وما أبرى نفسى .. إشارة إلى ذلك الناموس ..

يريد أن يقول ، إن نفسى مقصرة .. ككل نفس بشرية ..

فليس الأمر أمر تواضع .. وإنما هو تقرير حقيقة ..

حقيقة لايدركها إلا الأنبياء والعلماء ..

الناموس الثانى .. إن النفس لأمارة بالسوء ..

إن النفس البشرية لاتأمر إلا بالسوء .. دائما وأبدا ..!!

لماذا ؟! لأمر بسيط .. لأن النفس .. هى ما نسميه فى العصر الحاضر .. بالغرائز .. غريزة الجنس .. غريزة حفظ النوع .. غريزة التملك .. غريزة تنازع البقاء ..

أو ـ بلغة الوحى ـ الشهوات ..

تلك الغرائز ، أو الشهوات ، أو متطلبات الجسد .. أو الدنيا بلغة الشريعة .. شىء يضاد العلو والسمو دائما ..

الغرائز تريد أن تنحط بالإنسان إلى تحت ..

والوحى يريد أن يرتفع بالإنسان إلى أعلى ..

والانسان .. بين هذا التجاذب دائما فى صراع ..

فالنفس أمارة بالسوء دائما .. دائبة على الاشتهاء .. دائبة على الرغبة فى تنفيذ ماتشتهى ..

هذا هو الناموس الثانى .. فما الناموس الثالث ؟

« إلا مارحم ربى » .. إلا نفسا اختصها الله برحمة خاصة ..

إلا نفسا زادها الله رحمة من عنده .. آتاها نسبة من الرحمة .. زيادة عما آتى العموم..

هذه النفس .. هى التى تستثنى من النفوس جميعا ..

لأن الرحمة التى أنزلها إليها .. تنير لها الطريق .. وتعرفها أن الباقى خير من الفانى ..

وأن التعالى خير من التسافل .. وأن الارتفاع أحلى من الانحطاط ..

هنالك تستطيع هذه النفس أن تأوى إلى ربها .. وتطمئن إلى جنابه .. وتتغلب على شهواتها ونزواتها ..

أماسائر الناس .. فعبيد غرائزهم .. « واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا » ..

وأما الناموس الرابع .. « إن ربى غفور رحيم » .. ومع ذلك فإن ربى غفور .. فتح باب المغفرة على مصراعيه .. ليستغفره الناس .. ويغفر لهم ما كان من نقائصهم ..

الناموس الخامس .. « رحيم » .. بلغ من رحمته أن وسعت كل شىء ..

ماهذا ؟ . هذه اشعاعات يوسف .. هذه نواميس .. يطلقها يوسف .. ولا يمكن أن تتأتى إلا ممن كان فى مثل مقام يوسف !!

وهكذا .. أعلن يوسف أن النفوس جميعا ناقصة .. عاجزة عن الكمال .. لماركب فيها من غرائز تدفع دفعا إلى المعصية .. وأنه لولا أن تداركه الله برحمة منه .. وخصه بفضل منه .. لهوى كما يهوى الناس جميعا ..

ولذلك قالوا : (وما أُبَرِّىءُ نَفْسى) أصل فى التواضع ، وكسر النفس ، وهضمها .

قالوا : أخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف ، وما راودته ، وكادته به ، وأخبر عن الحال التى صار إليها يوسف ، لصبره وعفته وتقواه ، مع أن الذى ابتلى به أمر لا يصبر عليه إلا من صبّره الله عليه . فإن موافقة الفعل ، بحسب قوة الداعى ، وزوال المانع ، وكان الداعى ههنا فى غاية القوة ، وذلك لوجوه :

« أحدها ـ ماركب الله سبحانه فى طبع الرجل من ميله إلى المرأة ، كما يميل العطشان إلى الماء ، والجائع إلى الطعام ، حتى إن كثيرا من الناس يصبر عن الطعام والشراب ، ولا يصبر عن النساء . وهذا لايذم إذا صادف حلالا بل يحمد .

« الثانى ـ أن يوسف عليه السلام ـ كان شابا ، وشهوة الشباب وحدّته أقوى .

« الثالث ـ أنه كان عزبا لا زوجة له ولا سرية تكسر شدة الشهوة .

« الرابع ـ أنه كان فى بلاد غربة يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر ما لايتأتى لغيره فى وطنه ، وبين أهله ومعارفه .

« الخامس ـ أن المرأة كانت ذات منصب وجمال بحيث أن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى موافقتها .

« السادس ـ أنها غير آبية ولا ممتنعة ، فإن كثيرا من الناس يزيل رغبته فى المرأة إباؤها وامتناعها ، لما يجد فى نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها ، وكثير من الناس يزيده الإباء والامتناع زيادة حب ..

« السابع ـ أنها طلبت وأرادت وبذلت الجهد ، فكفته مؤنة الطلب ، وذل الرغبة اليها ، بل كانت هى الراغبة الذليلة ، وهو العزيز المرغوب إليه .

« الثامن ـ أنه فى دارها ، وتحت سلطانها وقهرها ، بحيث يخشى ، إن لم يطاوعها ، من أذاها له ، فاجتمع داعى الرغبة والرهبة .

« التاسع ـ أنه لايخشى أن تنمى عليه هى ، ولاأحد من جهتها ، فإنها هى الطالبة والراغبة ، وقد غلقت الأبواب ، وغيبت الرقباء .

« العاشر ـ أنه كان مملوكاً لها فى الدار ، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ، ولاينكر

عليه ، وكان الأنس سابقاً على الطلب ، وهو من أقوى الدواعى ، كما قيل لامرأة من العرب ماحملك على كذا ؟ قالت : قرب الوساد ، وطول السواد . تعنى قرب وساد الرجل من وسادتى ، وطول السواد بيننا .

« الحادى عشر ـ أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال ، فأرته إياهن ، وشكت حالها إليهن ، لتستعين بهن عليه ، فاستعان هو بالله عليهن ، فقال : (وإلّا تصْرِفْ عني كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وأكُن من الجاهلينَ) .

« الثانى عشر ـ أنها تواعدته بالسجن والصغار ، وهذا نوع إكراه ، إذ هو تهديد ممن يغلب على الظن وقوع ما هدد به ، فيجتمع داعى الشهوة ، وداعى السلامة ، من ضيق السجن والصغار .

« الثالث عشر — إن الزوج لم يُظهر من الغيرة والقوة مايفرق به بينهما ، ويبعد كلا منهما عن صاحبه ، بل كان غاية ماخاطبهما به أن قال ليوسف : (أَعْرِضْ عن هذا) وللمرأة : (استَغفِرى لِذَنبِك إِنَّكِ كنت من الخاطئينَ) وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع ، وهنا لم يظهر منه غيرة .

« ومع هذه الدواعى فآثر مرضاة الله وخوفه ، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنى ، فقال : (ربِّ السجنُ أحبُ إِلىَّ مِمّا يَدْعونَنِي إليْهِ) .

« وعلم أنه لايطيق صرف ذلك عن نفسه ، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه ، وكان من الجاهلين .

« هذا من كمال معرفته بربه وبنفسه .

« وفى هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على ألف فائدة » !!

— ٥٤ —

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ .

« وقال الملك » قال ذلك لما تحقق براءته مما نسب اليه ، وكرم نفسه ، وسعة علمه .

« ائتونى به » احضروا إلىّ هذا الرجل العجيب فورا .

« أستخلصه لنفسى» أخصه بها ، دون العزيز .

جريا على عادة الملوك من الاستئثار بالنفيس العزيز .

« فلما كلمه » فلما أتوا به ، وكلمه ، أى خاطبه الملك وعرفه وشاهد فضله وحكمته وبراعته.

أو : فلما كلم يوسف — عليه السلام - العزيز .

« قال » الملك :

« إنك اليوم لدينا مكين » ذومكانة ومنزلة .

« أمين » مؤتمن على كل شىء .

روى : أن يوسف - عليه السلام — لما حضر الملك ، وعبّرله رؤياه ، ابتهج بحديثه هو وخاصته .

وقال لهم : هل نجد مثله رجلا مهبطاً للامداد الربانى ؟

« وقال ليوسف بعد أن عرّفك الله هذا فلا يكون حكيم مثلك .

« وأنت على بيتى ، وإلى كلمتك تنقاد رعيتى ، ولا أكون أعظم منك إلا بعرشى .

« وقد أقمتك على جميع أرض مصر .

« ونزع خاتمه من يده ، ووضعه فى إصبعه ، وألبسه ثياب بزّ ، وجعل طوقاً من ذهب فى عنقه ، وأركبه مركبته ، وأمر أن يطاف به فى شوارع مصر ، وينادى أمامه بالخضوع له .

« وقال له الملك : لايمضى أمر ، ولا ينفذ شأن فى مصر إلا برأيك ومشورتك .

« وسماه مخلص العالم .

« وزوجّه بنت أحد العظماء لديه .

« وكان يوسف ، وقتئذ ابن ثلاثين سنة ».

وقالوا : إن من أمعن النظر فى قصة يوسف — عليه السلام — علم يقينا أن التقى الأمين لا يضيع الله سعيه ، بل يحسن عاقبته ، ويعلى منزلته فى الدنيا والآخرة .

« وأن المعتصم بالصبر لا يخشى حدثان الدهر وتجاربه ، ولا يخاف صروفه ونوائبه ، فإن الله يعضده ويُنجح مسعاه ، ويخلد ذكره العاطر على مر الأدهار » .

اشعـاعات

ماذا هناك ؟ هناك شيء .. تتفجر له العيون بُـكيًّا .

الله .. جل ثناؤه .. يصدق .. يوسف — عليه السلام — وعده .. كما صدقه .. يوسف .. وعده .

مامعنى هذا ؟

معناه كبير جدا جدا جدا ..

لقد كان يوسف جوهرا كريما ... ولـكنه مطموس ... لا يدرى به أحد ...

كان سيدا حرا ... من سلالة سادة أحرار ...

فأهين بالأسر والاسترقاق والمملوكية ! !

وكان نبيا ... كريما ... من سلالة ... وتسلسل أنبياء ...

فعومل معاملة الخدم ... ولا وزن لأنواره .. ومكنوناته ..

وفى هذا من الآلام مافيه ...

وكان جوهرا صافيا نقيا خالصا مخلصا ... فنظروا إليه على أنه مجرد جسد جميل ... يصلح للاستمتاع !!

وهذا من أشد الآلام التى تصيب مثل تلك القلوب الـكبيرة !!

وكان فى قلبه ميراث النبوة ... واشعاعات الرسالة ... وعلوم الربوبية ... ورحمات الألوهية ..

وهو مجرد سجين ... مهين ... ضائع ... فى قوم مجرمين ! !

وكان متهما بالباطل ... أنه أراد أن يعتدى على امرأة العزيز ... وعلى نساء الأعزة والـكبراء .

وهو صابر ... بالله ... وفى الله ... ولله ...

على أعلى ما تـكون مقامات الصبر ...

حتى حقق الملك القضية بنفسه ... واستبان الحق لعينيه ... وشهدت له النسوة جميعاً بالطهر والعفة ...

فاشتد شوق الملك أن يرى ذلك الرجل الخارق ... العجيب .. الذى انتصر على كل هذه الفتن ..

فصاح الملك : ائتونى به ...

وهنا يتلألأ نور عظيم ... يتشعشع من قوله تعالى « فلما كلمه » ...

جاء يوسف .. جاء أجمل إنسان على ظهر الأرض .. ظاهرا .. وباطنا ..

شاب .. وجهه نور .. وباطنه نور .. وظاهره نور ..

جمال .. وجلال .. يتلألآن .. فى صورة إنسان !!

هنالك أدرك الملك .. أنه أمام إنسان عظيم حقا ..

وأحس الملك أن يوسف أولى منه بالملك ..

ورأى الملك نفسه لاشىء .. جنب يوسف .. وهيبة يوسف .. وجمال يوسف .. وعلم يوسف .. وحكمة يوسف ... وأنوار يوسف ..

وحين يتحدث الأنبياء .. يكون لحديثهم رنين الصدق ، ولألاء الربانية .. وبهاء النورانية ..

فتشرق أنوارهم فى قلوب الذين يتحدثون إليهم ..

وانشرح الملك به صدرا .. كأنما قد عثر على أعز ما كان يتمنى فى حياته ..

رأى أمامه نموذجا لم ير مثله من قبل .. على طول ما رأى وقابل ..

لقد قابل الملك .. بحكم منصبه .. رجالات الدنيا .. وعظماءها .. فلم ير أعظم من يوسف .. ولا أحلى من حديثه .. ولا أجمل من صورته .

وتحدثا .. طويلا .. واستعرضا أمرها ..

وأيقن الملك أنه أمام شخصية خارقة ..

نبوة .. علم .. حكمة .. جمال .. هيبة .. قوة .. شباب .. رحمة .. عظمة .. خبرة .. عفة .. أمانة ..

وازداد به اعجابا .. وله اكبارا .. حين شرح له رؤياه .. وما ترمز إليه ..

وحين خطط له التخطيط الواجب عليهم اتباعه .. حتى لا تتعرض البلاد للهلاك ..

فلما كلّمه ؟!

فيها أنوار عالية جدا .

يكاد لألاؤها يوقف العقول عن الإدراك !

فماذا كان من الملك ؟

« قال : إنك اليوم » إنك الآن يا يوسف ..

« لدينا » عندنا .. فى مملكتنا كلها .. من أولها .. إلى آخرها ..

« مكين » ذو مكانة رفيعة .. عالية .. أنت من الآن رئيس الوزراء .. تفعل ما تشاء وتحكم كيف تشاء .

« أمين » وأنت موضع ثقتنا جميعا .. مؤتمن على كل شىء !!!

ما هذا ؟! هذا صدق الله وعده رسله !!!

من أذل الذل .. من الأشغال الشاقة فى السجن إلى أعز العز .. إلى رئاسة الوزارة فى الامبراطورية المصرية إذ ذاك .

ومن الاتهام بالزنى والفحشاء والسوء .. إلى البراءة .. وشهادة الجميع له بالطهارة والبراءة ..

ومن المملوكية واذلالها .. إلى الملك والسلطة والأسباب كلها !!!

ومن خمول الذكر .. حيث كان لا وزن له عند أحد .. إلى ارتفاع الذكر .. وانتشار الشهرة حتى أصبح حديث الجميع .. وسيد الجميع .. ورجل الساعة فى العالم !!!

ومن جهل الناس به ..وعدم انتفاعهم بعلمه .. إلى حيث يمكن من الأرض والسلطة، ويعلم الناس علمه ، وفضله ، ويعمهم خيره .

ما هذا ؟ هذا شيء من اشعاعات الآية .. وإن وراء الاشعاعات لاشعاعات !!!

— ٥٥ —

قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ .

« قال » يوسف للملك .

« اجعلنى على خزائن الأرض» وانى خزائن أرضك .

يعنى : جمع الغلات لما يستقبلونه من السنين التى أخبرهم بشأنها ، فيتصرف لهم على الوجه الأرشد والأصلح .

ثم بين اقتداره فى ذلك فقال ..

«إنى حفيظ » أمين أحفظ ماتستحفظنيه ..

« عليم » عالم بوجوه التصرف فيه ..

قالوا : وصف نفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبة الملوك ممن يولونه . وإنما قال ذلك ليتوصل إلى امضاءأحكام الله تعالى أو إقامة الحق ، وبسط العدل ، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد ، ولعلمه أن أحداً غيره لا يقوم مقامه فى ذلك، فطلب التولية ابتغاء وجه الله ، لا لحب الملك .

قالوا : إنما لم يذكر إجابة الملك إلى ماسأله عليه السلام من جعله على خزائن الأرض ، ايذانا بأن ذلك أمر لا مرد له ، غنى عن التصريح ، لاسيا بعد تقديم مايندرج تحته من أحكام السلطنة بحذافيرها ، من قوله «إنك اليوم لدينا مكين أمين » وللتنبيه على أن كل ذلك من الله عز وجل ، وإنما الملك آلة فى ذلك .

اشعاعات

يوسف .. يرى حقيقة نفسه .. ويصف نفسه .. إنى حفيظ عليم .

فهو يمتاز بصفتين .. أمين .. عليم .. الأمانة والعلم .

أما الأمانة فقد تلألأت فى ثنايا بلائه ..

وأما العلم فنابع من أنوار النبوة وليس وراء النبوة علوم ..

إنه رجل كفاء للمنصب ..

ولذلك طلب إلى الملك أن يعطيه السلطة الكاملة فى إدارة شئون الدولة .

اجعلنى على خزائن الأرض ؟

مكنى من السيطره على مقدرات البلاد ، وامكانياتها الهائلة ،لأسوسها سياسة رشيدة، تجنبكم جميعا مهالك المجاعة القادمة .

وقد كان .. وأتى الملك بكل شىء إليه .. ألقى إليه أمر البلاد والعباد ..

وكانت تجربة جديدة دخلها يوسف ..

وتلألأت فيها أنواره .. وظهرت فيها عبقريته . .

— ٥٦ —

وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ .

« وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض »أرض مصر .

جعلناه ذا مكانة رفيعة .. وسلطة واسعة .. وأمرا نافذا فى أنحائها .

« يتبوأ منها » ينزل من بلادها .

« حيث يشاء » وذلك أنه .. عليه السلام .. لما ولاه النظر على خزائن مصر ، تجول فى قطرها ، وطاف قراها ، والأمر أمره ، والإشارة إشارته ، عناية منه تعالى ورحمة كما قال ..

« نصيب برحمتنا من نشاء » من نشاء .. وقتما نشاء .. حيثما نشاء ..
« ولا نضيع أجر المحسنين » الذين أحسنوا عملا .

اشعاعات

فيها نواميس كبرى ..

الناموس الأول .. « وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض » .. أن التمكن .. أن الحكم أن السلطة .. شيء يعطيه الله لمن يشاء «تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء» .. فكما يمكن الله لمن يشاء ، ويرفعه ، ويجعله ذا مكانة فيها .. ينزع ممن يشاء ، ويذهب مكانته منها .

الناموس الثانى .. « يتبوأ منها حيث يشاء » .. أن يوسف كان صاحب سلطات مطلقه فى الأمر والنهى .. وكان حاكما يحكم من الواقع ، ويخالط الجماهير ، وينزل إلى مشاكلهم لم يكن مترفعا عنهم ..

وهذا خير أنواع الحكم .. أن يعيش الحاكم مشاكل الجماهير .. ليستطيع أن يحلها بنفسه حلا عمليا ..

فبينما كان ذا سلطات مطلقة .. كان فى الوقت نفسه .. رجل جماهير .. محبوبا من الجماهير يتفاعل مع الجماهير .. بدليل أنه يتبوأ منها حيث يشاء .. ينزل منها حيث يشاء .

ولو كان مجرد حاكم مستبد .. لكرهه الناس .. ولما استطاع أن يتجول فى البلاد حيث يشاء .

وأن التمكين الحقيقى للحاكم فى الأرض .. هو التمكين له من قلوب الشعب ..

وقد توافر هذا ليوسف .. فهو محبوب من الملك .. والحاشية ..

محبوب من الشعب .. والجماهير ..

وهذا هو التمكين الحق .. إلى جوار التمكين الظاهر بالسلطة وتولى البلاد .

الناموس الثالث .. « نصيب برحمتنا من نشاء » .. أن لله رحمة خاصة يخص بها من يشاء من عباده ..

فهناك رحمة عامة هي التي ينغمس فيها الجميع ..

وهناك رحمة خاصة .. يخص بها من يشاء من عباده ..

كتلك التي آتاها يوسف .. فى صورة تمكين فى الأرض ..

فكانت رحمة له .. أن واتته فرصة اظهار مواهبه المكنونة .. وتنفيذ إرادته المعطلة

ورحمة للناس .. أن شاع فيهم العدل .. والرخاء .. حين آلت أمورهم إلى يوسف ..

الناموس الرابع .. « ولا نضيع أجر المحسنين » .. يستحيل أن يضيع الله أجر أى إنسان أحسن عملا من الأعمال .

مستحيل أن يضيع اخلاص المخلصين ..

هذا ناموس خطير جدا .. لأن فيه ضمانا لحفظ حقوق الناس عند الله .. وأنها ثابتة .. لا يمكن أن تضيع .

ولكن هل من الحتم أن يكافىء الله كل محسن .. وكل مخلص .. فى هذه الدنيا ؟

— ٥٧ —

وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ .

« ولأجر الآخرة خير » ولثواب الآخرة خير من ثواب الدنيا .

« للذين آمنوا » للذين داوموا على الإيمان فى الدنيا .

« وكانوا يتقون » وداوموا على اتقاء محارم الله .

إشارة إلى أن المطلب الأعلى هو ثواب الآخرة ، وأن مايدخر لهؤلاء هو أعظم وأجل مما يخولون به فى الدنيا من التمكين فى الأرض والجاه والثروة والملك .

اشعاعات

هذا ناموس خطير . .

فإن أخطر شيء عند الإنسان .. أن لا يرى نتيجة عملية لايمانه واحسانه وجهاده فى الدنيا ..

فيأتى هذا الناموس ويؤكد .. أن أجر الآخرة خير من أجر الدنيا العاجل .. بشرط أن يستمروا على الإيمان والتقوى ولا ييأسوا ولا يرتدوا عن إيمانهم ..

وهذه حقيقة .. بسيطة جدا ..

فمهما أوتى الإنسان فى الدنيا . . من نعيم .. أو سلطان . . فإنما هى سنين . . ويفارق كل مافيه ..

ولكن الآخرة .. نعيم الأبد ..

فأين الفناء من البقاء .. أو النعيم الدائم من النعيم المستعار ؟

- ٥٨ -

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ .

« وجاء إخوة يوسف » طالبين التموين والغلال ، لما أصاب أرض كنعان وبلاد الشام ما أصاب مصر .

وقد كان حل بآل يعقوب - عليه السلام - ما حل بأهلها فدعا أبناءه ماعدا بنيامين فقال لهم : يابنى بلغنى أن بمصر ملكا صالحا يبيع الطعام ، فتجهزوا إليه واقصدوه تشتروا منه ما تحتاجون إليه ، فخرجوا حتى قدموا مصر .

« فدخلوا عليه » فدخلوا جميعاً العشرة على يوسف - عليه السلام - وهو فى مكتبه .. بعد أن أذن لهم ..

« فعرفهم » لقوة فهمه، وعدم مباينة أحوالهم السابقة، أحوالهم يوم المفارقة، لمفارقته إياهم وهم رجال ، وتشابه هيآتهم وزيهم فى الحالين .

وروى أنهم ذكروا أسماءهم فى الاستئذان عليه فعرفهم وأمر بانزالهم .

« وهم له منكرون » والحال أنهم منكرون له لنسيانهم له بطول العهد وتباين ما بين حاليه فى نفسه ومنزلته وزيه .

ولاعتقادهم أنه هلك .

اشعاعات

قالوا : حيث كان إنكارهم له — عليه السلام — أمرا مستمرا فى حالتى المحضر والمغيب ، أخبر عنه بالجملة الاسمية « وهم له منكرون » ..

وهذا حق .. أنهم لايتصورون أن هذا الرجل الجالس على كرسى مصرهو يوسف .. الطفل الذى ألقوه فى غيابة البئر ليهلك !!

وحتى لو لم يهلك حين إلقائه فى ذلك البئر .. فلا يعقل أن يتحول من طفل ضائع لا وزن له .. إلى حاكم يملك كل شىء فى مصر !!

كان الأمر بعيدا عن تفكيرهم بعدا كبيرا ...

فهم لايعرفون شيئا مطلقا عن أخيهم الذى هلك .. ولا عن هذا الرجل الذى ملك !!

— ٥٩ —

وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ .

« ولما جهزهم بجهازهم » ولما أصلحهم بعدتهم ، وأوقر ركائبهم بما جاؤا لأجله .

ولعله — عليه السلام — إنما باع كل واحد منهم حمل بعير لما روى أنه كان لا يبيع أحدا من الممتارين أكثر من ذلك عدلا بين الناس .

وأصل الجهاز مايحتاج إليه المسافرمن زاد ومتاع .

« قال » قال يوسف

« ائتونى بأخ لكم من أبيكم » ولم يقل بأخيكم مبالغة فى إظهار عدم معرفته لهم كأنه لايدرى من هو !

قيل : قال يوسف — عليه السلام — ذلك حين سألوه حملازائدا عن المعتاد لبنيامين فأعطاهم ذلك ، وشرط عليهم أن يأتوه به ، مظهراً لهم أنه يريد أن يعلم صدقهم .

« ألا ترون أنى أوف الكيل » ألا ترون أنى أتم الكيل .

وإيثار صيغة الاستقبال مع كون هذا الكلام بعد التجهيز للدلالة على أن ذلك عادة مستمرة .

« وأنا خير المنزلين » والحال أنى فى غاية الإحسان فى انزالكم وضيافتكم .

وكان الأمر كذلك

ولم يقل ذلك — عليه السلام — بطريق الامتنان بل لحثهم على تحقيق ما أمرهم به .

اشماعات

قيل : إنهم لما رأوه فكاموه بالعبرية قال لهم : من أنتم فإنى أنكركم ؟ !

فقالوا : نحن قوم من أهل الشام ، رعاة ، أصابنا الجهد ، فجئنا نمتار

فقال : لعلكم جئتم عيونا ، تنظرون عورة بلادى ؟

قالوا : معاذ الله ، نحن اخوة ، بنو أب واحد ، وهو شيخ ، صديق ، نبى ، من الأنبياء إسمه يعقوب .

قال : كم أنتم ؟

قالوا : كنا إثنى عشر فهلك منا واحد .

فقال : كم أنتم ها هنا ؟

قالوا : عشرة

قال : فأين الحادى عشر ؟

قالوا : هو عند أبيه يتسلى به عن الهالك .

قال : فمن يشهد لكم أنكم لستم عيونا وأن ما تقولون حق ؟

قالوا : نحن ببلاد لايعرفنا فيها أحد فيشهد لنا .

قال : فدعوا بعضكم عندى رهينة ، وائتونى بأخيكم من أبيكم ، وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى أصدقكم .

فاقترعوا ... فأصاب القرعة شمعون .

ومن هنا يعلم سبب هذا القول ...

— ٦٠ —

فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ .

« فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى » ايعادلهم على عدم الأتيان به .

والمراد لا كيل لكم فى المرة الأخرى فضلا عن ايفائه .

« ولا تقربون » ولا تقربونى بدخول بلادى ، فضلا عن الإحسان فى الإنزال والضيافة

وفيه دليل على أنهم كانوا على نية الامتيار مرة بعد أخرى ، وأن ذلك كان معلوما له — عليه السلام — .

أى أن يوسف — عليه السلام — هددهم ان لم يأتوه ببنيامين ... سوف يشطب أسماءهم من قائمة المسموح لهم بالتموين ... وسوف يجعل أسماءهم من الممنوعين من دخول البلاد ..

أى لا يستطيعون أخذ الحبوب ، ولا حتى يسمح لهم بدخول البلاد .

— ٦١ —

قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ .

« قالوا سنراود عنه أباه » سنخادعه ، ونستميله برفق ، ونجتهد فى ذلك .

وفيه تنبيه على عزة المطلب ، وصعوبة مناله .

« وإنا لفاعلون » وإنا لقادرون على ذلك ، لا نتعايا به .

أو : إنا لفاعلون ذلك لامحالة ، ولا نفرط فيه ولا نتوانا .

— ٦٢ —

وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

« وقال » يوسف — عليه السلام — « لفتيانه » لغلمانه ، الكيالين .
أو : لأعوانه الموظفين لخدمته
« اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم » ضموا البضاعة التى جاءوا يشترون بها تموينهم فى رحالهم
والرحل : هو ما يوضع على البعير للركوب .
ويفهم من ذلك أن التعامل كان على أساس المقايضة ... فهؤلاء جاءوا ببضاعة ...
يقال كانت نعالا وأدما ... ليشتروا قمحا وشعيرا ...
« لعلهم يعرفونها » يعرفون حق ردها والتكرم بذلك .
« إذا انقلبوا » إذا رجعوا .
« إلى أهلهم » إلى زوجاتهم وبيوتهم ، فان معرفتهم لها مقيدة بالرجوع ، وتفريغ الأوعية .
« لعلهم يرجعون » حسبما طلبت منهم ، فإن التفضل باعطاء البدلين ولا سيما عند اعواز البضاعة من أقوى الدواعى إلى الرجوع .
وقيل: المعنى يرجعونها أى يردونها .

— ٦٣ —

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ .

« فلما رجعوا » فلما رجع إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ
« إلى أبيهم » إلى يعقوب ـ عليه السلام ـ
« قالوا يا أبانا منع منا الكيل » حكم بمنعه بعد اليوم إن لم نذهب بأخينا بنيامين حيث قال لنا رئيس مصر :(إن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى)
« فارسل معنا أخانا » بنيامين إلى مصر ، وفيه إيذان بأن مدار المنع على عدم كونه معهم .

« نكتل » من الطعام ما نحتاج إليه .

وقيل : يرفع المانع ونكتل .

أى : يسمح لنا بشراء ما نحتاج إليه من الحبوب .

« وإنا له لحافظون » من أن يصيبه مكروه .

— ٦٤ —

قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

« قال » يعقوب ـ عليه السلام ـ « هل آمنكم عليه » ما أئتمنكم عليه .

« إلا كما أمنتكم » إلا ائتمانا مثل ائتمانى إياكم .

« على أخيه » يوسف .

« من قبل » وقد قلتم أيضا فى حقه ما قلتم ثم فعلتم به ما فعلتم ، فلا أثق بكم ، ولا بحفظكم . وإنما أفوض أمرى إلى الله تعالى .

« فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين » فأرجو أن يرحمنى بحفظه ، ولا يجمع على مصيبتين

وهذا كما ترى ميل منه ـ عليه السلام ـ إلى الأذن ، والإرسال ، لما رأى فيه من المصلحة.

وفيه أيضا من التوكل على الله تعالى مالا يخفى .

— ٦٥ —

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ .

« ولما فتحوا متاعهم » المتاع كل ماينتفع به على الوجه ، وهو فى الآية الطعام .
وقيل : الوعاء ، وكلاهما متاع ، وهما متلازمان ، فان الطعام كان فى الوعاء .
والمعنى ، على أنهم لما فتحوا أوعية طعامهم .
« وجدوا بضاعتهم » التى كانوا أعطوها ثمنا للطعام .
«ردت إليهم» تفضلا ، وقد علموا ذلك بما مر من دلالة الحال .
« قالوا » قالوا لأبيهم ... ولعله كان حاضرا عند الفتح .

« ياأبانا ما نبغى » ماذا نطلب وراء ماوصفنا لك من احسان رئيس مصر الينا وكرمه الداعى إلى امتثال أمره ، والمراجعة اليه فى الحوائج .

وقد كانوا أخبروه بذلك ، على ماروى أنهم قالوا له — عليه السلام — إنا قدمنا على خير رجل وأنزلنا وأكرمنا كرامة لوكان رجلا من آل يعقوب ماأكرمنا كرامته .

«هذه بضاعتنا ردت الينا » كيف لاوهذه بضاعتنا ردها الينا تفضلا من حيث لاندرى بعد مامن علينا بما يثقل الكواهل من المنن العظام ، وهل من مزيد على هذا فنطلبه ؟

ومرادهم به أن ذلك كاف فى استيجاب الامتثال لأمره والالتجاء إليه فى استجلاب المزيد .

« ونمير أهلنا » نجلب لهم الميرة . ونجلب لأسرنا الطعام من عند رئيس مصر .
« ونحفظ أخانا » من المكاره حسبما وعدنا .
« ونزداد » بواسطته
« كيل بعير » وسق بعير زائدا على أوساق أباعرنا .. حيث يكال له كما يكال لنا ..
« ذلك كيل » ذلك مكيل .
« يسير » قليل لايقوم بأودنا .
أو : ذلك الكيل الزائد ، قليل ، لايضايقنا فيه الملك ، أو سهل عليه لايتعاظمه .
فان عنده جبالا من القمح المخزون .

— ٦٦ —

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ .

« قال » يعقوب — عليه السلام —

« لن أرسله معكم » لن أرسل معكم بنيامين . بعد أن عاينت منكم ماأجرى المدامع في يوسف .

« حتى تؤتون موثقا من الله » حتى تعطونى ماأتوثق به من جهته .

أراد — عليه السلام — أن يحلفوا له بالله تعالى .

« لتأتنني به » حتى تحلفوا بالله وتقولوا والله لنأتينك به .

« إلا أن يحاط بكم » إلا أن تغلبوا فلا تطيقوا ذلك .

أو : إلا أن تهلكوا جميعا .

« فلما آتوه موثقهم » فلما حلفوا له بالله تعالى حسبما أراد — عليه السلام — .

« قال » غرضا لثقته بالله تعالى ، وحثا لهم على مراعاة حلفهم به عز وجل .

« الله على مانقول » في أثناء طلب الموثق وإيتاءه من الجانبين، وايثار صيغة الاستقبال لاستحضار الصورة المؤدى إلى تثبتهم ومحافظتهم على تذكره ومراقبته .

« وكيل » مطلع ، رقيب . فان الموكل بالأمر يراقبه ويحفظه .

قيل : والمراد أنه سبحانه مجاز على ذلك .

— ٦٧ —

وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ .

« وقال » ناصحالهم لماعزم على ارسالهم جميعا .

« يا بَنِىَّ » ياأولادى .

« لاتدخلوا » مصر .. العاصمة ..

«من باب واحد » نهاهم — عليه السلام - عن ذلك حذرا من اصابة العين ،فانهم كانوا ذوى جمال وشارة حسنة ، وقد اشتهروا بين أهل مصر بالزلفى والكرامة التى لم تكن لغيرهم عند الرئيس . فكانوا مظنة لأن يصابوا بالعين إذا دخلوا كوكبة واحدة .

«وادخلوا من أبواب متفرقة » بيانا للمراد به وذلك لأن عدم الدخول من باب واحد غير مستلزم للدخول من أبواب متفرقة ، وفى دخولهم من بابين أو ثلاثة بعض ما فى الدخول من باب واحد من نوع اجتماع مصحح لوقوع المحذور .

« وماأغنى عنكم » لاأنفعكم ولا أدفع عنكم بتدبيرى .

« من الله من شىء » من قضائه تعالى عليكم شيئا ، فانه لايغنى حذر من قدر .

أراد بيان أن ماوصاهم به ليس مما يستوجب المراد لامحالة ، بل هو تدبير وتشبث بالأسباب العادية ، التى لاتؤثر إلا باذنه تعالى ، وأن ذلك ليس بمدافعة للقدر ، بل هو استعانة بالله تعالى ، وهرب منه اليه .

« إن الحكم » ما الحكم مطلقا .

« إلا لله » لايشاركه أحد ولا يمانعه شىء .

« عليه » سبحانه دون غيره .

« توكلت » فى كل ما آتى به وأذر .

وفيه دلالة على أن ترتيب الأسباب غير مخل بالتوكل ، وفى الخبر « اعقلها وتوكل »

« وعليه » عزسلطانه دون غيره .

« فليتوكل المتوكلون » المريدون للتوكل .

ويدخل بنوه — عليه السلام — فى عموم الأمر دخولا أوليا ، وفى هذا الأسلوب

مالايخفى من حسن هدايتهم وارشادهم إلى التوكل فيماهم بصدده على الله تعالى شأنه غير معتمدين على ماوصاهم به من التدبير .

اشمـاعات

ماهذا ؟ ماالذى دفع يعقوب — عليه السلام — أن يأمر أولاده العشر ألا يدخلوا من باب واحد ، وأن يدخلوا من أبواب متفرقة ؟

هل هو وقاية لهم من العين ، كما يقولون ؟

أم ماذا كان يعنى يعقوب بهذا التوجيه ؟

الحق .. أن العين حق .. وأن الإصابة بها حق ..

وقد أراد يعقوب ، أن يدفع عنهم شرها ..

فإن رؤية عشرة من الـكواكب مجتمعين يدخلون من أبواب مدينة مصر .. فيه مافيه من اثارة حقد الحاقدين ، وحسد الحاسدين ..

ثم ماذا ؟ .. ثم يضع يعقوب ناموسا عظيما .. «وما أغنى عنـكم من الله من شىء» .. أدنى شىء .. لا أستطيع دفعه عنكم إذا أراده الله بكم ..

ثم ماذا ؟ ثم ناموس آخر .. « إن الحـكم إلا لله » لا يستطيع شىء أن يمانعه شيئا .. لماذا ؟.. لأن الله إذاأراد شيئا .. فلا وزن لشىء بعد ذلك .. ولا بد أن يقع .. لأن الأقوى يبطل الاضعف ..

ثم ماذا ؟ .. ثم ناموس آخر .. « عليه توكلت » .. عليه وحده اعتمدت .. فرغم أنى آخذ بالأسباب .. إلا انى أعتمد عليه وحده فى دفع السوء .. لا على أسبابى التى اتخذتها ..

ثم ماذا ؟ .. ثم ناموس أخير .. « وعليه فليتوكل المتوكلون » فليعتمد كل من أراد أن يعتمد على قوة عظمى ..

فامعنى هذا كله ؟..

مامعنى ان يحاذر يعقوب من العين .. ثم يعود فيعلن أن هذا لايدفع شيئا من قضاء الله .. ثم يعود فيعلن أن الحكم كله لله فى الحقيقة .. وأنه لذلك لايعتمد إلا على الله .. ولا ينبغى لأحد أن يعتمد إلا عليه سبحانه ؟

هل هو تناقض فى اتجاهات يعقوب ؟

كلا .. وحاشاه .. بل ذلك هو الخط المستقيم .. الذى ينبغى أن يلتزمه كل إنسان مؤمن بالله ..

يأخذ بالأسباب .. وهذا يتمثل فى سلوك يعقوب ، فى أمره أولاده بالتفرق على أبواب متفرقة ..

ثم يعلم أن أسبابه هذه .. لاتمنع ارادة الله فيه إذا توجهت إليه .. بل هى نافذة حتما وقهارة أبدا ..

أى يعلم أن الأسباب غير مؤثرة بذاتها ، وإنما بماأودع الله فيها من تأثير ، ناتج عن النواميس الالهية السارية فيها ..

وبذلك يتلألأ فى قلبه دائما « إن الحكم إلا لله » .

ثم يدرك القضية فى عمومها « عليه توكلت » .. أى ليست هذه الاسباب شيئا اركن إليه ، واحتجب به عن ربى .. بل انى اتجه إليه مباشرة ، واطلب منه العون على أمرى ..

وهذا هو ماينبغى على كل مؤمن .. أن لاتغيب عنه الحقيقة وسط الأخذ بالأسباب .. وإنما يرتب الأسباب .. وهو يوقن أنها ليست هى فى ذاتها المؤثرة .. وإنما هو الله الذى اعطاها هذا التأثير .. « وعليه فليتوكل المتوكلون » ..

بقيت مسألة العين هذه كيف تؤثر فى الإنسان ؟

قال علماء الروحية الحديثة فى آخر ما وصلوا إليه فى أبحاثهم .. أنه يخرج شعاع من عين العائن .. يتسلط على الشخص المصاب ، فيؤثر فيه تأثيرا شديدا ..

وهذا ليس بمستبعد .. والأشعات الغير مرئية كثيرة ومتعددة ..

وتفصيل ذلك يرجع فيه إلى علوم الروحية الحديثة .. فقد اكتشفت فى هذا المضمار العجائب !!

— ٦٨ —

وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

« ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم » من الأبواب المتفرقة من البلد .

قيل : كانت له أربعة أبواب فدخلوا منها .

والمعنى : ولما دخلوا متفرقين.

« ما كان » ذلك الدخول .

« يغنى عنهم من الله » من جهته سبحانه .

« من شيء » شيئا مما قضاه عليهم جل شأنه .

ذكروا أن هذا منه تعالى تصديق لما أشار إليه يعقوب ـ عليه السلام ـ فى قوله:(وما أغنى عنكم من الله من شيء) .

« إلا حاجة » ولكن حاجة .

« فى نفس يعقوب قضاها » أظهرها ووصاهم بها ، دفعا للخطرة، غير معتقد أن للتدبير تأثيرا فى تغيير التقدير .

والمراد بالحاجه شفقته ـ عليه السلام ـ وحرازته من أن يعانوا أى يصابوا بالعين .

وقيل : المعنى ماأغنى عنهم ماوصاهم به أبوهم شيئا إلا شفقته التى فى نفسه، ومن الضرورة أن شفقة الأب مع قدر الله تعالى كالهباء ، فاذن ما أغنى عنهم شيئا أصلا.

« وإنه لذو علم » جليل .

« لما علمناه » لتعليمنا إياه بالوحى ، ونصب الأدلة ،حيث لم يعتقد أن الحذر يدفع القدر، حتى يتبين الخلل فى رأيه عند تخلف الأثر .

أو حيث بت القول بأنه لا يغنى عنهم من الله تعالى شيئا ، فـكانت الحال كما قال .

وتنكير (علم) وتعليله بالتعليم المسند إلى ضمير العظمة من الدلالة على جلالة شأن يعقوب ـ عليه السلام ـ وعلو مرتبة علمه وفخامته مالا يخفى .

« ولـكن أكثر الناس لا يعلمون » سر القدر ، ويزعمون أنه يغنى عنه الحذر .

وقيل : المراد (لا يعلمون) ايجاب الحذر مع أنه لا يغنى شيئا من القدر .

وقيل : المراد (لا يعلمون) أن يعقوب ـ عليه السلام ـ بهذه المثابة من العلم .

اشعـاعات

فيها عجائب .. وغرائب .

الله سبحانه وتعالى يصدق على نظرية يعقوب ـ عليه السلام ـ !!

يقول يعقوب : « ما أغنى عنـكم من الله من شىء » .

ويقول الله : « ما كان يغنى عنهم من الله من شىء » .

أى : كأن الله تعالى يريد أن يقول :

صدق يعقوب فيما قال وأعلن . . ما كان يستطيع أن يدفع عنهم شيئا أردته بهم . . ولا أدنى شىء ..

ومعنى هذا أن يعقوب نطق بالحق .. وأذاع الحق ..

ومعنى هذا أن يعقوب أوتى علما عظيما جدا جدا جدا ..

وأن مستواه العلمى عال جدا جدا جدا .. حتى استطاع أن يدرك هذا كله ..

وأن يرقى إلى ادراك تلك الحقائق الـكلية .. العليا .. هذا الادراك العظيم ..

ولذلك يثنى الله تعالى عليه .. « وإنه لذو علم » ..

علم من لدنا .. « لمـا علمناه » .. لتعليمنا نحن اياه ..

علم من عنده تعالى .. لا ينال بأسباب .. ولا من مدارس .. ولا من أساتذة.

نور مباشر.. من الله إلى يعقوب ..

كيف كان علم يعقوب هذا ؟

ذلك مقام .. لايدركه إلا يعقوب نفسه ..

لأنها تجربته .. التي عاشها مع ربه ..

ومقامه الذى لم يرق إليه سواه .. شيء بينه وبين ربه تبارك وتعالى .. شيء يصفه الله فيقول : «وإنه لذو علم ، لما علمناه .. »وكفى بتلك شهادة !!

شيء .. لا يستطيع الناس أن يتذوقوه .. أويدركوه .. لأنهم دون مستواه ..

وهذا هو سر تعقيبه .. بقوله ..

« واكن أكثر الناس لا يعلمون » .. لا يستطيعون ادراك ما كان عليه يعقوب من علم .

لأنه مستوى عال جدا جدا .. لا ينال بأسباب ..انها النبوة..النور المباشر..المستوى الذى لا يدركه الناس .. ولا يستطيعون !!

— ٦٩ —

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّى أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

« ولما دخلوا على يوسف آوى » ضم .. « إليه أخاه » بنيامين .

قالوا : إنهم لما دخلوا عليه ـ عليه السلام ـ قالوا : أيها الملك ،هذا أخونا الذى أمرتنا أن نأتيك به قد جئناك به .

«فقال لهم : أحسنتم وأصبتم وستجدون ذلك عندى ، وبلغوه رسالة أبيهم ، فإنه ـ عليه السلام ـ لما ودعوه قال لهم : بلغوا ملك مصر سلامى ، وقولوا له : إن أبانا يصلي عليك ويدعو لك ، ويشكر صنيعك معنا »ـ

وقالوا : إنه ـ عليه السلام ـ خاطبه بذلك فى كتاب .

« فلما قرأه يوسف ـ عليه السلام ـ بكى .

« ثم إنه اكرمهم وأنزلهم وأحسن نزلهم .

« ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة ، فبقى بنيامين وحيدا فبكى وقال : لو كان أخى يوسف حيا لأجلسنى معه .

«فقال يوسف ـ عليه السلام ـ بقى أخوكم وحده ؟

«فقالوا له : كان له أخ فهلك .

«قال : فأنا أجلسه معى ، فأخذه وأجلسه معه على مائدة وجعل يؤاكله .

«فلما كان الليل أمرهم بمثل ذلك ، وقال ينام كل اثنين منكم على فراش .

«فبقى بنيامين وحده فقال : هذا ينام عندى على فراشى .

« فنام مع يوسف ـ عليه السلام ـ على فراشه .

« فجعل يوسف ـ عليه السلام ـ يضمه إليه ، ويشم ريحه ، حتى أصبح .

« وسأله عن ولده فقال : لى عشرة بنين ، اشتققت أسماءهم من اسم أخ لى هلك .

«فقال له : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك ؟

«قال : من يجد أخا مثلك أيها الملك ؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل !

« فبكى يوسف ـ عليه السلام ـ

«وقام إليه ، وعانقه ، وتعرف إليه عند ذلك» .

« قال : إنى أنا أخوك » يوسف .

وكانت مفاجأة .. لبنيامين .

أيعقل هذا ؟..

هذا الرجل .. العظيم .. الذى يحكم الإمبراطورية المصرية .. هذا هو يوسف ؟!

« فلا تبتئس » فلا تحزن

« بما كانوا يعملون » بنا فيما مضى ، فان الله تعالى قد أحسن الينا وجمعنا على خير . ولا تعلمهم بما أعلمتك .

روى أنه قال ليوسف ـ عليه السلام ـ أنا لا أفارقك .

قال : قد علمت اغتمام والدى ، فاذا حبستك ازداد غمه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا أن أنسبك إلى مالا يجمل .

قال : لا أبالى ، فافعل مابدالك .

قال : فانى أدس صاعى فى رحلك ثم أنادى عليك بأنك سرقته ، ليتهيأ لى ردك بعد تسريحك معهم .

« قال : افعل »

اشعاعات

تجرى حوادث هذه القصة .. فى انفعالات .. وشحنات من العواطف .. غاية فى القوة .. وغاية فى العنف ..

بنيامين .. يتلفت يمينا .. وشمالا .. يبحث عن رفيق يأكل معه على مائدته فلايجد .. فيتذكر أخاه الذى هلك طفلا .. شقيقه الأوحد .. لوكان هنا .. لجلس معى كما يجلس هؤلاء اثنين .. اثنين ..

وتنفعل نفسه انفعالا شديدا ..

وفجأة يأتى إليه رجل مصر الأول.. ورئيس وزرائها .. وصاحب الكلمة الأولى فيها .. يأتى إليه فى أبهته وعظمته .. ويجلس معه .. ويخصه بهذا الشرف دون اخوته جميعا.. ثم يمازحه .. ويلاطفه .. ويأكل معه ..

وهذه كلها انفعالات تجرى فى نفس بنيامين متدافعة .. جارفة ..

ثم تكون المفاجأة الكبرى . . حين يستدعيه رئيس الوزراء . . ليشاركه النوم فى فراشه ..

وفى هذا اللقاء .. وحدهما ..

تكون المفاجأة الكبرى .. « إنى أنا أخوك » ..

ولا يصدق بنيامين .. ويكاد يذهل ..

مفاجآت كبرى .. وانفعالات عظمى .. كانت تنفجر فى نفس بنيامين .. ونفس يوسف ..

— ٧٠ —

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ .

« فلما جهزهم بجهازهم » فلما أمر باعداد قافلتهم ، فأعدت ، ووفى لهم الكيل ، وزاد كلا منهم — على ماروى — حمل بعير .

« جعل السقاية » هى إناء يشرب منه الملك ، وبه كان يكال الطعام للناس .

روى : أنها كانت من ذهب .

أى أمر يوسف ، أحدا ، فجعلها ..

« فى رحل أخيه » بنيامين ، من حيث يشعر أولا يشعر .

« ثم أذن مؤذن » ثم ناد مناد .

أى : أذن رجل معين للأذان .

« أيتها العير » العير الإبل التى عليها الأحمال ، سميت بذلك لأنها تعير أى تذهب وتجىء .

والمراد هنا : أصحاب العير .

« إنكم لسارقون » أى نادى عليهم مناد : ياأصحاب القافلة ، ياأصحاب القافلة .. قفوا .. إنكم لسارقون .. أنتم لصوص .

— ٧١ —

قَالوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ .

« قالوا » قال إخوة يوسف .

« وأقبلوا عليهم » انزعجوا مما سمعوا .. فارتدوا إلى المنادى ومن معه مسرعين ..

« ماذا تفقدون » أى شىء تفقدون ؟

أو : ماالذى تفقدونه ؟

والمعنى : ماضاع منكم ؟

— ٧٢ —

قَالوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِك وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ .

« قالوا » قال المنادى عليهم ومن معه .

« نفقد » ضاع .

« صواع الملك » مكيال الملك .

وقرئ : صِواع .. وصاع .. وصَوْع .. وصُوع .

وكلها لغات فى : الصاع

وقرئ : صُواغ .. وصُوغ ..

أى : نفقد مصوغ الملك .

أى: جواهر الملك الثمينة .

« ولمن جاء به » ولمن أتى به مطلقا ولومن عند نفسه .

وقيل : ومن دل على سارقه وفضحه .

« حمل بعير » من الطعام ، مكافأة له على ارشاده عليه .

« وأنا به زعيم » كفيل ، أؤديه إليه .

وهو قول المؤذن الذى كان ينادى عليهم ..

اشعاعات

ذلك بلاء جديد .. وأزمة خطيرة يتعرض لها أولاد يعقوب ..

انه اتهام يوجه إليه .. إنكم لصوص ..

وأى شيء فيه يتهمون ؟

فى مكيال الملك .. الذى هو من الذهب الخالص ..

والذى لهشهرة عالمية .. حيث تكال به الحبوب للناس جميعا .. من جميع انحاء العالم ..

كأس الملك .. بلغة اليوم ..

كأس من ذهب خالص .. مرصع بالجواهر الثمينة ..

إنه قطعة فنية نادرة .. تقدر بالملايين ..

فضلا عن قيمته التاريخية .. والأثرية ..

إن رجال الأمن فى الدولة يطاردون اللصوص ..

وينادونهم : انكم لسارقون !!!

— ٧٣ —

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ .

« قالوا » قال إخوة يوسف .

« تالله » والله .. أوبالله ..

وأيا ماكان ففى القسم بها معنى التعجب .. كأنهم تعجبوا من رميهم بما ذكر مع ماشاهدوه من حالهم .

فقد روى أنهم كانوا يعكمون أفواه إبلهم لئلا تنال من زروع الناس وطعامهم شيئا ، واشتهر أمرهم فى مصر بالعفة ، والصلاح ، والمثابرة على فنون الطاعات .

« لقد علمتم » علما جازما مطابقا للواقع .. لقد تأكد لديكم جميعا ..

« ماجئنا لنفسد فى الأرض » لنسرق ، فان السرقة من أعظم أنواع الفساد .

أو . لنفسد فيها أى إفساد كان ، فضلا عما نسبتمونا إليه من السرقة .

فكأنهم قالوا : مامرلنا الافساد ببال ، ولاتعلق بخيال ، فضلا عن وقوعه منا .

« وما كنا سارقين » ما كنا نوصف بالسرقة قط .

اشعاعات

أقسم إخوة يوسف على أمرين .. والله .. لقد علمتم .. ماجئنا لنفسد فى الأرض ..

والله .. لقد تأكد لكم جميعا .. بكل شواهد الحال .. ماجئنا إلى هذه الأرض الطيبة .. لنرتكب فيها الجرائم ونسرق فيها كأس الملك .

والثانى .. وما كنا سارقين.. والله .. ما كنا لصوصا.. يوما من الأيام .. حتى نحترف السرقة فى هذه الأيام !!

إنه اتهام غليظ .. يوجه إلى مجموعة من الأجانب عن البلاد .. من حكومة البلاد .. وموضوع الاتهام شىء ثمين جدا .. مشهور جدا ..

ويزيد الاتهام قبحا .. أنه صدر عنهم ضد الدولة التى أكرمتهم .. واحتفت بهم .. وزادتهم من التموين بدون مقابل ..

ضد رئيس الوزراء الذى أكرمهم .. فكان ردهم على إكرامه لهم .. أن اختلسوا أعز شىء عنده .. اختلسوا كاس الملك الذى يعتبره يوسف أغلى هدية أهداها إليه الملك !!

— ٧٤ —

قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنتُمْ كَاذِبِينَ •

« قالوا » قال إخوة يوسف .

« فما جزاؤه » فما جزاء سرقته .

ماعقوبة السارق عندكم وفى شريعتكم ؟

على أى شىء ينص قانون بلادكم ، عقابا لمن سرق مثل هذا الشىء الثمين ؟

« إن كنتم كاذبين » فى ادعاء البراءة .

— ٧٥ —

قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ.

« جزاؤه » عقابه .. عقوبته .

« من وجد » أخذ من وجد الصواع عنده واسترقاقه .

« فى رحله » فى جهازه ، فى حمل بعيره .

« فهو جزاؤه» فأخذه واسترقاقه هو جزاؤه .

واختاروا عنوان الوجدان فى الرحل دون السرقة مع أنه المراد لأن كون الأخذ والاسترقاق سنة عندهم ومن شريعة أبيهم ـ عليه السلام ـ إنما هو بالنسبة إلى السارق دون من وجد عنده مال غيره كيفما كان .. إشارة إلى كمال نزاهتهم .. حتى كأن أنفسهم لاتطاوعهم وألسنتهم لا تساعدهم على التلفظ به مثبتا لأحدهم بأى وجه كان.. وكأنهم تأكيدا لذلك الإشارة عدلوا عمن وجد عنده إلى من وجد فى رحله .

« كذلك » مثل ذلك الجزاء الأوفى .

« نجزى الظالمين » بالسرقة .

والظاهر أن هذا من تتمة كلام الإخوة ، فهو تأكيد للحكم المذكور بعد تأكيد ، وبيان لقبح السرقة .. وقد فعلوا ذلك ثقة بكمال براءتهم عنها ، وهم عما فعل بهم غافلون !

وقيل : هو من كلام أصحاب يوسف ـ عليه السلام ـ

وقيل : كلامه نفسه .. أى مثل الجزاء الذى ذكرتموه نعاقب نحن كذلك .. هنا .. فى هذه البلاد .. السارقين . أى : ينص قانون بلادى على استرقاق من سرق !

— ٧٦ —

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ.

« فبدأ » فبدأ الذى كان ينادى عليهم : قفوا للتفتيش .. انكم لصوص .

أى : فبدأ المؤذن .. المنادى ..

وقيل : فبدأ يوسف - عليه السلام - فقد روى أن إخوته لما قالوا ماقالوا ، قال لهم أصحابه : لابد من تفتيش رحالكم ، فردوهم ، بعد أن ساروا منزلا ، أو بعد أن خرجوا من العمران اليه - عليه السلام - فبدأ .

« بأوعيتهم » أى بتفتيش أوعية الاخوة العشرة .

ولايخفى أن الظاهر اسناد التفتيش إليه - عليه السلام - مجازى ، والمفتش حقيقة الموظفون الذى يعملون بأمره بذلك .

« قبل » قبل تفتيش .

« وعاء أخيه » بنيامين لنفى التهمة .

روى أنه لما بلغت النوبة إلى وعائه قال : ماأظن هذا أخذ شيئا .فقالوا : والله لاتتركه حتى تنظر فى رحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا .. ففعل .

« ثم استخرجها » ثم استخرج الكأس .. أى السقاية .. أو الصواع ..

وقيل : الضمير للسرقة .. ثم استخرج السرقة .. أى ثم اكتشفها ..

« من وعاء أخيه » من وعاء بنيامين .. أخيه .

والوعاء : الظرف الذى يحفظ فيه الشىء .

وعليه يكون - عليه السلام - قد فتش كل ما يمكن أن يحفظ الكأس فيه مما كان معهم من رحل أخيه .

« كذلك » مثل ذلك الكيد العجيب ، وهو إرشاد الإخوة إلى الافتاء المذكور بإجرائه على ألسنتهم ، وحملهم عليه بواسطة المستفتين من حيث لم يحتسبوا .

« كدنا ليوسف » صنعنا ، ودبرنا ، لأجل تحصيل غرضه ، من المقدمات التى رتبها ، من دس الكاس ، وما يتلوه .

« ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك » أى فى سلطان الملك .

أو : فى حكم الملك وقضائه .

والكلام تعليل لذلك الكيد ، كأنه قيل : لماذا فعل ذلك ؟

فقيل : لأنه لم يكن ليأخذ أخاه جزاء وجود الكأس عنده فى قوانين الملك فى أمر السارق ، إلا بذلك الكيد ، لأن جزاء السارق فى قوانين الملك - على ماروى — أن يضاعف عليه الغرم ، أى يحكم عليه بغرامة تعادل ضعف ثمن المسروق .. فلم يكن يتمكن بماصنعه من أخذ أخيه بما نسب إليه من السرقة بحال من الأحوال .

« إلا أن يشاء الله » إلا حال مشيئته تعالى ، التى هى عبارة عن ذلك الكيد .

أو : إلا حال مشيئته تعالى للأخذ بذلك الوجه .

« نرفع درجات » أى رتبا كثيرة ، عالية من العلم .

« من نشاء » من نشاء رفعه حسبما تقتضيه الحكمة ، وتستدعيه المصلحة ، كما رفعنا يوسف — عليه السلام —

وايثار صيغة الاستقبال للاشعار بأن ذلك سنة مستمرة ، غير مختصة بهذه المادة .

« وفوق كل ذى علم » من أولئك المرفوعين .

« عليم » لا ينالون شأوه .

وفى صيغة المبالغة مع التنكير والالتفات إلى الغيبة من الدلالة على فخامة شأنه عزشأنه ، وجلالة مقدار علمه ، المحيط ، جل جلاله ، مالا يخفى .

وقيل : أى نرفع درجات عالية ، من نشاء رفعه ، وفوق كل منهم عليم . . هو أعلى درجة .

قال ابن عباس — رضى الله تعالى عنهما — فوق كل عالم عالم ، إلى أن ينتهى العلم إلى الله تعالى .

اشعاعات

ثم استخرجها ؟!!

فيها جمال عجيب !!!

كأن هناك ضجة ... ورجة ... وتفتيش ... وبحث ... ودولة بأكملها تبحث عن كأس الملك ..

وأخيرا .. اكتشفوها .. مخبأة .. فى وعاء بنيامين .. بطريقة عجيبة .. فاستخرجوها.. وأعلنوا اكتشافها !!!

كل ذلك تحويه هذه الكلمة « ثم استخرجها » !!!

ثم ماذا ؟ ثم فى الآية اعاجيب ... ونواميس ...

الناموس الأول ... « كذلك كدنا » ..

الله يكيد .. الله يدبر الأمور تدبيرا تخفى مراميه على الخلق ..

لقد شاء الله ليوسف أن يأخذ أخاه .. ويحتجزه معه ..

فماذا حدث ؟

حدث هذا الذى حدث ... من دس كأس الملك فى وعاء بنيامين ... ثم جرى رجال المباحث العامة وراء القافلة بعد أن غادرت العمران .. ثم استوقفوهم .. بتهمة السرقة .. ثم كان جدال ..

ثم سألوهم ماعقوبة السارق عندكم ؟

فقال الإخوة : أن يسترق .

فوافق يوسف على أن يحاكمهم بقانونهم .. وقانون بلادهم ، لابقانون مصر آنذاك . .

فكان ذلك كيدا من الله ليوسف ..

أى تدبيرا له تعالى .. ليحقق ليوسف غرضه من استبقاء أخيه معه !!

وذلك ناموس إلهى يسرى دائما وأبدا . .

أن الله تعالى يدبر الأمور . . تدبيرا فوق ادراك الخلق . . ويدق على أفهامهم . . لقصور علمهم . .

الناموس الثانى . . وفوق كل ذى علم عليم . .

قال فى حق الخلق « ذى علم » . . وقال فى حقه تعالى « عليم » . .

فما معنى هذا ؟

معناه عميق جدا جدا جدا . .

أن علم الخلائق . . مؤقت . . مستعار . . موهوب لهم . . ليس علما ذاتيا . . قائما بهم ولذلك قال « ذى علم » . . أى صاحب علم . . مؤقت .

وأن علم الله . ذاتى . . قائم به تعالى . . لا يزول . . ولا يحول . . ولا ينتهى ولا يتناهى . . ولذلك قال « عليم » !!!

تأمل ؟!!

مستحيل أن تكون هذه الدقة . . وهذا الاحكام . . من كلام بشر !!!

وفيها أن علوم الخلق تتناهى . . ومحدودة . .

وأن علم الله لا يتناهى . .

وفيها أن العلم ذاته لا نهاية له بالنسبة للخلق . . وأن عليهم أن يستزيدوا منه دائما . .

وفيها أن العلم درجات . .

وأن الله يهب تلك الدرجات لمن يشاء . .

وهذا هو الناموس الثالث . . « نرفع درجات من نشاء » . . العلم مراتب . . آفاق وراء بعضها البعض . . مستويات مختلفة . .

والله تعالى يرفع من يشاء إلى ماشاء من تلك المراتب . .

إنه محض فضله تعالى . . ومحض تفضله . .

وانه تعالى له مطلق الحرية .. فى رفع من شاء من عباده .. إلى ما شاء من درجات العلم والمعرفة ..

— ٧٧ —

قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ .

« قالوا » قال إخوة يوسف .

« إن يسرق » إن يسرق بنيامين .

« فقد سرق أخ له من قبل » يريدون به يوسف ـ عليه السلام ـ وما جرى عليه من جهة عمته .

عن مجاهد قال : كان أول مادخل على يوسف ـ عليه السلام ـ من البلاء ـ فيما بلغنى أن عمته كانت تحضنه ، وكانت أكبر ولد إسحاق ـ عليه السلام ـ وكانت إليها منطقة أبيها ، وكانوا يتوارثونها بالكبر ، فكانت لاتحب أحدا كحبها إياه ، حتى إذا ترعرع وقعت نفس يعقوب اليه فأتاها فقال : ياأختاه سلمى إلى يوسف ، فوالله ما أقدر على أن يغيب عنى ساعة ، فقالت : والله ماأنا بتاركته فدعه عندى أياما أنظر إليه لعل ذلك يسليني فلما خرج يعقوب ـ عليه السلام ـ من عندها عمدت إلى تلك المنطقة فحزمتها على يوسف ـ عليه السلام ـ من تحت ثيابه ثم قالت : فقدت منطقة أبى اسحاق فانظروا من أخذها فالتمست ثم قالت : اكشفوا أهل البيت ، فكشفوهم فوجدوها مع يوسف ـ عليه السلام ـ فقالت : إنه لسلم لى أصنع فيه ماشئت فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر ، فقال لها : أنت وذاك إن كان فعل ، فامسكته ، فماقدر عليه حتى ماتت .

والمعنى: إن كان سرق فليس ببدع اسبق مثله من أخيه، وكأنهم أرادوا بذلك دفع المعرة عنهم ، واختصاصها بالشقيقين .

« فأسرها يوسف » فأضمر يوسف الحزازة التي حصلت له ـ عليه السلام ـ مما قالوا .

وقيل : أضمر مقالتهم ، أو نسبة السرقة إليه، فلم يجبهم عنها .

« فى نفسه » لا أنه أسرها لبعض أصحابه ، كما فى قوله تعالى : (وأسررت لهم اسرارا)

« ولم يبدها » ولم يظهرها .

« لهم » لا قولا ولا فعلا ، صفحا لهم وحلما .

« قال » قال يوسف فى نفسه .

« أنتم شر مكانا » أنتم شر منزلة فى السرقة .

وحاصله انكم أثبت فى الاتصاف بهذا الوصف وأقوى فيه ، حيث سرقتم أخاكم من أبيكم ، ثم طفقتم تفترون على البرىء .

« والله أعلم بما تصفون » والله عالم علما بالغا إلى اقصى المراتب بأن الأمر ليس كما تصفون صدور السرقة منا .

—٧٨—

قَالُوا يَاأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ .

« قالوا » قال إخوة يوسف ، عندما شاهدوا مخايل أخذ بنيامين مستعطفين .

« ياأيها العزيز » ياصاحب الدولة والفخامة .

« إن له أبا شيخا كبيرا » إن لهذا الذى تريد أن تأخذه جزاء سرقته أبا طاعنا فى السن لا يكاد يستطيع فراقه ، وهو يتسلى به عن شقيقه الهالك .

وقيل : أرادوا مسنا كبيرا فى القدر .

« فخذ أحدنا مكانه » بدله ، فلسنا عنده بمنزلته من المحبة والشفقة .

« إنا نراك من المحسنين » إلينا فأتمم احسانك ، فما الانعام إلا بالاتمام .

أو : من عادتك الإحسان مطلقا ، فاجر على عادتك ، ولا تغيرها معنا ، فنحن أحق الناس بذلك

— ٧٩ —

قَالَ مَعَاذَ اللهِ أن نَأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ .

« قال » قال يوسف .

« معاذ الله » نعوذ بالله تعالى معاذا من ..

« أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده » لأن أخذنا له إنما هو بقضية فتواكم ، فليس لنا الأخلال بموجبها .

« إنا إذا » إذا أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده ولو برضاه .

« لظالمون » فى مذهبكم وشرعكم ومالنا ذلك :

— ٨٠ —

فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ .

« فلما استيئسوا منه » فلما يئسوا من يوسف — عليه السلام — واجابته لهم إلى مرادهم .

أى : يئسوا يأسا كاملا ، ولعل حصول هذه المرتبة من اليأس لهم لما شاهدوه من عوذه بالله تعالى مما طلبوه الدال على كون ذلك عنده فى أقصى مراتب الكراهة وأنه مما يجب أن يحذر عنه ويعاذ بالله تعالى منه ، ومن تسميته ذلك ظلما بقوله : (إنا إذا لظالمون) .

« خلصوا » انفردوا عن غيرهم واعتزلوا الناس .

« نجيا » متناجين متشاورين فيما يقولون لأبيهم .

« قال كبيرهم » رئيسهم ، وهو شمعون ،

أو : كبيرهم فى السن ، وهو روبيل .

« ألم تعلموا ، كأنهم أجمعوا عند التناجي علي الانقلاب جملة ولم يرض به فقال منكرا عليهم .

« أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله » عهدا يوثق به ، وهو حلفهم بالله تعالى وكونه منه تعالى لأنه باذنه فكأنه صدر منه تعالى أو هو من جهته سبحانه .

« ومن قبل » ومن قبل هذا .

« مافرطتم فى يوسف » قصرتم فى شأنه . ولم تحفظوا عهد أبيكم فيه ، وقد قلتم ماقلتم . وما مزيدة .. وهذا على ماقيل أحسن الوجوه فى الآية وأسلمها .

أى : ومن قبل هذا فرطتم فى يوسف .

« فلن أبرح الأرض » فلن أفارق أرض مصر .

« حتى يأذن لى أبى » بالانصراف إليه .

« أويحكم الله لى » بالخروج منها على وجه لا يؤدى إلى نقض الميثاق .

أو : بخلاص أخى بسبب من الأسباب .

« وهو خير الحاكمين » إذ لايحكم سبحانه إلا بالحق والعدل .

— ٨١ —

ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَاأَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِين .

« ارجعوا إلى أبيكم فقولوا » له .

« ياأبانا إن ابنك سرق » الظاهر أن هذا الكلام من تتمة كلام كبيرهم .

« وماشهدنا » عليه .

« إلابما علمنا » من سرقته ، وتبقيناه ، حيث استخرج كأس الملك من رحله .

« وما كنا للغيب حافظين » وماعلمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الميثاق .
أو : ماعلمنا أنك ستصاب به كما أصبت بيوسف .

— ٨٢ —

وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِى أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ .

« وسئل القرية التى كنافيها »وارسل من تثق به إلى أهل المدينة التى كنا فيها واسألهم
أى : واسأل أهل مصر ...
« والعير التى أقبلنا فيها » واسأل أصحاب القافلة الذين توجهنا فيهم وكنا معهم فان القصة معروفه فيما بينهم .
وكانوا قوما من كنعان ، من جيران يعقوب — عليه السلام — .
« وإنا لصادقون » فيما أخبرناك به .

— ٨٣ —

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .

« قال » قال أبوهم عندما رجعوا إليه فقالوا له ماقالوا .
« بل سولت لكم أنفسكم أمرا » بل زينت وسهلت لكم أنفسكم أمرا من الأمور فأتيتموه .
والتنوين فى (أمرا) للتعظيم أى : أمرا عظيما .
« فصبر جميل » أى فأمرى ذلك ، أوفصبر جميل أجمل .
والصبر الجميل هو الذى لا شكوى فيه .
« إنه هو العليم » بحالى وحالهم .
« الحكيم » الذى يبتلى ويرفع البلاء حسب الحكمة البالغة .
قيل : إنما ترجى — عليه السلام — للرؤيا التى رآها يوسف — عليه السلام —

فكان ينتظرها ، ويحسن ظنه بالله تعالى ، فانه قد جرت سنته تعالى أن الشدة إذا تناهت يجعل وراءها فرجا عظيما .

اشعاعات

فصبر جميل ؟!

كلمة عالية .. من يعقوب .. عليه السلام ..

تدل على أن الأنبياء لهم شأن غير شئون الناس جميعا ..

سوف لاأشكو .. وإنما سوف اصبر ..

« إنه هو العليم » بى .. وبآلامى وأحزانى .. على فقد هذين الولدين ..

— ٨٤ —

وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاأَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ .

« وتولى » وأعرض .

« عنهم » كراهة لما جاؤا به .

« وقال : ياأسفى على يوسف » الأسف أشد الحزن على ما فات .

ياحزنى على يوسف ..

قالوا : إن مثل هذه المحبة الشديدة تزيل عن القلب الخواطر ، ويكون صاحبها كثير الرجوع إليه تعالى ، كثير الدعاء والتضرع ، فيصير ذلك سببا لكمال الاستغراق .

« وابيضت عيناه من الحزن » أى بسببه .

وهو فى الحقيقة سبب للبكاء ، والبكاء سبب لابيضاض عينه .

والابيضاض . قيل أنه كناية عن العمى ، فيكون قد ذهب بصره — عليه السلام — بالكلية .

وقيل : المراد من الآية أنه — عليه السلام — صارت فى عينيه غشاوة بيضتهما — وكان — عليه السلام — يدرك ادراكا ضعيفا .

قيل : كان منذ خرج يوسف من عند يعقوب — عليهما السلام — إلى يوم رجع ثمانون سنة ، لم يفارق الحزن قلبه ، ودموعه تجرى على خديه ، ولم يزل يبكى حتى ذهب بصره . وماعلى الأرض يومئذ والله أكرم على الله تعالى منه .

« فهو كظيم » مملوء من الغيظ على أولاده ، ممسك له فى قلبه لايظهره .

وقيل : مملوء من الحزن ، ممسك له لايبديه .

أو : شديد التجرع للغيظ أوالحزن لأنه لم يشكه إلى أحدقط .

اشعاعات

ماهذا ؟ هذا مقام يعقوب — عليه السلام — ثمانون عاما .. وهو حزين .. دائم البكاء .. ولكن .. لايبث .ابه إلى أحد .. وإنما إلى الله ..

لماذا هذا ؟

ليكون مع الله دائما ..

حتى عمِى .. واصبحت الدنيا ظلاما دائما ..

لماذا ؟ لينتقل إلى نوره تعالى ..

أرأيت ؟حيلولة تامة بينه وبين الدنيا .. بينه وبين أحب ابنائه إليه .. ثم ولده الثانى.. الذى يأتى فى المرتبة الثانية من حبه ..

ثم اسدال الستار على الدنيا . . وحجبها عنه .. بالعمى ..

كل ذلك تقطيع للأسباب .. ليعود إليه تعالى وحده !!!

فلا شىء يراه يعقوب بعد الآن .. بعينيه ..

ولاوجه يوسف ..الجميل .. أمامه ..

وإنما لم يعد للرجل شىء .. إلا الله . .

وهذا هو هدف البلاء ..

إنه هذا الحزن الدائم .. وهذا الفقد الدائم ..

طريق يعقوب .. إلى ربه ..

إنه مقام يعقوب .. ويالله من مقام !!

— ٨٥ —

قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ .

« قالوا » قال إخوة يوسف .

وقيل : غيرهم من أتباعه — عليه السلام — .

أو : معارفه .

« تالله تفتأ » أى لا تفتأ ولا تزال .

« تذكر يوسف » تفجعاً عليه .

أى نقسم بالله تعالى لا تزال ذاكر يوسف متفجعاً عليه ...

« حتى تكون حرضاً » مريضاً ، مشفياً على الهلاك .

وقيل : الحرض من أذابه هم أو مرض أو جعله مهزولا نحيفا .

« أو تكون من الهالكين » أى الميتين ...

— ٨٦ —

قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

« قال » يعقوب — عليه السلام —

« إنما أشكو بثى » الظاهر أن القوم قالوا ما قالوا بطريق التسلية والاشكاء ، فقال فى جوابهم : إنى لا أشكو ما بى إليكم أو إلى غيركم حتى تتصدوا لتسليتى وإنما أشكو غمى ..

والبث هو الغم الذى لا يطيق صاحبه الصبر عليه . كأنه ثقل عليه فلا يطيق حمله وحده ...

« وحزنى إلى الله » تعالى ، ملتجئاً إلى جنابه . متضرعا فى دفعه لدى بابه ، فإنه القادر على ذلك .

وفى الخبر عن ابن عمر قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كنوز البر ، إخفاء الصدقة ، وكتمان المصائب ، والأمراض ، ومن بث لم يصبر » .

« وأعلم من الله » من لطفه ورحمته .

« ما لا تعلمون » فأرجو أن يرحمنى ، ويلطف بى ، ولا يخيب رجائى .

اشعاعات

فيها أنوار عجيبة ...

النور الأول .. إنما أشكو بثى وحزنى ... إلى الله ...

أى مالكم وشأنى .. إنما هو شىء بينى وبينه ... أبثه غمى .. وأرفع إليه حزنى ...

إنه شىء يعيش فيه يعقوب . . ويرى فيه مقامه ...

فلا شأن لكم بذلك .

النور الثانى ... وأعلم من الله ما لا تعلمون ...

ماذا يعلم يعقوب من الله ؟

هذا ايضا .. مقام يعقوب وحده ... إن الله تعالى علمه شيئا خاصا به ...

يعلم عنه تعالى الكثير ..

ويعلم لماذا ابتلاه بهذا البلاء الشاق ؟

لماذا ابتلاه فى يوسف بالذات ؟

لماذا اختار الله تعالى أن يكون البلاء فى الولد ... الذى أهله ليحمل الرسالة من بعده ... ويرث النبوة عنه ؟

ويعلم كثيراً .. وكثيراً .. مما لا سبيل إليه ..

وإنما الضوء الذى يشرق علينا من ذلك التعبير ... أن الأنبياء لهم علم بالله ... فوق علومنا جميعاً ... وأنهم أعلم الخلق بالله ..

« عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

« كان ليعقوب أخ مؤاخ فى الله تعالى

« فقال ذات يوم ليعقوب: يا يعقوب، ما الذى أذهب بصرك ؟

« قال: البكاء على يوسف .

« قال: ما الذى قوس ظهرك ؟

« قال: الحزن على بنيامين .

« فأتاه جبريل، فقال: يا يعقوب، إن الله يقرؤك السلام، ويقول لك: أما تستحى، تشكونى إلى غيرى ؟!

« قال: إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله

« فقال جبريل: الله أعلم بما تشكو يا يعقوب

« ثم قال يعقوب: أى رب، أما ترحم الشيخ الكبير ؟ أذهبت بصرى، وقوست ظهرى، فاردد على ريحانتى، أشمه شمة قبل الموت، ثم اصنع بى ما أردت

« قال: فأتاه جبريل، فقال: إن الله يقرؤك السلام، ويقول لك: أبشر، وليفرح قلبك، فوعزتى لو كانا ميتين لنشرتهما، فاصنع طعاما للمساكين، فإن أحب عبادى إلى الأنبياء والمساكين.

« اتدرى لم أذهبت بصرك، وقوست ظهرك، وصنع إخوة يوسف بيوسف ما صنعوا ؟

« انكم ذبحتم شاة، فأتاكم مسكين، يتيم، وهو صائم

« فلم تطعموه منها شيئا !

« قال : فكان يعقوب ، بعد ذلك ، إذا أراد النداء ، أمر مناديا فنادى : ألا من أراد النداء من المساكين فليتغد مع يعقوب .

« وإن كان صائما ، أمر مناديا فنادى : ألا من كان صائما من المساكين ، فليفطر مع يعقوب (عليه السلام) » . [رواه الحاكم]

- ٨٧ -

يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ .

« يابنى اذهبوا فتحسسوا » أى فتعرفوا .

وهو تفعل من الحس ، وهو فى الأصل الإدراك بالحاسة ، وكذا أصل التحسس طلب الإحساس .

« من يوسف وأخيه » أى من خبرهما .

ولم يذكر الثالث لأن غيبته اختيارية لا يعسر ازالتها .

« ولا تيأسوا من روح الله » لا تقنطوا من فرجه سبحانه وتنفيسه .

او : لا تيأسوا من رحمة الله .

أو : من فضل الله .

« إنه » أى الشأن .

« لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » لعدم علمهم بالله تعالى وصفاته .

فإن العارف لا يقنط فى حال من الأحوال .

قال ابن عباس : إن المؤمن من الله تعالى على خير ، يرجوه فى البلاء ، ويحمده فى الرخاء .

قالوا : اليأس لا يحصل إلا إذا اعتقد الإنسان أن الإله غير قادر على الكمال ، أو غير عالم بجميع المعلومات ، أو ليس بكريم .

« واعتقاد كل من هذه الثلاث يوجب الكفر، فاذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحدها وب منها كفر ، ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافرا » .

واستدل بعضهم بالآية على أن اليأس من رحمة الله تعالى كفر ، وادعى انها ظاهرة فى ذلك .

جاء عن ابن مسعود — رضى الله تعالى عنه — : إن اليأس أكبر الكبائر .

وكذا القنوط ، وسوء الظن .

وفرقوا بينها ، بأن اليأس عدم امل وقوع شيء من أنواع الرحمة له ، والقنوط هو ذاك مع انضمام حالة هى أشد منه فى التصميم على عدم الوقوع ، وسوء الظن هو ذاك مع انضمام أنه مع عدم رحمته له يشدد له العذاب كالكفار .

اشعاعات

فيما أطلقه يعقوب ... من قوله : «ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » ... اشعاعات عالية جدا .. تنير الطريق أمام الحيارى ، والضائعين واليائسين ، فى ظلمات هذه الحياة ..

إن الناس جميعا ... إلا من رحم . . يتهاوون فى بالوعة الضياع . . من هنا . . ومن هنا وحده ..

كم من شباب .. اندفع إلى الانتحار .. يأسا من الحياة ؟

كم من الملايين اندفعت إلى الإنهيار .. يأسا من أحوالها ؟

كم من أصناف الناس .. أعطوا ظهورهم لله . . يأسا من رحمته ؟

كثير .. كثير .. جدا .. جدا ..

فما هو هذا اليأس .. الذى يدفع الناس إلى هاوية الجحيم ؟

هو أن يستقر فى مفاهيم الناس أن الله سوف لا يفعل بهم خيرا . . وأنهم سيمكثون فيما هم فيه من عذاب حتى الموت !!

وهذا التشاؤم .. يسود الحياة فى عينى الإنسان .. ويدفعه إلى الإنهيار .. والتخلخل .. وعدم الإيمان بشىء كريم ..

وهو صفة من صفات الكافر بالله ..

لأنه لو آمن بالله ، لعلم أن الله واسع الرحمة .. وأن رحمته وسعت كل شىء ..

ولكان دائما فى انتظار فرجه تعالى .. ورحمته تعالى .. القادمة إليه ..

ان اليأس ظلام .. يصيب القلب فيحجبه عن النور .. نور الله ..

كما أن الظلم ظلام ..

ومتى أظلم الإنسان .. عمى .. فلم يبصر شيئا ..

فكان سهلا على الشيطان أن يعبث به .. ويدفعه إلى المهالك ..

إنه نور عظيم . يصدر عن يعقوب — عليه السلام — حين اعلن « لا تيأسوا من روح الله » ...

وحين اذاع ذلك الناموس الالهى العظيم « إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » ..

فجعل اليأس من رحمة الله .. موازيا للكفر بالله ..

— ٨٨ —

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ .

« فلما دخلوا عليه » أى على يوسف — عليه السلام — بعد مارجعوا إلى مصر ، بموجب أمر أبيهم .

وإنما لم يذكر ايذانا بمسارعتهم إلى ماأمروا به ، واشعارا بأن ذلك أمر محقق لا يفتقر إلى الذكر والبيان .

« قالوا ياأيها العزيز » ياحضرة صاحب الدولة والفخامة .. ياأيها الملك القادر المنيع .

« مسنا وأهلنا الضر » الهزال من شدة الجوع . . والمراد بالأهل ما يشمل الزوجة وغيرها .

« وجئنا ببضاعة مزجاة » مدفوعة ، يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقارا .

أى جئنا ببضاعة قليلة ، تافهة ، لاقيمة لها .. وهى كل مانملك ، أو نستطيع تقديمه ..

والظاهر أنهم قدموا هذا الكلام ليكون ذريعة إلى اسعاف مرامهم ببعث الشفقة وهز العطف والرأفة وتحريك سلسلة الرحمة ثم قالوا ..

« فأوف لنا الكيل » فأتمم لنا الكيل ، ولاتنقصه لقلة بضاعتنا ، أو رداءتها .

« وتصدق علينا » بالايفاء ، أو بالمسامحة وقبول تلك البضاعة التافهة .

أو : بالزيادة على ما يساويها .

وقيل : انهم ارادوا تصدق علينا برد أخينا بنيامين على أبيه .

وهو الأنسب بحالهم بالنسبة إلى أمر أبيهم ، وكأنهم أرادوا تفضل علينا بذلك لأن رد الأخ ليس بصدقة حقيقية .

« إن الله يجزى المتصدقين » قالوا : فى العدول عن إن الله تعالى يجزيك بصدقتك إلى مافى النظم الكريم مندوحة عن الكذب فهو من المعاريض ، فانهم كانوا يعتقدونه ملكا كافرا .

أى : إن الله يجزى المتصدقين عموما ويثيبهم ..

اشعاعات

فى تلك المرحلة .. كانت هناك ثلاث أمور ..

بلغت شدة يعقوب أقصاها .

بلغت ذلة إخوة يوسف أقصاها . .

فقد جاءوه يستعطفون .. ويطلبون الصدقة ..

بلغت عزة يوسف أقصاها .. فهو فى مقام الملك والتمكن والغنى .. وهم .. هناك .. فى مقام الفقر .. والحاجة .. والذلة ..

فما معنى هذا ؟

معناه أن شدة يعقوب .. قد آذنت بالانفراج ..

وهذا ما سيكون ..

— ٨٩ —

قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ .

« قال » قال يوسف — عليه السلام — مجيبا عما عرضوا به ، وضمنوه كلامهم من ذلك .

« هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه » هل علمتم قبح مافعلتموه زمان جهلكم قبحه ، وزال ذلك الجهل أم لا ؟

والظاهر أنه — عليه السلام — لما رأى ما رأى منهم وهو من أرق خلق الله تعالى قلبا .. شرع فى كشف أمره ..

ومراده — عليه السلام — تعظيم الواقعة ، أى ماأعظم ما ارتكبتم فى يوسف وأخيه .

روى : أنهم لما استعطفوه رق لهم ، ورحمهم ، حتى أنه سال دمعه باكيا ، ولم يملك نفسه ، فشرع فى التعرف لهم .

وأراد بما فعلوه به جميع ماجرى ، وبما فعلوه بأخيه أذاهم له ، وجفاءهم إياه ، وسوء معاملتهم له .

« إذ أنتم جاهلون » جاهلون بمايؤول اليه الأمر .

والظاهر أن ذلك لم يكن تشفيا ، بل حث على الاقلاع ، ونصح لهم لما رأى من عجزهم وتمسكنهم مارأى ، مع خفى معاتبة على وجود الجهل ، وأنه حقيق الانتفاء فى مثلهم .

اشعاعات

وكان موقفا .. رائعا .. خالدا ..

رجال .. تسعة .. يتذللون .. ويتمسكنون .. ويسألون ..

ويوسف .. فى أعلى مقامات القوة .. والسلطان .. والتمكن ..

ينادونه : يا أيها العزيز ..

وهم فى أشد الحاجة إلى حفنة قمح مما تحت يديه !!

وكانت مفاجأة .. لهم .. جميعا ..

حين قال لهم ذلك العزيز : هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه ؟

هل تذكرون .. هل يذكر أحد منكم يوم أخذتم طفلا صغيرا .. وأجمعتم على إلقائه في البئر .. ليهلك ؟

هل تذكرون ما كنتم تفعلون بى وبأخى من إيذاء .. واضطهاد ؟

هل تذكرون .. تلك الجهالات .. التى كانت تصدر منكم ؟

وهكذا .. كماأوحى الله إليه .. ساعة القائه فى البئر : « فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابت الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون » .

[الآية ١٥ من تلك السورة] ..

أرأيت ؟ .. لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون ؟ !

وهاهو يوسف – عليه السلام – ينبئهم بأمرهم هذا .. يذكرهم بتلك القصة ..

قصة قذفه فى بئر جافة .. لاماء فيها ولاسبيل إلى الخروج منها ..

هاهو ينبئهم بها .. وهم لايشعرون .. فى وقت هو أبعد ما يخطر على بالهم أن يكون هذا الحاكم العظيم .. هو ذلك الطفل الذى ألقوه يومها ليتخلصوا منه .. أو يهلك إلى الأبد ! !

إذ أنتم جاهلون ؟

لوكنتم تعلمون أنى سأنتهى إلى تلك النهاية العظيمة ما فعلتموها .. ولـكنـكم كنتم تجهلون ذلك !!

— ٩٠ —

قَالُوا أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ .

« قالوا » قال إخوة يوسف — عليه السلام —

« أإنك لأنت يوسف » استبعدوا أن يكون العزيز يوسف ، أو يوسف عزيزا !

استفهام تقرير .. ولذلك أكد بأن واللام ..

أإنك .. لأنت .. يوسف ؟!!

غير معقول .. أنت يوسف ؟!! أنت ؟!!.. أنت يوسف عينه ؟!

« قال : أنا يوسف » نعم .. أنا يوسف .. أناشخص يوسف .. بعينه وذاته ..

« وهذا أخى » وهذا .. بنيامين .. أخى .. شقيقى ..

مبالغة فى تعريف نفسه ..

« قد مَنّ الله علينا » هل علمتم مافعلتم بنا من التفريق والاذلال ، فأنا يوسف ، قدمنّ الله تعالى علينا بالخلاص ، عما ابتلينا به ، والاجتماع بعد الفرقة ، والعزة بعد الذلة ، والأنس بعد الوحشة .

« إنه » أى الشأن .

« من يتق » من يفعل التقوى فى جميع أحواله .

أو : يق نفسه عما يوجب سخط الله تعالى وعذابه .

« ويصبر » على البلايا والمحن .

أو : على مشقة الطاعات .

أو : عن المعاصى التى تستلذها النفس .

« فان الله لا يضيع أجر المحسنين » فإن الله تعالى يكافئهم حتما .. جزاء إحسانهم وصبرهم .. وتقواهم ..

اشعاعات

من ذهول المفاجأة .. انهم ظلوا جميعا يتعجبون .. ويرددون ..

نك .. لأنت .. يوسف ؟!!!

أنت يوسف ؟ !!!

مستحيل .. أن يكون ذلك ؟ !!

من أين لك ملك مصر .. وهذه الأنهار تجرى من تحتك ؟ !

من أين لك .. كل هذا الذى أنت فيه ؟!

من أين لك الوصول إلى الحكم فى هذه البلاد ؟!

وحتى لو وصلت إلى الحكم ،فكيف تأتى لك اختزان تلك الحبوب ..سنين طويلة.. حتى سيطرت على منطقة الشرق الأوسط كلها ؟

وتبسم يوسف .. وقال: أنا يوسف ..

فازدادوا دهشة ..

ثم ازدادوا دهشة .. حين فاجأهم :

وهذا أخى .. وأشار إلى بنيامين ..

شقيق .. ورفيق .. فى البلاء .. والاضطهاد .. منكم ..

ثم تكلمت النبوة .. وتلألأت ثناياها .. وأشرقت بنورها :

قد مَنَّ الله علينا . .

لا وجه للعجب .. كل ما هنالك أن الله تعالى أراد أن يمنّ علينا .

أن يتفضل علينا .. فآتانا ما آتانا .. فضلا منه .. ومِنّة .

فما وجه العجب فى ذلك ؟

إنها النبوة .. تطلق نواميس الخلود !!

ثم تلألأ .. وتلألأ : إنه من يتق ويصبر .. فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ..

هذا هو الناموس العظيم .. الالهى .. الذى أذاعه يوسف — عليه السلام — فأذاع به سرا عظيما من أسرار الله تعالى فى خلقه ..

عنصران .. اثنان .. هما شرط عدم الضياع عند الله ..

من يتق .. ويصبر ..

اتقاء المعاصى .. اتقاء كل مانهى الله عنه .. الابتعاد عن كل شىء يغضب الله ..

ومتى ابتعد الانسان عن المعاصى .. متى توقف عن الانهيار إلى أسفل فقد تماسك عند نقطة الصفر ..

فعليه أن يبدأ الارتفاع إلى أعلى .. السير إلى الله .. إلى القرب ..

وهذا هو الصبر .. الصبر على معاناة متاعب الصعود .. نحو الله ..

كلما اعترضه مايصده .. صبر .. وصابر .. وواصل السير ..

ثم ماذا ؟ ثم ينتقل إلى المرحلة الثالثة .. مرحلة الاحسان .. مرحلة الإبصار .. وادراك الحقيقة ..

إذا .. تعبير يوسف — عليه السلام — « المحسنين » . . كأنما يريد أن يقول : الاحسان هو أن تتقى وتصبر .. وبدون تقوى وصبر فلا إحسان .. وكأنه يريد أن يقول : من استوفى التقوى والصبر فهو محسن . أو من أراد أن يصل إلى مقام الإحسان . . فعليه أن يكون تقيا .. وأن يكون صابرا .

ثم ماذا ؟ .. إن الله لا يضيع أجر المحسنين ؟

مستحيل .. هناك استحالة .. أن يضيع الله أجر إنسان أحسن فى حياته .. أجر انسان اتقى .. وصبر ..

بل لابد أن يكافئه .. فى الدنيا .. وفى الآخرة ..

تلك سنة الله .. ولن تجد لسنة الله تبديلا ..

ثم ماذا ؟ ثم انظر إلى التعبير .. من يتق .. ويصبر ..؟!

افعال مضارعة.. تدل على الاستمرار ..

أى : من هو شأنه دائما .. من استمر على التقوى .. واستمر على الصبر ..

لأنه لاعبرة بتقوى مؤقتة .. وصبر مؤقت .. ثم تدهور بعد ذلك وانقلاب .. وتذبذب ..

إنما هو انسان دائما تقيا .. ودائما صابرا .. مااستطاع إلى ذلك سبيلا .. اتقوا الله ا استطعتم !!

انها النبوة .. تصدر اشعاعاتها !!

— ٩١ —

قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ .

« قالوا » قال أخوة يوسف ... حين انكشفت لهم الحقيقة ... وبهرتهم اشعاعات النبوة..

« تالله » نقسم بالله تعالى

« لقد آثرك الله علينا » لقد اختارك الله ، وفضلك علينا . .

لقد اختارك الله يايوسف ... من دوننا جميعا ... واختصك بميراث النبوة ... نبوة آبائك ابراهيم ... واسحاق ... ويعقوب ...

ثم آثرك علينا بالملك ... فأعطاك ملك مصر تتبوأ منها حيث تشاء ...

و آثرك علينا فى الصورة ... فجعلك أحسن الناس صورة ...

وآثرك علينا فى كل شىء ... فأعزك ، وأذلنا ...

وأغناك وأفقرنا ...

« وإن » أى والحال أن الشأن ..

« كنا لخاطئين » كنا لمتعمدين للذنب إذ فعلنا ما فعلنا ، ولذلك أعزك وأذلنا . .

و (خاطئين) من خطىء إذا تعمد .

وأما أخطأ : فقصد الصواب ولم يوفق له ..

اشعاعات

بينما ... يوسف ... فى انطلاقات الرحمة ... يجوس خلالها ... كيف شاء ...

يسبح فى بحار ... أنوار ... النبوة ...

بيده ... وتحت أمره ... أمر مصر ... يتبوأ منها حيث يشاء ...

ينعم ... بحب أهل مصر جميعاً ...

إذا بهؤلاء ... فى ضيق الفقر ... وذل الحاجة ... وجفاف البعد !!!

لماذا ؟

لأن هذا اتقى . . وصبر ... فلم يضيعه الله ... بل حفظ له حقه عنده ... وأفاض عليه لقاء سلوكه ...

وهؤلاء لم يتقوا .. ولم يصبروا ... فكان الجزاء من جنس العمل ...

— ٩٢ —

قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

«قال» قال يوسف ـ عليه السلام ـ وهو فى مقام القوة والتمكن ...

« لا تثريب » لا تأنيب ولا لوم ..

« عليكم اليوم » بعد اليوم .

« يغفر الله لكم » إنى لأرجو الله تعالى ، وأسأله أن يغفر لكم ما كان منكم .. أى يستر ذنوبكم يوم القيامة ويتجاوز عنها .. وإنى لأثق أنه تعالى سوف يغفر لكم ما كان منكم ...

والحكم بذلك مع أنه غيب قيل : لأنه ـ عليه السلام ـ صفح عن جريمتهم حينئذ ،

وهم قد اعترفوا بها أيضا ، فلا محالة أنه سبحانه يغفر لهم ما يتعلق به تعالى ، وما يتعلق به — عليه السلام — بمقتضى وعده جل شأنه بقبول توبة العباد ...

« وهو أرحم الراحمين » فان كل من يرحم سواه ـ جل وعلا ـ فانما يرحم برحمته سبحانه .

اشعاعات

يبدو ... أن يوسف ـ عليه السلام ـ كان سابحا وقتها ... فى بحار ... أنوار ... الرحمة ...

انظر ... لا تثريب عليكم ... اليوم ... يغفر الله لكم ... وهو أرحم الراحمين ...

هذه انطلاقات ... من بحار الرحمة التى كان يسبح فيها ..

لاتثريب عليكم ... لا لوم عليكم ... لن ألومكم ... ولن أقول شيئاً ... إنما هى المقادير .. ولكل شىء قدر !!

اليوم ... لا ألومكم الآن ... ولا بعد الآن ... لأن القدر لاحيلة فيه ...

« يغفر الله لكم » ... إحساس عميق عند يوسف ... ورغبة شديدة منه أن يتجاوز الله لهؤلاء عما كان منهم ...

ثم ماذا ؟ ..

ثم يطلق يوسف ... ذلك الناموس الخالد ... وهو أرحم الراحمين ...

حلوة ... جميلة ... وهى تنبثق من ثناياه ...

هو ... أرحم ... الراحمين ؟ !

وفى بساطة تامة ... « ورحمتى وسعت كل شىء » ...

فما من شىء إلا وهو مغموس فى رحمته تعالى من أوله إلى آخره ..

فكل رحمة يتراحم بها الخلق ... هى أصلا منه ... مما منحهم من رحمته هو ...

فكيف لا يكون أرحم الراحمين ؟ !

— ٩٣ —

اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ .

« اذهبوا بقميصى هذا » هو القميص الذى كان عليه حينئذ كما هو الظاهر .

« فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا » أى يصر بصيرا ، ويشهد له

أو ، يأت إلى وهو بصير ، أى يحضر إلى فى مصر وهو يبصر وقد ذهب عنه العمى..

« وأتونى بأهلكم أجمعين » من النساء والأولاد وأولاد الأولاد ..

أى : أحضروا بنى إسرائيل جميعاً إلى مصر ...

وكان أولئك الأهل نحوا من سبعين إنسانا ...

وفى التوراة أن من دخل مصر من بنى إسرائيل سبعون ..

وقد نموا فى مصر ، فخرجوا منها ، مع موسى — عليه السلام — وهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلا ، سوى الذرية والهرمى ، وكانت الذرية ألف ألف ومائتى ألف على ماقيل !!

اشعاعات

يقف العقل هنا مطموسا ... عاجزا ...

ماهذا ؟ ... أيعقل هذا ؟ ...

هل مجرد إلقاء قميص على وجه أعمى يرده بصيرا ... ويرد إليه بصره ؟ !

ما السر فى ذلك ... ولماذا هذا ليوسف خاصة ... دون غيره ؟ !

وهنا نقول : مكانكم ... أيها المظلمون ...

انها معجزة ... دارت بين نبى ونبى ...

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ...

وإليكم معجزة أخرى ... صدرت عن يعقوب ... لتزدادوا عجبا !

— ٩٤ —

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ .

« ولما فصلت العير » ولما خرجت القافلة من العريش ، قاصدة مكان يعقوب عليه السلام ، وكان قريبا من بيت المقدس ...

يقال : فصل من البلد يفصل فصولا ، إذا انفصل منه وجاوزه .

« قال أبوهم » يعقوب ـ عليه السلام ـ لمن عنده .

« إنى لأجد ريح يوسف » إنى لأشم ، فهو وجود حاسة الشم ... رائحة يوسف أشمه الله تعالى ماعبق بالقميص من ريح يوسف ـ عليه السلام ـ من مسيرة ثمانية أيام ـ على ماروى عن ابن عباس ـ

« لولا أن تفندون » لولا أن تنسبونى إلى الفند ... أى إلى ضعف الرأى والعقل من الهرم وكبر السن .

ويقال ، شيخ مفند ، إذا فسد رأيه .

لولا تفنيدكم أياى لصدقتمونى أولقلت : إن يوسف قريب مكانه أو لقاؤه أو نحو ذلك

والمخاطب قيل : من كان بحضرته من ذوى قرابته .

اشعاعات

ما هذا ؟

هذه معجزة أخرى ...

كيف انتقلت رائحة يوسف ... على بعد مئات الأميال إلى يعقوب ؟

أو كيف كان لقميص يوسف مثل تلك الرائحة القوية ؟

وهل السر فى القميص ، أم فى حاسة يعقوب ؟

ولماذا القميص بالذات ، وما سر هذا القميص ؟

كل ذلك ... شيء فوق العقل ، يعلمه الله تعالى ...

وكل ذلك... شيء آتاه الله نبييه ـ عليهما السلام ـ يوسف ويعقوب ...

شيء دار بينهما ... وكانا هما موضع التجربة . .

والله يكرم من شاء بما شاء ...

— ٩٥ —

قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ .

« قالوا » قال أولئك المخاطبون .

« تالله » والله .

« إنك لفي ضلالك القديم » إنك لفي ذهابك عن الصواب ، قدما ، بالإفراط في محبة يوسف ، والإكثار من ذكره والتوقع للقائه ، وجعله فيه لتمكنه ودوامه عليه .

أي : لفي تخريفك الذي عشت فيه منذ فقدت يوسف ...

وقيل : الضلال هنا بمعنى الحب .

وقيل : هو الشقاء والعناء .

وقيل : الهلاك والذهاب .

وقيل : الجنون !

أي إنك لفي جنونك القديم !!

— ٩٦ —

فَلَمَّا أن جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُم إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ .

« فلما أن جاء البشير » هو يهوذا أحد أبنائه ...

روى أنه قال لإخوته : قد علمتم أني ذهبت إلى أبي بقميص الترحة فدعوني أذهب إليه بقميص الفرحة ... فتركوه .

« ألقاه » ألقى البشير القميص :

« على وجهه » على وجه يعقوب — عليه السلام —

وقيل : ألقى يعقوب القميص على وجهه ...

قيل : إنه ـ عليه السلام ـ أخذه فشمه ثم وضعه على بصره .

« فارتد بصيراً » فصار بصيرا ..

والمعنى : أنه رجع إلى حالته الأولى من سلامة البصر .. وذهب عنه العمى ...

وفى الكلام مايشعر بأن بصره صار أقوى مما كان عليه ، لأن فعيلا من صيغ المبالغة .

« قال : ألم أقل لكم » قال لبنيه القادمين

أى : ألم أقل لكم ، لا تيأسوا من رحمة الله ؟!

« إنى أعلم من الله مالا تعلمون » ألم أقل لكم حين أرسلتكم إلى مصر ، وأمرتكم بالتحسس ، أو نهيتكم عن اليأس من روح الله تعالى ، إنى أعلم من الله ما لا تعلمون من حياة يوسف عليه السلام ؟

أو : فإن مدار النهى العلم الذى أوتيه — عليه السلام — من جهة الله سبحانه .

أو : قال يعقوب .. لمن حوله : ألم أقل لكم إنى لأجد ريح يوسف ، فكذبتمونى ورميتمونى بالجنون والضلال ، فها هو قميصه ، وها هو بصرى يعود أحسن مما كان ...
إنى أعلم من الله ما لا تعلمون .. إنى أكاشف بما لا سبيل لكم إلى علمه ...

اشعاعات

جاء فى الأخبار ، أنه — عليه السلام — سأل البشير : كيف يوسف ؟

قال : ملك مصر . فقال : ما أصنع بالملك ؟ على أى دين تركته ؟ . قال : على الإسلام . قال : الآن تمت النعمة ..

وهى أقصوصة ... تشير إلى عظمة هؤلاء الأنبياء .. وسمو نظرتهم .. إلى قيم الحياة ..

فما كان يقربهم إلى الله فهو الشيء الهام عندهم ...
وما كان يبعدهم عن الله .. فهو شيء لا وزن له فى معاييرهم ..

ومن أقاصيص ذلك المقام ... قالوا : لما جاء البشير إليه .. قال : ما وجدت عندنا شيئا ، وما اختبزنا منذ سبعة أيام .. ولـكن هون الله تعالى عليك سكرات الموت !!
تأمل ... نبي الله .. يعقوب .. لا يجد عنده شيئا يكافىء به البشير !!
وتلك مقاماتهم ... وذلك هو الثمن الذى يدفعون ..

— ٩٧ —

قَالُوا يَاأَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ .

« قالوا » قال الإخوة القادمون .. الذين كانوا حاضرين ..
« ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا » يا والدنا اطلب من الله أن يتجاوز لنا عن ذنوبنا التى ارتكبناها فى حق يوسف وأخيه وحقك .. وسببنا لـكم تلك المتاعب ، وذلك البلاء .
طلبوا منه — عليه السلام — الاستغفار ، ونادوه بعنوان الأبوة ، تحريكا للعطف والشفقة ..
« إنا كنا خاطئين » انا كنا متعمدين للخطأ ..
إنا كنا مجرمين .. آثمين .. فعلنا مالا ينبغى أن يُفعل ..

— ٩٨ —

قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيم .

« قال » قال يعقوب - عليه السلام —
« سوف أستغفر لـكم ربى » سوف أستمر على طلب المغفرة لـكم من ربى ..
« إنه هو الغفور » إنه تعالى هو دائم المغفرة .. يغفر لمن استغفره ..
« الرحيم » لأنه واسع الرحمة .. يدخل فى رحمته من يشاء ..

روى عن ابن عباس — مرفوعا — أنه — عليه السلام — أخر الاستغفار لهم إلى السحر ، لأن الدعاء فيه مستجاب .

— ٩٩ —

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ .

« فلما دخلوا على يوسف » فرحل يعقوب — عليه السلام — بأهله ، وساروا حتى أتوا يوسف ، فلما دخلوا على يوسف . .

« آوى إليه أبويه » ضم إليه أبويه واعتنقهما .

والمراد بهما أبوه وأمه راشيل .

أى : أخذهما بالأحضان والعناق ، من شدة الشوق .

« وقال ادخلوا مصر » تمكنوا منها واستقروا فيها . .

أو : كلمة ترحيب .. بمعنى : مصر تحت أمركم ..

« إن شاء الله آمنين » آمنين من القحط وسائر المكاره . .

أى : إنى لأرجو الله تعالى أن تحيوا جميعا فى مصر حياة طيبة .. آمنة ..

— ١٠٠ —

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَاأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِى إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِى إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .

« ورفع أبويه » ورفع أباه وأمه عند نزولهم بمصر .

« على العرش » على كرسى عرشه . . تكرمة لها فوق مافعل باخوته من تكريم . .

« وخروا له » وخروا له جميعا .. أبواه واخوته .

« سجدا » ساجدين على الجباه ..

قالوا : كان السجود تحية الملوك عندهم ..

وقيل : كان كالركوع البالغ دون وضع الجبهة على الأرض .

إنه نظام الملوك .. وهو موجود إلى يومنا هذا فى كثير من نظم الاستقبال فى القصور الملكية فى العالم ..

« وقال » يوسف .. حين رآهم ينحنون له تعظيما .. وتطبيقا للبروتوكول وقواعده ..

« ياأبت » ياأبى .

« هذا » هذا الذى فعلتم من سجودكم لى .

« تأويل رؤياى » إذ فيها (رأيتهم لى ساجدين) .

هذا تحقق وقوع مارأيت فى المنام وأناصغير .. حين رأيت كأن أحد عشر كوكبا والشمس والقمر .. رأيتهم لى ساجدين ..

أتذكر ياأبت ذلك ؟

أتذكر أنى قصصتها عليك آنذاك ؟

هاهى تتحقق بحذافيرها .. وتقع كما رأيت ..

وهاأنتم تسجدون لى .. تماما كما رأيت ..

هاهم اخوتى الأحد عشر .. وهاهو أنت .. وهاهى أمى .. تسجدون أمامى .. كما رأيت تماما !!

« من قبل » من قبل سجودكم هذا ..

أو : من قبل هذه الحوادث .

« قد جعلها ربى حقا » قد جعلها ربى صدقا ..

قد حققها .. كلها .. ووقعت حوادثها كما رأيت تماما .. عجبا !!

إن يوسف يتعجب من قدرة الله تعالى !!

ثم تذكر يوسف — عليه السلام — نعمة ربه عليه حين استنقذه من أقبح بلاء . بلاء السجن . . فقال . .

« وقد أحسن بى » وقد أحسن الله إلىّ .

« إذ أخرجنى من السجن » الاحسان هو الإخراج من السجن بعد أن ابتلى به ، ثم وصوله للملك ، وخلوصه من الرق ، والتهمة ، ثم اشتهار أمره ، وارتفاع ذكره ، وعموم خيره . .

« وجاء بكم من البدو » وجاء بكم من البادية .

وكان منزلهم على ماقيل : بأطراف الشام ، ببادية فلسطين ، وكانوا أصحاب إبل وغنم .

« من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى » من بعد أن أفسد الشيطان وحرش بينى وبين إخوتى .

وفيه تفاد عن لومهم .

وذكره تعظيما لأمر الإحسان ، لأن النعمة بعد البلاء أحسن موقعا .

« إن ربى لطيف لما يشاء » إن ربى لطيف التدبير لما يشاء . .

إذ مامن صعب إلا وتنفذ فيه مشيئته تعالى، ويتسهل دونها .

وحاصله أن اللطيف هنا بمعنى العالم بخفايا الأمور ، المدبر لها ، والمسهل لصعابها ، ولنفوذ مشيئته سبحانه فاذا أراد شيئا سهل أسبابه ، أطلق عليه جل شأنه اللطيف ، لأن مايلطف يسهل نفوذه .

« إنه هو العليم » بوجوه المصالح .

« الحكيم » الذى يفعل كل شىء على وجه الحكمة لا غيره .

قالوا : مقدار المدة بين الرؤيا وظهور تأويلها أربعون سنة . وهو قول الأكثرين .

وقالوا : وإلى ذلك ينتهى تأويل الرؤيا .

اشعـاعات

كيف كانت احاسيسهم جميعا ..فى تلك اللحظة .. لحظة اجتماعهم جميعا .. وجها لوجه؟

هاهو يوسف ـ عليه السلام ـ الطفل المفقود ، الذى زعموا أن الذئب قد أكله .. واعتقدوا أنه هلك مع من هلك .. حاكما على مصر كلها .. يوجه سياستها ويضع اقتصادياتها .. ويهيمن على مقدراتها .. وبيده مفاتيح خزائنها ..

وهاهو يعقوب — عليه السلام — ذلك الأب الذى ذهب بصره .. من طول حزنه على يوسف .. قد التقى أخيرا بيوسف .. وقد رفعه الله درجات ودرجات ..

رفعه فى الدنيا منازل .. فى السلطة .. والملك ..

ورفعه فى الآخرة درجات .. بظهور لألاء النبوة فيه .. واشعاع انوارها من قلبه .. وتدبيره شئون البلاد ..

فـكيف كان احساس يعقوب بالنعمة ؟..

وهاهى .. راشيل ..أم يوسف .. تراه بعدأن فقدت الأمل أن تراه ..

وماظنك باحساس الأم فى مثل هذه المفاجأة ، وكيف كان سرورها ؟

وهاهم الإخوة العشرة .. يجتمعون جميعا .. وقد أحسوا أنهم كانوا مجرمين فيما فعلوا فى يوسف ..

وهاهو بنيامين .. شقيق يوسف ..ينتصر انتصارا عظيما ..ويجد أخاه الذى طالما حدثته أمه راشيل عنه وعن جماله وكماله ، وعما صنع به اخوته .

لاشك أنه كان لقاء مثيراً جداً ..

فيه أحاسيس متباينة .. متدافعة .. متحركة ..

حرك يوسف — عليه السلام — أن جعل يسرد القصة ومافيها من العبر .. وجعل يوجه الـكلام إلى أبيه توقيرا له وتعظيما :

يا أبت .. هذا تأويل رؤياى ... من قبل .. قدجعلها ربى حقا ..

: وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن ..

: وجاء بكم من البدو ..

: من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى ..

: إن ربى لطيف لما يشاء ..

وهذه الفقرة الأخيرة .. تشير إلى عظمة علم يوسف ـ عليه السلام ـ بالله تعالى ..

لطيف لما يشاء ؟

تسرى مشيئته تعالى .. فى الأشياء وتنفذ فيها .. فى سهوله تكاد تخفى على الخلق ..

فها هى الموجودات كلها تسرى مشيئة الله تعالى .. فيها .. ولاأحد يشعر أن هناك مشيئة تحرك ذلك كله !!

إن ربى لطيف ؟!

تعبير لطيف .. عالٍ .. لايصدر إلا من نبى !!

ولقد كان اللطف فى المشيئة .. سببا جعل اكثر الناس ينكرون وجود تلك المشيئة لأنها خافية عليهم !!

ثم يتلألأ إحكام النبوة ، وصدقها حين يقول : إنه هو ..

هو سبحانه وحده .. العليم .. الحكيم !!!

—١٠١—

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ .

«رب» يوسف يفيض قلبه .. من الاحساس بنعمة الله تعالى عليه .. وفضله.. فيتوجه إلى الله .. أمام أبويه .. وإخوته .. وقلبه شديد التأثر من جميل احسان الله إليه ..

ولعل لألاء الدموع .. دموع التأثر .. كانت تترقرق فى عينيه آنذاك .. ثم يقول :

رب ..

« قدآتيتنى من الملك » قدآتيتنى ملـكا عظيما .. قداعطيتنى ملك مصر وغيرها .. مما يمتدإليه نفوذ مصر .. مما جاورها من البلاد .. ومما تؤثر فيه مصر بنفوذها السياسى ..

وأى ملك كان ملك يوسف ؟

لعله كان أعظم ملك فى العالم آنذاك ؟

لقد كانت مصر على عهد الفراعنة اعظم دول الأرض ..

فـكيف إذا تولاها أعظم ماتحمل الأرض وقتئذ .. يوسف .. بن يعقوب .. بن إسحاق .. بن إبراهيم ؟

كيف إذا تولاها الـكريم ابن الـكريم ابن الـكريم ابن الـكريم ؟

كيف إذا تولاها نبى .. فاجتمعت له أسباب الملك والعزة .. ونور النبوة وهداها ؟

لاشك أن البلاد فى عهده نعمت باستقرار ورخاء وحرية وأمن وعدالة لم تنعم به دولة فى الأرض آنذاك !

« وعلمتنى من تأويل الأحاديث » المراد بتأويل الأحاديث :

إما تعليم تعبير الرؤيا .. وهو الظاهر ..

وإما تفهيم غوامض أسرار الـكتب الإلهية ، ودقائق سنن الأنبياء ..

ولقد أوتى يوسف ـ عليه السلام ـ من الأمرين شيئا عظيما ..

فهو يعلم تأويل الرؤيا .. علما من لدن عليم حكيم ..

وهو يعلم حقائق دقائق ماأنزله الله من أحاديث إلى رسله .. وماتحدث به الأنبياء من قبله إلى الناس.. مماأوحى اليهم ربهم ..

وهذا يدل على رسوخه ـ عليه السلام ـ فى العلم ـ كماقال تعالى « وما يَعْلَمُ تأويلَهُ إلاالله والرَّاسخونَ فى الْعِلْمِ .. »

ويوسف ـ عليه السلام ـ نبوة .. فى مقامها .. فـكيف كان علمه بتأويل كلام الله ، وتأويل أحاديث انبيائه ؟

لاشك أنه كان عظيما ؟

« فاطر السماوات والأرض » مبدع السماوات ومبدع الأرض ..

خالق السماوات ، وخالق الأرض ..

ووصفه تعالى به ، بعد وصفه بالربوبية ، مبالغة فى ترتيب مبادى مايعقبه من قوله ..

« أنت وليي » أنت متولى أمورى كلها .. ومتكفل بها .

أو : موالٍ لى ، وناصر .

« فى الدنيا » الذى يعطينى نعم الدنيا .

« والآخرة » والذى يعطينى نعم الآخرة .

« توفنى » اقبضنى .

« مسلما » مسلما لك إسلاما كاملا .. منقادا لأمرك انقيادا تاما .

« وألحقنى بالصالحين » من آبائى الكرام ، يعقوب ، وإسحاق ، وإبراهيم .

اشعاعات

وكانت لحظة .. أى لحظة ؟.. لحظة أنس بالله .. وبكاء قلب يوسف أمام الله تعالى .

وليس كالأنبياء إحساساً بنعمة الله تعالى عليهم ..

وليس كمثلهم تأثرا بفضله تعالى إليهم ..

وأمام أبويه وإخوته .. ينظر يوسف إلى القصة من أولها إلى آخرها . . ويعبر ذلك التاريخ الطويل لقصته وقصتهم ..

ثم يتأمل ما حوله من مظاهر الملك ، وما مكنه الله فيه من قصور الفراعنة ، وأبهة السلطان .. فتجيش نفسه بأكرم الأحاسيس التى يمكن أن تفيض من قلب بشر ..

أحاسيس عليا ... متجهة إلى الله كلها . .

ويهتف بربه تبارك وتعالى : رب قد آتيتنى من الملك ..

حلوة .. خفيفة .. لطيفة .. فيها إدراك محيط .. وبحر عميق .. من المعارف .. والعلم بالله تعالى ..

بعد أن كان عبداً مملوكا .. مباعا بدراهم حقيرة ..

أصبح ملكا مطاعا .. يستمتع بالحرية فى أقصى مستوياتها ..

ويكفى أن الله عبر عن ذلك بقوله : وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ، يتبوأ منها حيث يشاء ..

أى حقق الله له الحرية فى أعلى مستوياتها ... يفعل ماشاء ... ويتحرك كيف يشاء ..

أعطاه الله تعالى أعلى مايعطى من أسباب السلطان الظاهر ..

وفى الباطن .. علمه من تأويل الأحاديث ...

وهذا أيضا مُلك آخر ... أعرض ... وأعلى من سابقه ...

فإن ملوك الباطن ... أوسع ملكا ... من ملوك الظاهر ...

إن علماء الحقيقة .. وأهل المعرفة بالأسرار الإلهية .. أوسع ملكا .. من ملوك الحكم والسياسة ..

ذلك أن العلم واسع لا يتناهى .. بينما سلطة الملك تتناهى ..

فتح الله ليوسف ماشاء من خزائن علمه تعالى ... وأعطاه ... وآتاه ...

فكان يعلم حقائق الرؤى ...

وكان يعلم حقائق النفوس ...

وكان يعلم حقائق الوحى الإلهى ...

وكان يعلم كيف يسوس شعبه ، وكيف يقوده خير قيادة ..

فاجتمع له ملك الظاهر ... وملك الباطن ...

وأوتى علم الظاهر ... وعلم الباطن .. فكان ملكا عظيما ... ونبيا عظيما ... ورسولا عظيما ...

فـكان الشخصية العظمى ... فى عصره ... فى الأرض كلها !!!

ثم يرتفع يوسف ـ عليه السلام ـ فى نجواه .. ويرتفع .. فاطر السماوات والأرض .. فيها مقام رفيع جدا .. أنت الذى أبدع كل شىء .. أنت الذى أبدع السماوات بما فيها ومن فيها من عجائب قدرتك .. وأبدع هذه الأرض بما عليها من غرائب ..

ثم يغيب كل شىء من قلب يوسف ـ عليه السلام ـ وتشرق شمس الذات فى قلبه إشراقا عظيما ... فلا يرى إلا إياه ... فيناجيه :أنت وليي ...

أنت وحدك .. الذى تولانى من أولى إلى آخرى ...

تولانى فيما مضى ... وسيتولانى فيما هو آت ...

ولذلك كان تعبيره « فى الدنيا والآخرة» .. خالدا .. يبرق ببريق النبوة الرهيب..

كما أنك يارب خلقت السماوات والأرض.. خلقتنى شيئا ضمن هذه السماوات والأرض..

وتعهدتنى من بدايتى إلى نهايتى ...

ثم يتذلل .. ويتذلل .. فى جناب ربه تبارك وتعالى .. توفنى مسلما ...

أرجوك ... أن تميتنى مسلما نفسى إليك... لا أرى نفسى شيئا .. بل أكلها إليك .. أنت وليها ومولاها ...

وألحقنى بالصالحين ...

أرجوك أن تتفضل علىّ ... كما تفضلت علىّ دائما .. وتضمنى إلى عبادك الـكاملين فى الصلاح ! !

هذا يوسف ... عليه السلام ...

قلب ؟! .. ياله من قلب !!

- ١٠٢ -

ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ .

« ذلك » الذى قصصناه عليك من أنباء يوسف عليه السلام ..

« من أنباء الغيب » من أخبار الغيب الذى لا يحوم أحد حول خبره .

« نوحيه إليك » ننزله إليك عن طريق الوحى .

« وما كنت لديهم » وما كنت حاضرا مع إخوة يوسف — عليه السلام —

« إذ أجمعوا أمرهم » إذا اتفقوا جميعا على أن يجعلوه فى غيابة البئر .

« وهم يمكرون » وهم يمكرون بيوسف ـ عليه السلام ـ ويبغون به الغوائل .

والمعنى أن هذا النبأ غيب لم تعرفه إلا بالوحى لأنك لم تحضر إخوة يوسف ـ عليه السلام — حين عزموا على ما هموا به من أن يجعلوه فى غيابة الجب وهم يمكرون به .

ومن المعلوم الذى لا يخفى على مكذبيك أنك ما لقيت أحداً سمع ذلك ، فتعلمته منه .

وقيل : إن هذا تهكم بمن كذبه ، وذلك من حيث أنه تعالى جعل المشكوك فيه كونه ـ عليه السلام ـ حاضرا بين يدى أولاد يعقوب ـ عليه السلام ـ ما كرين ، فنفاه بقوله : (وما كنت لديهم) وإنما الذى يمكن أن يرتاب فيه المرتاب قبل التعرف هو تلقيه من أصحاب هذه القصة .. أى قد علمتم يا مكابرة أنه لم يكن مشاهداً لمن مضى من القرون الخالية وإنكاركم لما أخبر به يفضى إلى أن تكابروا بأنه قد شاهد من مضى منهم .

وقيل : المذكور مكرهم ، وما دبروه ، وهو مما أخفوه حتى لا يعلمه غيرهم ، فلا يمكن تعلمه من الغير !

اشعـــاعات

هذه قصة كاملة .. من أولها إلى آخرها ..من بدايتها إلى غايتها .. من جذورها إلى ثمرتها ..

قصة ظاهرة ... وباطنة ..

قص فيها الحوادث الظاهرة .. وقص فيها الأقوال الباطنة .. والأفكار المخبوءة فى الصدور ..

وهذا أبلغ دليل على كونها وحى يوحى ...

فان المرء بعقله المحدود .. لا يستطيع أن يتعرف على الأفكار التى كانت تدور سرا بين الناس ..

فاذا نبأنا الله بها .. كان ذلك دليلا على أنها وحى إلهى ..

« وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون » ؟!

لقد كان حديثا سريا .. يدور بين العشرة .. اقتلوا يوسف .. اطرحوه أرضا .. ألقوه فى غيابة الجب .. ماذا تقولون لأبيكم ؟ كيف الخلاص من هذا الطفل ؟

أرأيت ؟ .. شىء كان يدور بينهم .. بعيدا عن الأعين .. وعن أبيهم ..

فلو افترضنا أن محمدا .. صلى الله عليه وسلم .. استمع إلى قصة يوسف .. من السابقين، كما يزعم الذين يكذبونه ..

فمن أين له علم هذه الخفيات .. التى لا يعلمها إلا من كان حاضرا معهم .. شاهدا لأحاديثهم ؟!

— ١٠٣ —

وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ .

« وما أكثر الناس » الظاهر العموم ، أى أن الأغلبية العظمى .

« ولو حرصت » على إيمانهم ، وبالغت فى إظهار الآيات القاطعة ، الدالة على صدقك عليهم .

« بمؤمنين» لتصميمهم على الكفر ، وإصرارهم على العناد ، حسبما اقتضاه استعدادهم.

قيل : سألت قريش واليهود رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن قصة يوسف — عليه السلام — فنزلت مشروحة شرحا وافيا ، فأمل عليه الصلاة والسلام أن يكون ذلك سبب اسلامهم ، وقيل : إنهم وعدوه أن يسلموا فلما لم يفعلوا عزاه تعالى بذلك .

اشعـاعات

فيها ناموس عظيم ..

« وما أكثر الناس .. بمؤمنين » .. الاكثرية دائما من الناس .. فى كل زمان ومكان لاتؤمن ..

ولوحرصت ؟.. مهما حاولت .. واجتهدت أن تدعوهم إلى الايمان ..

لماذا ؟ لأن هناك حيلولة بينهم وبين الايمان ..

هناك ظلام فى قلوبهم .. يحول بينهم وبين ذلك الأمر ..

فلا فائدة من دعوة .. ولا أمل فى استجابتهم ..

والواقع التاريخى كله يؤيد ذلك ..

فكم من القرون مضت .. وكم من القرون سوف تأتى .. والإنسان هو الإنسان .. من حيث الغباء .. أكثرية كافرة .. وأقلية مؤمنة ..

— ١٠٤ —

وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ .

« وماتسألهم عليه » وماتطلب منهم على تبليغ القرآن والحق إليهم ..

« من أجر » من ثمن ما ..

إن الدعوة تقدم إليهم مجانا .. بلا مقابل ..

« إن هو إلا ذكر » إن هذا القرآن إلا تذكير من الله تعالى .

« للعالمين » لجميع الناس .

اشعـاعات

فيها ثلاث نواميس .. خالدة ..

الأول .. وماتسألهم عليه من أجر ..

أن الله تعالى يقدم دعوة الحق .. ويقدم وحيه .. مجانا .. ويحرم على رسله أن يأخذوا عليها أجرا قليلا أو كثيرا .. ويوجب عليهم أن يتجردوا وهم يبلغوها إلى الناس .. من المنافع الدنيوية ..

الثانى .. ان هو إلا ذكر .. هذا القرآن تذكير ..

تذكير للانسان بما يجب عليه نحو الله .. وتذكير له كى لا ينسى ..

الثالث .. للعالمين .. للجميع .. دعوة عالمية لكل الناس .. فى كل زمان ومكان ..

— ١٠٥ —

وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ .

« وكأين من آية » وكم من آية .

والمراد بالآية الدليل الدال على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته .

والمعنى : وكأى عدد شئت من الآيات الدالة على صدق ماجئت به غير هذه الآية.

« فى السماوات والأرض » كائنة فيهما من الأجرام الفلكية، ومافيها من النجوم ،وتغير أحوالها ، ومن الجبال، والبحار ، وسائر ما فى الأرض من العجائب الفائتة للحصر .

« يمرون عليها » يشاهدونها .

« وهم عنها معرضون » غير متفكرين فيها ، ولا معتبرين بها .

وقرئ : والأرضُ (بالرفع) .

والمعنى والأرض يمشون عليها .. يجيئون .. ويذهبون فى الأرض .. ويرون آثار الامم الهالكة ، ومافيها من الآيات والعبر ، ولا يتفكرون فى ذلك

اشعاعات

وكأين من آية ؟!!

فيها العجب .. هناك إذا ما لا يحصى من الآيات .. فى السماوات ..وفى الأرض.. تدل على وجود الله .. ووحدانيته .. وقهروته .. وجبروته .

فما من ذرة فى هذا الكون إلا وهى تشهد أنه لا إله إلا الله ..
تركيبها .. صناعتها .. حركتها .. ابداعها ..

وما من خلية مما يتكون منه جسم الإنسان أو غيره من الكائنات الحية إلا وهى تشهد بذلك .

أى شىء .. كل شىء .. يدل على أنه الواحد .
وكم من آية ؟!!
إنى المح فى ثنايا هذه الآية تهديدا خطيرا .. جدا .. جدا .. جدا ..

كأن الله يريد أن يقول : إذا كانت هذه الآيات التى لا تحصى فى خلق السماوات والأرض .. ومافيهما من عجائب .. لاتكفيكم لتعلموا انى الله لا إله إلا أنا ..فالويل لكم.. وانتظروا عذابى الأليم !!!

—١٠٦—

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ .

« ومايؤمن اكثرهم بالله » فى اقرارهم بوجوده تعالى وخالقيته .
« إلاوهم مشركون » به سبحانه .
أى : ما يؤمن أكثرهم إلا فى حال اشراكهم .
قيل : هم أهل مكة ، آمنوا وأشركوا ، كانوا يقولون فى تلبيتهم: لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك ، الاشريكاهو لك ، تملكه وماملك . ومن هنا كان صلى الله عليه وسلم إذا سمع احدهم يقول : لبيك لاشريك لك يقول له : قط قط ، أى يكفيك ذلك ، ولا تزد « الاشريكا » الخ .

وقيل : هم كفار العرب مطلقا أقروا بالخالق الرازق المميت وأشركوا بعبادة الأوثان والأصنام .

وقيل : انهم أهل الكتاب أقروا بالله تعالى وأشركوا به من حيث كفروا بنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم . أومن حيث عبدوا عزيرا والمسيح عليهما السلام .

وقيل : وأشركوا بالتبنى واتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابا .

وقيل : انهم المراؤون بأعمالهم ، والرياء شرك خفى .

وقيل : هم الناظرون إلى الأسباب المعتمدون عليها .

وقيل : هم الذين يطيعون الخلق بمعصية الخالق .

وقد يقال نظرا إلى مفهوم الآية إنهم من يندرج فيهم كل من أقربالله تعالى وخالقيته مثلا ، وكان مرتكبا مايعد شركا كيفما كان .. ومن أولئك عبدة القبور ، والناذرون لها ، المعتقدون للنفع والضرممن الله تعالى أعلم بحاله فيها .

اشعاعات

هذه .. من أخطر الآيات ..

انها تقرر ناموسا خطيرا جدا ..

وما يؤمن أكثرهم بالله إلاوهم مشركون !!!

هناك قال .. من قبل .. وما أكثر الناس ولوحرصت بمؤمنين ..

هذه هى التصفية الأولى .. للبشرية .. أكثر البشر كفار ..

وهناك قلة مؤمنة ..

أى أن الاكثرية من البشرية لا يعتقدون بوجود الله .. ولا بفكرة الالهية من أساسها ..

هذه هى التصفية الأولى ..

ثم تأتى التصفية الثانية ..

تصفية الأقلية المؤمنة من البشرية ..

« ومايؤمن أكثرهم بالله إلاوهم مشركون » !!!

حتى الأقلية .. التى تؤمن .. التى تعتقد بوجود الله .. حتى هذه اكثرها .. هى الأخرى مشركة !!!

مامعنى هذا ؟ معناه أن التوحيد الصافى .. نادر جدا ..

لايرتفع إليه .. الاقلة القلة ..

من أين يتسرب مرض الشرك إلى قلوب المؤمنين بالله ، المعتقدين بوجود إله ؟

من قصور تفكيرهم .. عن ادراك الحق المجرد ؟

يقول لهم الله : اعبدونى .. واتجهوا إلىّ مباشرة ..

وهم يقولون : بل نعبدك عن طريق أصنام .. أو أوهام .. أو قديسين أو نزعم لك بنات وبنين !!

وهذا كله قصور فى الفهم !!!

آية خطيرة جدا ..

ان المؤمنين أنفسهم .. فى حاجة إلى تنظيف ايمانهم .. انها تنذر بالخطر .. خطر تسرب الشرك إلى القلوب المؤمنة ..

وفى هذه الآية أسرار عميقة جدا ..

فيها أن كل مؤمن يتعرض لداء الشرك باستمرار ..

أى أن قلب المؤمن معرض للاظلام .. دائما ..

وأن القلب فى حالة الغفلة عن الله .. يكون مشركا بالله ..

وأن الشرك أصناف وألوان .. لا تحصى ..

— ١٠٧ —

أَفَأَمِنوا أن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

«أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله » أى عقوبة تغشاهم وتشملهم .
والاستفهام انــكار فيه معنى التوبيخ والتهديد .
والمراد بهذه العقوبة ، مايعم الدنيوية ، والأخروية ـ على ماقيل ـ
« أوتأتيهم الساعة بغتة » فجأة من غير سابقة علامة .
« وهم لايشعرون » باتيانها ، غير مستعدين لها .

اشعـاعات

أفأمنوا أن تأتيهم غاشية ؟!

ألوهية .. تتــكلم .. فيأتى كلامها فيه جلال الألوهية .. وجمالها .. وقهروتها .. وجبروتها !

غاشية ؟ شىء يغطى .. يغطيهم .. ويعمهم بعذاب ..

أعوذ برضاك من سخطك .. وبمعافاتك من عقوبتك .. وبك منك ..

— ١٠٨ —

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِى أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

« قل » قل لهم يامحمد ..
« هذه سبيلى » هذه السبيل التى هى الدعوة إلى الأيمان والتوحيد سبيلى .
« أدعو إلى الله » أدعو الناس إلى معرفته سبحانه ، بصفات كماله ، ونعوت جلاله .
ومن جملتها التوحيد .
« على بصيرة » أى بيان ، وحجة واضحة غير عمياء .
« أنا » أدعو نفسى إلى الله .
« ومن اتبعنى » وادعو غيرى ..

أو : أنا أدعو إلى الله على بصيرة .. ومن اتبعنى كذلك ، يدعو إلى الله على بصيرة .. لأنهم مهتدون بهديى ، متبعون لطريقى ..

« وسبحان الله » وأنزهه سبحانه وتعالى تنزيها من الشركاء .

« وما أنا من المشركين » فى وقت من الأوقات .

وقرأ عبد الله (قل هذا سبيلى) والسبيل تؤنث وقد تذكر .

اشعاعات

فيها الأصول العامة كلها ... للسبيل إلى الله ...

قل ... يا محمد ... بلغ الناس جميعا ...

عن أى شىء ؟

بلغهم : ما هو سبيلى ... ما هو الطريق إلينا ... كيف الوصول إلينا ؟

« هذه سبيلى » ؟ ؟

أيها الناس جميعا ... هذا سبيلى ... هذا هو طريقى ...

الله يتكلم . . الله يبين طريقه !!!

وسيان .. هذه سبيلى .. أى سبيل الله .. أو سبيل رسول الله .. فطريق هذا هو ذاك .. وذاك هو هذا ...

أدعو إلى الله ... الأصل العام ... فى دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ... أنها تسوق الناس إلى ربهم ... تدعوهم إليه ... تعرفهم ربهم ...

على بصيرة ... الأصل الثانى ... بالحجة .. بالدليل ... ليس الأمر كهنوتية ... وتمائم .. وإنما بالحجة . .

على بصيرة . . على نور باطنى . . نور النبوة . . على اشعاع الهى ينير السبيل . . ويكشف معالم الطريق ..

ليس الأمر مجرد حجج عقلية .. ميتة وإنما على بصيرة .. هناك نور باطنى .. هناك أنوار النبوة وراء تلك الحجج الظاهرة ..

فكأن الدعوة إلى الله .. فى حاجة إلى أمرين ..

حجة ظاهرة .. حجة عقلية ..

ونور باطن .. نور النبوة .. ونور من اهتدى بهدى النبوة ..

وكلاهما لازم .. ومطلوب .. لكل من دعا إلى الله ..

أنا .. الأصل الثالث .. أن أكون « أنا » أول من ادعوه إلى الله .. أن أطبق على نفسى ماأدعو اليه الناس أولا .. أن أكون أناصورة صادقة لما أدعوهم إليه .. أن أكون إماما لهم .. قدوة لهم ..

ومن اتبعنى .. الأصل الرابع .. وأطالب من اتبعنى .. والتف حولى .. أن يكون كذلك صورة صحيحة .. وتمثيلا صحيحا للدعوة ..

أن يكونوا نماذج صادقة للدعوة الالهية ..

وقد كان صلى الله عليه وسلم .. الأسوة الحسنة ..

وكان أصحابه .. الذين اتبعوه .. النماذج المتحركة لتلك الدعوة .. دعوة الله ..

وسبحان الله .. الأصل الخامس ..

وأنزه الله تنزيها .. وأطالب الذين اتبعونى أن ينزهوا الله تنزيها تاما ..

أى أن من شروط نجاح الدعوة الالهية أن يكون الداعى إليها ، وأتباعه .. فى القمة من معرفة الله تعالى..معرفة تؤهلهم لتنزيهه تعالى عن أى وهم من تلك الأوهام ، التى تنتشر فى عقول الناس..

وماأنا من المشركين .. الأصل السادس .. استحالة أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم فى وقت من الأوقات مشركا ..

وهذا مقامه وحده .. إنه نور دائم فى أعلى علالى النور .. فهناك إستحالة الاظلام .. هناك صحو دائم .. هناك يقظة دائمة لقلبه ..

ومن الحتم أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك .. لأنه امام المؤمنين جميعا إلى ربهم .. ورائدُ كل من سلك السبيل إلى الله ..

وكذلك كل من دعا إلى الله .. ينبغى أن يكون فى أعلى مقام يستطاع .. من التوحيد..

وكلما كان نصيبه من التوحيد أعلى .. كلما كان علمه بالله ارفع .. وكانت طاقته أقدر على جذب الناس إلى تلك المستويات العلى . .

وهكذا .. هناك ست دعائم للسبيل ..

الدعوة إلى الله .. التوجيه إلى الله . .

على بصيرة .. بالحجة العقلية ، والنور الباطن . .

أنا .. أدعو نفسى أولا إلى الله .. وإلى تطبيق أوامر الله ..

ومن اتبعنى .. ثم ادعو غيرى .. وادعوا من اتبعنى إلى تنفيذ أوامر الله . .

وأن أكون أنا .. ومن اتبعنى .. داعين إلى الله دائما .. فى إلحاح .. وزحف عام .. لايجاد وعى إيمانى جماهيرى عام .. لإيجاد دعوة عامة فى الناس ..

وسبحان الله .. وننزه الله تنزيها عظيما .. نكون دعاة تنزيه ..

وما أنا من المشركين .. وأن نكون فى القمة من التوحيد . .

والأشعاع الذى يؤخذ من الآية . . أن سبيل الله مفتوح دائما للجميع إذا قامت تلك الأصول الست فى أى نفس من النفوس . .

هذه سبيلى ؟

كأن الله يعلن : هذه سبيلى أيها الناس جميعا .. وهذه سبيل رسولى .

١ — تعرفوا علىّ .. (ادعو إلى الله) اعرفوا أن لكم ربا . . بدلا من أن تولوا ظهوركم .. وتعرضوا عنى .. اقبلوا علىّ . .

٢ — على بصيرة . . وان كنتم تريدون دليلا على وجودى . . فهناك فى كل شىء حولكم دليل على وجودى . .

ولكنكم لاتبصرون ذلك .. ما لم يكن لكم نور فى قلوبكم .. يكشف لكم تلك الحقائق .

٣ — أنا .. ابدأ بنفسك أولا .

٤ — ومن اتبعنى .. ثم ادع غيرك بعد ذلك .. يكن سهلا أن يستجيب لك.. مادام يراك صادقا فيما تدعو إليه .

٥ — وسبحان الله .. كونوا منزهين لله .. اعلى مستويات التنزيه حتى تستطيعوا أن تشدوا أنتباه غيركم .. وترفعوا من مستوى تنزيههم .

٦ — وما أنا من المشركين .. كونوا فى أعلى مقامات التوحيد .. حتى تستطيعوا أن تقودوا غيركم إلينا .. وتسيروا أمامهم .. فى طريقنا .

وفيها .. وفيها .. وفيها ..

- ١٠٩ -

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

« وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا » رد لقولهم :(لو شاء ربك لأنزل ملائكة) ونفى له

وقيل : المراد نفى استنباء النساء .

«نوحى إليهم» كما أوحينا إليك .

وقرئ : يُوحَى .

« من أهل القرى » من سكان المدن .

لأن أهلها أعلم وأحلم من أهل البادية .

قيل : ما نعلم أن الله تعالى أرسل رسولا قط إلا من أهل القرى .

أى : من سكان المدن .

وعن الحسن : لم يبعث رسول من أهل البادية ، ولامن النساء ، ولا من الجن .

« أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » أفلم ينتشروا فى هذه الأرض .. فى بلادها ..فينظروا كيف كاننهاية الذين مضوا من قبلهم، من المكذبين بالرسل والآيات ، من قوم نوح ، وقوم لوط ، وقوم صالح . . وسائر من عذبه الله تعالى فيحذروا تكذيبك ؟

أو : كيف كان نهاية الذين من قبلهم عموما من المشغوفين بالدنيا ، المتهالكين عليها فيقلعوا ، ويكفوا عن حبها ؟

والاستفهام للتقريع والتوبيخ .

« ولدار الآخرة » ولدار الحياة الآخرة .

« خير للذين اتقوا » الشرك والمعاصى .

« أفلاتعقلون » فتستعملوا عقولكم ، لتعرفوا خيرية دار الآخرة ، فتتوسلوا إليها بالاتقاء؟

أو : قل لهم مخاطبا : أفلا تعقلون ؟

فالخطاب على ظاهره .

اشعاعات

فيها نواميس عديدة ..

الناموس الأول .. وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا . . حصر الرسالة فى الرجال .. وضرورة كون الرسول بشرامن الجنس الآدمى .. ليستطيع أن يتفاعل مع جنسه .. ويتفاهم معهم .. ويفهموا عنه .. وفيها نفى ألوهية عيسى — عليه السلام — واشارة إلى ذلك ..لأنه رجل ككل الرسل .. وليس بإله ..

الناموس الثانى .. نوحى إليهم .. ضرورة الايحاء إلى الرسل .. وأن الايحاء إليهم

شرط فى كونهم رسلا .. لأن مجرد كونهم رجال لايفيد شيئا .. فما أكثر الرجال.. ولكن إيحاء الله إليهم .. هو الذى يرفعهم إلى مقام الرسالة ..

كما أن كلمة « رجالا » .. مع تنكيرها .. يشير إلى كون أولئك الرسل .. فى أعلى مقامات الرجولة .. وكمالها ..

أى أن شخصيات الرسل .. هى أكمل وأجمل .. شخصيات بشرية تتصور ..

الناموس الثالث .. من أهل القرى .. من سكان المدن .. لأن عقلية ساكن المدينة تدور فى دائرة أوسع .. وتفكيره يكون أشمل وأكمل .. من البعيد عن العمران .. كما أن الرجل الإجتماعى اقدر على تفهم رغبات الجماهير .. والتعرف إليهم .. والتفاعل معها ..

الناموس الرابع .. كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ .. كيف كان نهاية جميع من مضوا قبلنا ؟

لاشىء .. لا وجود لهم الآن !! كلهم ذهبوا .. وفنوا !!!

فكيف لانحذر .. أوكيف نغتر ببقائنا المؤقت .. ولانهتز لفنائنا القادم حتما ؟!

الناموس الخامس .. ولدار الآخرة خير للذين اتقوا .. حتمية خيرية الحياة فى الدار الآخرة بالنسبة لمن اتقى فى الحياة الدنيا ..

الناموس السادس .. أفلا تعقلون ؟ إن من يكذب بتلك النواميس .. أو لايتفكر فيها .. أو لايفيد منها .. كان مجنونا .. أو ناقص العقل ..

— ١١٠ —

حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ .

« حتى إذا استيأس الرسل » أى لايغرنهم تماديهم فيما هم فيه من الدعة والرخاء ..فإن من قبلهم قد أمهلوا حتى يئس الرسل من النصر عليهم فى الدنيا، أو من إيمانهم، لانهما كهم فى الكفر ، وتماديهم فى الطغيان من غير وازع ..

« وظنوا أنهم قد كذبوا » ..

أخرج البخارى، والنسائى ، وغيرهما من طريق عروة ، أنه سأل عائشة ـ رضى الله تعالى عنها — عن هذه الآية .

قال : قلت : أكذبوا أم كذبوا ؟

« فقالت عائشة : بل كُذِّبوا (يعنى بالتشديد)

« قلت : والله لقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم ، فما هو بالظن

« قالت : أجل لعمرى ، لقد استيقنوا بذلك

« فقلت : لعله (وظنوا انهم قد كُذِبوا) مخففة ؟

« قالت : معاذ الله تعالى ، لم تكن الرسل لتظن ذلك بربها .

« قلت : فما هذه الآية ؟

«قالت : هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم ، وطال عليهم البلاء ، واستأخر عنهم النصر ، حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن اتباعهم قد كذبوهم ، جاء نصر الله تعالى ، عند ذلك . »

« جاءهم نصرنا » فجأة .. وقع النصر ..

«فنجى من نشاء» انجاءه وهم الرسل والمؤمنون بهم .

أى : فننجى من نشاء ...

وإنما لم يعينوا للاشارة إلى أنهم الذين يستأهلون أن يشاء نجاتهم ، ولا يشاركهم فيه غيرهم .

« ولا يرد بأسنا » عذابنا .

« عن القوم المجرمين » إذا نزل بهم .

ولا يخفى ما فى الجملة من التهديد والوعيد .

« يروى أن مسلم بن يسار سأل سعيدبن جبير فقال : ياأباعبد الله آية قد بلغت منى كل مبلغ (حتى إذا ا تيأس الرسل وظنوا أنهم قدكذبوا) فان الموت أن تظن الرسل أنهم قدكذبوا (مثقلة) أوتظن أنهم قد كذبوا (مخففة) !

« فقال سعيد : حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يستجيبوا لهم ، وظن قومهم أن الرسل كذبتهم ، جاءهم نصرنا ، فقام مسلم اليه فاعتنقه ،

«وقال : فرج الله تعالى عنك كما فرجت عنى .»

اشعاعات

هذه الآية ... قطعة من النور ... تتلألأ ... فى اشعاع عجيب !!!

فهى ناموس إلهى خالد ...

حتى إذا استيأس الرسل .. حتى إذا يئس الرسل يأسا تاما .. من أن يؤمن بهم أحد إلا من قد آمن ... « وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن » ..

هناك يأس تام من الرسل ... أن ينضم إلى دعوتهم أحد جديد ...

لقد بلغت الدعوة أقصى ما يمكن أن تبلغه من قلوب الناس ... ولا يرجى بعد ذلك من جديد ...

هذه مرحلة ..

المرحلة الثانية ... وظنوا أنهم قد كذبوا ... وظن الرسل .. أنهم قد كذبوا نهائيا من الناس ... فلم يعد من الناس من أحد إلا ويكذبهم فيما يزعمون من الدعوة إلى إله واحد لاشريك له . .

هناك إذا ... يأس تام من الرسل أن ينضم إليهم من أحد ...

وهناك اعتقاد من الرسل .. أن الذين كفروا بهم .. قد جمدوا نهائيا على تكذيبهم.. وتكذيب ما يدعون إليه . .

فى ذلك الظلام الشديد ...

فى هذا اليأس من الخلق ... والاعتقاد أن الناس جميعا يصرون على تكذيبهم ...
هناك إصرار على الكفر ... وإصرار على التكذيب ...
هنالك .. جاءهم نصرنا .. بغتة .. فجأة .. يقع النصر .. للرسل .. بعد ذلك كله ..
هذا هو الناموس الإلهى ... الأول فى الآية ..
أما الناموس الثانى ... ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ...
هناك استحالة أن يمنع عذاب الله عن القوم الذين استمروا على الإجرام ...
ولا يرد ؟ ... هناك تجلى بالقهر ... بالبأس ... بالقوة ... على كل من استمر على الاجرام ..
لماذا ؟ لأن الإنسان الذى اعتاد الإجرام .. واستمر فيه . . ولا يريد أن يرجع عنه ..
إنسان مظلم تماما ... بعيد جدا عن الله ...
مثل هذا ... لابد أن يذوق بأس الله ... ويعانى آلام عذابه ... لعله يفيق ...
وهذا الناموس من أخطر النواميس السارية فى الناس وهم لايشعرون !!
ما من مجرم ... مستمر فى إجرامه ... إلا وبأس الله له بالمرصاد ... لابد من قهره ... وأخذه ...
أما فى الباطن ... فبأس الله متسلط عليهم دائما ... ويبدو ذلك مما هم فيه من ضيق نفسى وعذاب روحى ...
وأما فى الظاهر ... فيمهلون قليلا ... ثم يؤخذون بشتى القوارع بعد ذلك ...
وأما فى الآخره ... فلهم عذاب عظيم ...

— ١١١ —

لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

« لقد كان فى قصصهم عبرة » لقد كان فى قصص الأنبياء شيء يعتبر به .

« لأولى الألباب » لأهل العقول السليمة ، الخالصة من الشوائب .

« ما كان » أى القرآن المدلول عليه بما سبق دلالة واضحة ...

« حديثا يفترى » أى يختلق

« ولكن تصديق الذى بين يديه » من الكتب السماوية ..

« وتفصيل » وتبيين

« كل شيء » مما يحتاج إليه فى الدين .

إذ ما من أمر دينى إلا وهو يستند إلى القرآن بالذات أو بوسط

ومن الناس من حمل « كل » على الاستغراق من غير تخصيص ، ذاهبا إلى أن فى القرآن تبيين كل شيء من أمور الدين والدنيا ، وغير ذلك ، مما شاء الله تعالى ، ولكن مراتب التبيين متفاوتة ، حسب تفاوت ذوى العلم !

« وهدى » من الضلالة

« ورحمة » ينال بها خير الدارين

« لقوم يؤمنون » يصدقون تصديقا معتدا به

وخصوا بالذكر لأنهم المنتفعون بذلك ...

* * *

تلك هى قصة يوسف — عليه السلام — كما أنزلت فى كتاب الله تعالى الكريم . . لم أشأ أن أقدم عليها أقاويل البشر . . تأدبا بقوله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا ، لا تُقَدِّمُوا بَينَ يَدَى اللهِ ، ورسولِهِ ، إنَّ اللهَ سميعٌ عليمٌ . يا أيها الذين آمنوا . لا ترفَعوا أصواتَكُمْ فوقَ صَوْتِ النبيِّ ، ولا تجْهَروا لهُ بالقوْلِ كجَهْرِ بعضِكُمْ لبعضٍ ، أن تَحبَطَ أعمالُكُمْ وأنتم لا تَشعُرونَ . »

ونعوذ بالله .. من حبوط العمل .. ونعوذ بالله أن نرفع أصواتنا فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم . .

فمادام هناك وحي من السماء، نزل يقص علينا القصة .. فلنتقهقر إلى وراء .. ولنسمع .. ولننصت جميعا إلى وحي السماء ..

ذلكم بأنه يوسف .. نبي كريم من أنبياء الله تعالى ..

فاذا تكلم الله تعالى عن يوسف .. وجب علينا جميعا .. أن نخشع .. ونسمع .. وننصت ..

فإذا مافرغنا من كلام الله .. فى شأن يوسف ..

فلنسمع إلى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فى شأنه عليه السلام ..

« عن أبى هريرة — رضى الله عنه —

« قيل : يارسول اللهِ ، مَنْ أكرَمُ الناسِ ؟

« قال : أتقاهُمْ

« فقالوا : ليس عن هذا نسألُكَ

« قال : فيوسُفُ ، نبيُّ اللهِ ، ابنُ نبيِّ اللهِ ، ابنِ نبيِّ اللهِ ، ابنِ خليلِ اللهِ

« قالوا : ليسَ عن هذا نسألكَ

« قال : فعَنْ معادِنِ العربِ تسألونَ ؟

« خيارهم فى الجاهليةِ ، خيارُهُمْ فى الإسلامِ .

« إذا فقِهوا » [البخارى]

ومعنى الكرم هنا الشرف ..

فكأنهم يسألون : من أشرف الناس ؟

وكأن الجواب كان : أشرف الناس .. يوسف !!

فانظر تلك العظمة اليوسفية .. وانظر مستواها الأعلى ! !

و « عن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ — رضى الله عنهما — « عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« الكريمُ ، ابنُ الكريمِ ، ابنِ الكريمِ ، ابن الكريمِ .

« يوسُفُ ، بنُ يعقوبَ ، بنِ إسحاقَ ، بنِ إبراهيمَ ». [البخاري]

كأنه يراد أن يقال : الشريف ، ابن الشريف ، ابن الشريف ، ابن الشريف ! !

و« عن أبى هريرةَ — رضى الله عنه — قال :

« قيل : يارسولَ اللهِ ، مَنْ أكرَمُ الناسِ ؟

« قال : أتقاهُمْ

« قالوا : ليسَ عن هذا نسألكَ

« قال : فيوسف ، نبي اللهِ . »

[البخارى]

فما أشرف يوسف ...

ثم ما أشرف يوسف !!!

شخصية يوسف

باسمك اللهم ..

أدخل إلى تلك الساحه المقدسة .. ساحه نبيك الكريم .. يوسف .. عليه السلام . ذلك الجوهر .. المكنون .. الذى لا يعلم حقيقة مكنوناته إلا أنت .. سبحانك .

فمن هو هذا الـ « يوسف » .. ذلك الذى تلألأ .. فى هذه الحياةالدنيا .. ثم انتقل إليك، ليتلألأ فى الحياة الآخرة ؟!

إنه زهرة .. من أزاهير .. شجرة النور .. الشجرة الابراهيمية ..

فمن هو هذا الـ « إبراهيم » .. الذى كان يوسف .. احدى زهراته .. زهرات النور ؟!

ابراهيم ؟!!

ابراهيم الذى وفى ؟!

ابراهيم الذى جاء ربه .. بقلب سليم ..

ابراهيم الذى أسلم لله رب العالمين ..

ابراهيم الذى هذا بعض شأنه .. جعل الله فى ذريته النبوة والكتاب ..

فانتقل الميراث .. منه إلى إسحاق .. ومنه إلى يعقوب .. ومنه إلى يوسف ..

فهو حقا .. الكريم .. ابن الكريم .. ابن الكريم .. ابن الكريم !!

فما هو هذا الميراث .. الذى ورث يوسف عن ابراهيم ؟!

ماذا ورث يوسف عن ابراهيم ؟!

ما هى هذه الموجات .. موجات النور .. التى تموجت من قلب إبراهيم .. إلى قلب يوسف ؟

أعلاها .. وأغلاها .. وأرقاها .. ماسجله يوسف بنفسه ..

قال يوسف : « واتَّبَعْتُ ملّةَ آبائى ، إبراهيمَ، وإسحاقَ ، ويعقوبَ ، ما كان لنا أن نشركَ باللهِ ،من شيءٍ .. »

ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ؟!

هذا هو الميراث ... فى أعلى مستويات الميراث ... فى أعلى مقامات النور ...

إنه مِلّة إبراهيم ...

فما هى ملة ابراهيم ؟!

هى الحنيفية ... « واتَّبِعَ مِلّةَ إبراهيمَ حنيفاً... »

فما هى هذه الحنيفية ؟!

هى الاتجاه ... اتجاه القلب مباشرة إلى الله ...

هى إسقاط الأغيار ... والتوجه المباشر إليه سبحانه ...

ولقد كان ابراهيم إمام هذه الحنيفية ... فكان بذلك إمام الناس جميعاً ...

« إنى جاعِلُك للناس إماماً »...

قال ابراهيم « وَمِن ذرِّيَّتى » ؟!

قال له سبحانه : « لا يَنالُ عَهْدِى الظالِمينَ » !!

هذا هو الميراث ... فى أعلا مقاماته ...

وهذا ما سجله يوسف ... بنفسه ...

لقد تموجت موجات النور ... من قلب إبراهيم ... إلى قلب اسحاق ... إلى قلب يعقوب ... إلى قلب يوسف ...

ذلك هو الميراث ... وإن الأنبياء لا يورثون درهما ولا دينارا ...

أصول كريمة ؟!

كانت سارة ... زوج ابراهيم ... أجمل نساء زمانها ...

ومن سارة هذه ... كان اسحاق ... ومن اسحاق كان يعقوب ... ومن يعقوب كان يوسف ...

فانتقل جمال سارة الباهر ... إلى حفيدها يوسف ...

هذا من جهة . . ومن جهة أخرى . .

كانت راشيل . . زوجة يعقوب . . الثانية . . أجمل نساء أهلها . . كانت مثالا فذا من الجمال . . وراشيل هذه . . هى أم يوسف . .

فورث يوسف عن أمه جمالها .. كما ورث عن جدته سارة جمالها . .

فاجتمع ليوسف جمال إلى جمال .. وورث يوسف تلك الصفات الممتازة . .

فولد يوسف طفلا . . ولكن الله جعل فيه من المكنونات عجبا !!

مكنون فى قلبه .. أنوار ابراهيم خليل الله .. وأنوار إسحاق نبي الله . . وأنوار يعقوب نبي الله ..

وماجت تلك الأنوار باذن ربها موجا .. حتى استقرت فى قلب يوسف . .

ومكنون فى تركيب صورته الظاهرة .. الجمال الابراهيمى .. والجمال الاسحاقى .. والجمال اليعقوبى . .

ولقد كان إبراهيم جميلا .. وكان إسحاق جميلا .. وكان يعقوب جميلا ..

فورث يوسف عن آبائه . . تلك السلسلة من الجمال الموروث . .

هذا من جهة أصول الرجال ..

وأما من جهة أصول النساء .. فقد ورث عن سارة صفات جمالها . . ثم ورث عن أمه راشيل صفات جمالها . .

فيوسف بلغ الغاية من كرم الأصول ..

كريم فى الباطن .. أمواج النور . . مكنونة فى قلبه ..

كريم الظاهر .. صفات الجمال .. ظاهرة فى صورته ..

فجاءت شخصيته آية من آيات الله تعالى فى خلقه . .

ثم شاء الله تعالى .. أن يولد ذلك الطفل ..

ليظهر فى عالم الشهادة .. حقائق معدنه .. وخفايا .. مكنوناته . .

فلننظر التجربة .. تجربة يوسف ..

يعقوب . فى انتظار .. الميراث ؟!

آنس يعقوب .. نبي الله .. من أبنائه ظلاما . .

ولم يرفيهم أجمعين . . مايؤهلهم .. لأن يختار الله منهم . . مَن يورثه . . ميراث النبوة .. ويؤتيه أنوارها ..

والأنبياء أوتوا نورا .. يكشف لهم حقائق النفوس . .

وهؤلاء أبناؤه عشرا .. وماترى فيهم أهلا للنبوة أحدا ! !

وكان يعقوب لذلك قلقا .. وطال قلقه ..

ترى هل تنتقل النبوة من أبنائه .. إلى فرع آخر من آل إسحاق ؟!

وطال انتظاره .. وكبرت سنه . . ولا شيء . .

وكانت راشيل عقيما .. لا تلد . . بينما أختها تلد تباعا . .

وأخيرا ... وبعد سنين طويلة ... وبعد أن ولد ليعقوب من غيرها عشرا ...

أذن الله لراشيل أن تلد .. فولدت يوسف ..

فى آخر زمانها . .

فكان ميلاده لأمه سرورا .. ولأبيه الشيخ قرة عين ..

لماذا أحب يعقوب .. يوسف بالذات ؟!

الذين أوتوا الجهل يقولون : ولماذا خص يعقوب . . يوسف . . بحبه . . فأحدث فى اخوته فتنة ؟!

لقد أحب يعقوب ... يوسف ... لأنه اكتشف فى ثناياه ... نور الميراث ... ميراث النبوة ...

اكتشفه بما آتاه الله من نور فى قلبه .. يكشف له ماشاء من القلوب . .

لقد رأى يعقوب بعيني قلبه .. أن ذلك الطفل المسمى يوسف .. قد أوتى مالم يؤت الله أحدا من ابنائه من قبله ..

أوتى أنوار إبراهيم وإسحاق ويعقوب .. ورآها تتلألأ فى قلبه ..

وقلب النبي .. يرى مالا يراه الناس ..

ثم رأى فى صورته .. ذلك الجمال الرفيع الذى قسمه الله ليوسف .. واورثه إياه من سارة وراشيل ..

فكان الطفل آية ..

آية فى الباطن ..

وآية فى الظاهر ..

فاستمكن حب يوسف .. من فؤاد يعقوب ..

لالأنه أصغر إخوته كما يظن الجاهلون ..

كلا .. وإنما لأنه نبي .. لأنه الوارث الذى طال انتظار يعقوب لمجيئه ..

فلما جاءه .. سر سرورا .. وأحبه حب النبي للنبي ..

والأنبياء هم الذين يفقهون الأنبياء ..

وذلك هو الحب اللائق بمقام نبى الله يعقوب ..

وذلك هو المستوى الرفيع .. الذى غاب عن الأكثرين فقالوا : ولم أحب يعقوب يوسف من دون بنيه ؟!!

يعقوب .. يعلن إلى الطفل نبوته ؟!

وبرهان ذلك .. أن يوسف .. وقد كان ابن ثلاث سنين ..

حين قص على أبيه رؤياه : « ياأَبتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا والشَّمْسَ والقمَرَ رَأَيْتُهمْ لِى سَاجِدِينَ »

قصها يوسف .. فى براءة الطفولة .. لايدرى عنها شيئا

فماذا كان جواب النبي يعقوب ؟!

قال : « يابنَىَّ ، لا تَقصصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إخوَتِكَ ، فيَكيدُوا لَكَ كَيْدًا ، إنَّ

الشيْطانَ للانسانِ عدُوٌّ مبينٌ . وكذلك يَجْتَبيكَ ربكَ ، ويُعَلِّمُكَ مِن تأْويلِ الأحاديثِ ، ويُتِمُّ نعمَتَهُ عليكَ ، وعلى آلِ يعقوبَ ، كما أتمها على أبوَيْكَ مِن قبل إبراهيمَ وإسحاق ، إنَّ ربَّكَ عليمٌ حكيمٌ »

أرأيت ؟!! هذا الحوار بين الطفل .. وأبيه .. يؤكد أن يعقوب قد اكتشف النبوة في يوسف .. وأنه كان يحبه لتلك النبوة ..

طفل يقص على أبيه رؤيا ..

فتشعشعت أنوار النبوة من قلب يعقوب ..

ورأى فورا .. ما لا يراه الناس .

ورأى أن الرؤيا حق .. وأن يوسف سيكون له شأن يذكر .. شأن عظيم .. وأن شهود طفل في الثالثة .. مثل تلك الرؤيا المحكمة .. لا يتأتى إلا من نبي ..

ولذلك سارع يعقوب إلى ابنه الصغير يحذره ..

« يابنيَّ ، لاتَقصصْ رؤْياكَ على إخوتِكَ ، فيكيدوا لك كيْدًا » ..

إنه يخاف عليه .. لأنه حامل الميراث .. ميراث النبوة ..

ثم يعلن يعقوب .. إلى الطفل : « وكذلك يجتبيك ربُك » ..

يختارك ربك لنفسه .. يجعلك نبيا ..

والنبوة تجربة يعيشها يعقوب .. فهو يعلم بداياتها ونهاياتها .. وكيف تقع .. وكيف تكون .. وماهي احاسيسها وانفعالاتها .. وعطاءاتها ؟!

إن اراءة يوسف .. وهو في الثالثة .. مثل هذه الرؤيا المحكمة ..

لاتكون إلا لنبي .

إلا أن النبوة تشعشعت كشوفاتها .. كشوفات الغيب .. من يعقوب ...

حين قال : « ويعلمكَ مِن تاويلِ الأحاديثِ »

من أين ليعقوب هذا الذي سوف يكون ليوسف مستقبلا ؟!

من عطاء النبوة .. « وإنَّه لَذو عِلمٍ لِمَا عَلَّمناه » ..

ليس هذا وحده هو المعجز ... وإنما من المعجزات قوله : « ويتمُّ نعمتهُ عليْكَ » .

ويتم لك يا أيها الصغير ... النبوة ... لأن النبوة هى النعمة الكبرى ..

ومعجزة أخرى ليعقوب : « وعلى آلِ يعقوب » .

ويتم نعمته عليَّ وعلى أمك راشيل .. بأن اختارك نبيا ..

وفى ذلك اطمئنان كبير ليعقوب .. أن النبوة لم تنقل عن بيته .. وإنما أذن الله أن تمكث فى أحد أبنائه ..

وأخرى : « كما أتمها على أبوَيْكَ مِن قبلُ إبراهيمَ وإسحاقَ .. »

كما أتم نعمته على جدك اسحاق .. وجعله نبيا ..

وكما أتمها على جدك إبراهيم وجعله شيخ الأنبياء !!!

نور .. مَن نور .. من نور .. من نور .. وذلك شىء يسير .. من نبى الله يعقوب !!

ثم يقرر يعقوب .. أن الأمر يسرى ويجرى على مقتضى الاستعداد ..

« إنَّ ربَّكَ عليمٌ حكيمٌ » .. يعلم استعدادك يا يوسف للنبوة .. حكيم يضع الأمور مواضعها !!

هذا هو البرهان الأقوى .. من كتاب الله تعالى ..

ما كان يعقوب ليحب يوسف .. لمجرد أنه أصغر أبنائه ..

كلا .. فللأنبياء مقامات عُلَى .. فوق تلك الأحاسيس ...

إنما أحبه لأنه نبى ...

لأنه طال انتظاره .. ليرث عنه نور النبوة ..

وها قد انشق وجوده ... فكان حبه حب نبى ... ينتظر النبى ... الذى يتسلم منه الشعلة .. شعلة النور الإلهى المقدس !!!

بدء الغربة !؟

الغربة عن الخلق ... ضريبة ... حتمية ... على كل نبى ...

ذلك أن الله تعالى يريدهم لنفسه ... فمن الحتم أن يفصلهم عن خلقه ...

ولقد كانت الغربة .. فى حياة ابراهيم .. متقررة من أول يوم ...

اغترب ابراهيم عن أبيه ... حين عالنه ببطلان أصنامه ...

فطرده أبوه .. فاغترب ابراهيم عن والده !!!

ثم اغترب عن بنى وطنه جميعا .. حين أعلنهم ببطلان أصنامهم .. فأججوا له ناراً !!

وهاجر ابراهيم عن الخلق أجمعين .. ليس منهم ولا هم منه ..

وأعلنها الخليل : « إنِّى ذاهِبٌ إلى رَبِّى ... »

وانفصل ابراهيم انفصالا تاما عن الخلق ..

ليذهب إلى ربه ... مسقطا للأغيار اسقاطا تاما ..

وتلك هى الحنيفية فى أعلى علاليها !!

فكيف كانت الغربة فى حياة يوسف ؟!

أعجب وأغرب .. وأشق وأدق ؟!

اجتمع جميع إخوته عليه !!

عشر من الأشناب .. يكيدون لطفل .. طيب .. كريم .. لا يملك من أمره شيئا !!

وألقوه فى الجبّ .. ليهلك ..

فالتقطه .. ربه .. ليحيا !!

واغترب يوسف عن إخوته .. وعن أمه راشيل .. وعن أبيه .. الذى يفقه حقيقته .. وعن وطنه ..

وعن حريته .. حين باعوه .. بضاعة .. فصار مملوكا !

وفقد يوسف كل شىء ..

فقد أباه .. فقد أمه .. فقد إخوته .. فقد وطنه .. فقد حريته .. فقد كل شىء ..

ليتولاه هو ..

هو سبحانه وحده !!

فانظر كيف يخرجهم ربهم .. وكيف يصنعهم .. وكيف يقطع الأسباب .. ليكون هو وحده .. وليهم ومولاهم ؟

سبحانك .. إنك أنت العليم الحكيم !!

الفتنة الكبرى ؟!

وآتاه جمال الصورة ..

فكان أجمل أهل زمانه ...

جمالا .. دفع سيدات الطبقة الراقية .. أن يراودنه عن نفسه ..

ليس فقط امرأة العزيز ... هى التى راودته .. عن نفسه ...

وإنما كلهن .. يراودنه ..

تريد كل منهن.. أن تستمتع بسهرة .. أو رشفة .. أو لحظات مع هذا الـ «يوسف» .

فتنة .. تموج موج البحر .. من حوله !!

انهن لا يرين فيه .. إلا شابا جميلا .. مثيرا ..

شابا تترامى الجميلات .. بين يديه .. وتتمنى قبلات شفتيه !!

ونادى يوسف : « ربِّ ، السجنُ أحبُّ إلىَّ ، مما يدعوننى إليه ، وإلا تصرفْ عنى كيدَهُنَّ ، أصبُ إليهنَّ ، وأكن مِن الجاهلينَ »!!

إنه يشق الظلمات ... التى بعضها فوق بعض .. شقا ..

يشقها .. ويستغيث .. بربه : رَبِّ !

فماذا كان من ربه ؟!

« فاستجابَ لهُ ربهُ .. »

فورا .. وقعت الاستجابة ..

إنه صراخ قلب منير .. يستصرخ ربه .. لينقذه ..

فكان حتما ... أن يستجيب ... سبحانه ...

كيف كانت الاستجابة ؟ .

« فصَرَف عنه كيدهنّ » . .

فتحقق لديهن .. أن يوسف لاينال .. فيأسن منه ..

ثم حال بينه وبين الخلق أجمعين .. فكان السجن ..

وتلك غربة أخرى .. يغتربها يوسف ...

ويوسف فى اجتيازه .. لتلك الفتنة .. فتنة الجنس ..

وهو يملك أدواتها .. ودواعيها .. وأسبابها . .

يعتبر أعظم إنسان فى عصره .. بل فى العصور جميعا ..

إلا أن يكون نبى أعظم منه صبرا ... وأفضل مقاما ...

جمال .. شباب .. نعيم .. ظروف مفتحة الأبواب ..

إناث كلهن نعومة .. واغراء .. وجمال .. ودلال ..

يراودنه بكل مافى استطاعة الأناث .. أن يراودن به الرجال ...

وهو يستعصم .. ويعلو .. ويأبى ...

وكلما استعصم .. وأبى ... ازداد نورا ... وازداد عند ربه علوا عظيما ...

وليست عظمة يوسف .. أنه استعصم من امرأة العزيز وحدها ..

وإنما أنه استعصم من النساء .. اللاتى عرضن أنفسهن عليه عرضا ..

وانظر إلى شاب ... تترامى عليه ... نساء القصور ... وبنات النعيم ... وهو يفر منهن فرارا ...

فكيف كانت تلك الشخصية .. وكيف كان سموها .. وكيف كان لألاؤها ؟ ..

آلام الاتهام الباطل !!

وأدخلوه السجن .. متهما فى امرأة العزيز .. وغيرها من النساء .

يوسف .. النور الكريم .. يتهم بالباطل . .

بل ويعاقب بالسجن .. على أنه مجرم أثيم !!

وذلك شيء ليس يسيرا ..

وكلما كانت النفس طاهرة .. كلما كان احساسها بآلام الإتهام الباطل أكبر ..

فلو أنك أدخلت مجرما إلى السجن .. لم يتألم .. مثل ما يتألم .. رجل برىء .. أدخل السجن باطلا وزورا !!

فكيف .. ويوسف .. وراء البراءة .. ووراء الظنون ؟!

وتجرع يوسف .. آلامها .. وعلم أن الحياة تحوى أعاجيب !!

وأن الإجرام قد يصل بالمجرمين .. حدا.. يتهمون فيه البرآء.. ويسجنون فيه الطاهرين !!

ونجح يوسف فى ذلك الامتحان .. وازدادت شخصيته صفاء على صفاء ..

وكان أعجب ماسجله من نجاح أنه حول السجن الرهيب المظلم . إلى جنة .. تمتلىء بأنوار التوحيد !!

يوسف .. يتلألأ ..

فى مقام الشكر .. وهو فى بلاء السجن ؟!!

عجائب هؤلاء الأنبياء .. لا تفنى !!

فقد يطالب المؤمن أن يكون على البلاء صابرا .. ويحمد ذلك منه ..

ولكن الأنبياء دائما فوق ذلك المقام .

إنهم يتلألأون فى مقامات الشكر.. وهم فى آلام البلايا والرزايا !!

ومقام الشكر أعلى .. من مقام الصبر ..

لأن كل شاكر صابر . .

وليس كل صابر شاكرا ..

والذين يصعدون إلى مقامات الشكر . . يجوزون . . فى صعودهم .. مقامات الصبر جميعا ..

هنالك .. فى أعلى مقامات الشكر .. تجد الأنبياء . . يتسابقون !!

فى السجن .. رأى الفَتَيان .. مارأيا ..

وقصًا عليه ماقصًا ..

فأخبر يوسف عنهما تعبير مارأيا ..

ودخل بهما إلى الدعوة !

فكان مما قال لهما : « واتَّبَعْتُ مِلةَ آباءى ، إبراهيمَ ، وإسحاقَ ، ويعقوبَ ، ما كانَ لنا أن نشركَ باللهِ مِن شىء ، ذلكَ مِن فضلِ اللهِ علينا ، وعلى الناس ، ولكنَّ أكثر الناسِ لا يَشكرونَ . » !!

انظر .. السجن يتحول إلى جنة .. جنة توحيد !!

كأن يوسف فى أتم الحرية .. يتنقل من الأرض حيث يشاء .. داعيا إلى ربه !!

إلا أن هذا شىء .. ومانحن بسبيله شىء آخر ..

أين مقام الشكر الذى يتلألأ فيه يوسف وهو فى السجن ؟!

مكنون فى قوله : « ذلكَ مِن فضلِ اللهِ علَينا ، وعلى الناسِ ، ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَشكرونَ » !!

إن يوسف يرى .. ويوقن .. أن الله أعطاه وآباءه .. أعظم نعمة .. وتفضل عليه أعظم الفضل ..

أن آتاه وآباءه .. الحنيفية .. الاتجاه المباشر .. إلى إله واحد .. لاشريك له ..

إنه يسبح فى أعلى مقامات الشكر .. « ذلك مِن فضلِ اللهِ علينا » .

ثم يقرر أن أعظم الفضل ، أن يؤتى الله أحد الناس تلك النعمة « وعلى الناسِ »..

ثم يطلق ناموسا خالدا « ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَشكرونَ » .

وهكذا .. ترى يوسف .. شاكرا .. فى أعلى مقامات الشكر ..

وهو فى السجن .. فى ظلمات السجون !!

وتلك مقاماتهم العُلى ..

يكونون فى البلايا .. شاكرين ..

بينما أقسى طاقات عباد الله الصالحين أن يكونوا فى البلايا صابرين !!

رأى الأسباب .. فكان العقاب ؟!

وأخرى .. من شئونهم .. أعلى .. وأعلى .. وأرق ..

حين أبصرت عين قلبه .. ظلام الأسباب .. ابصارا خاطفا ..

فعاقبه من أجلها عقابا عظيما !!

وكذلك يربيهم .. ويؤدبهم .. ليستخلصهم لنفسه ..

فما الأقصوصة ؟ !!

« وقال لِلّذى ظنّ أنه ناجٍ منهما ، اذكرنى عند ربِّكَ ، فأنساه الشيطان ، ذكرَ ربِّهِ ، فلَبِثَ فى السِّجْنِ بِضْعَ سِنينَ . » !!

هل هذه تستوجب حكما ، بالبقاء فى السجن سبع سنين ؟!!

نعم .. نعم .. لو كانت من غير يوسف .. ماعوقب عليها ..

ولكن .. منه هو .. المؤهل لمقام النبوة ..

المستصفى لله وحده ..

منه هو تستوجب المؤاخذة ! !

رجل سجين .. رأى سجينا زميلا له فى السجن .. يفرج عنه .. ويعود إلى القصر الملكى ..

فتحرك لسانه بكلمة طبيعية « اذكرنى عند ربك » ..

اشرح للملك أنى مظلوم .. لينظر فى أمرى !!

شىء طبيعى .. مطلوب شرعا .. للدفاع عن النفس !!

ذلك مستوى العموم .. ولكن مستواهم .. أولئك الأنبياء .. وراء ذلك ..

مستواهم .. لا أسباب ..

إسلام كلى .. له وحده .. سبحانه ..

فإن أسلموا له .. تولاهم هو .. وكفاهم ما أهمهم !!

ولقد أخذ يوسف فى الأسباب .. وطلب من الناجى أن يذكره عند الملك ..

فهل حدث ؟!!

كلا.. نسى المفرج عنه .. ولم يذكر مطلب يوسف .. إلا بعد بضع سنين !

فانظر .. كم يتحملون .. ويحملون .. أولئك الأنبياء ..

يحملون ما إن وضع على الجبال لذابت !!

مكنونات .. الشخصية .. تتشعشع ؟!

سألوه تعبير رؤيا الملك .. فعبرها لهم .. كأنها لاشىء .. بالنسبة إلى بحار علمه !!

وانتقل منها .. يضع لهم مخططا اقتصاديا معجزا ..

لو اتبعوه .. لنجت البلاد كلها من شر مجاعة عامة تهلكهم !

« قال : تَزرعونَ سَبْعَ سنينَ دَأَباً ، فما حصدتُّم ، فذروه فى سنبلِهِ ، إلا قليلا مما تأكلونَ » .

انه ينتقل من التعبير .. إلى السنين المستقبلة ..

ويبين لهم مايكون فيها .. وماعليهم أن يفعلوه ..

عليهم أن يتركوا المحاصيل فى سنابلها ..

لتقاوم التسوس والفساد سنين طويلة ..

مخطط عجيب .. يموج على لسانه موجا .. من بحار النبوة .. التى فى قلبه !!

إنهم ينابيع لأنوار .. فوق علم العلماء ..

إن الله يكشف لهم من غيبه .. ويمنحهم من عطائه منحا كبرى !!

أمواج العبقرية اليوسفية تتموج ؟!

ثم قال يوسف : « ثم يأتى من بعد ذلك ، سُبْعٌ شدادٌ ، يأكلنَ ما قدَّمْتمْ لهن ، إلا قليلا مما تحصنونَ »

هل يستطاع ذلك إلا لنبي ؟!

اللهم لا .. ولكن يوسف يتموج بالغيوب .. كأنها شاشة سينما .. تجرى أمام عينيه!!

حدد سنين المجاعة بسبع .. وحدد أنهن سوف يستهلكن كل ما ادخرته البلاد من المحاصيل ..

وحدد أنه سوف لا يبقى من شيء « إلا قليلا مما تحصنون» مما تخفون ليكون بذورا للمحصول الجديد ! !

تخطيط عملي .. وأسلوب سوف يكون.. وتحديد للسنين . . وللكميات الباقية !!

وهذا هو بحر النبوة .. حين يموج بالعلوم موجا ..

فلا يخفى على الأنبياء من شيء مما يخفى على العباد !!

وإنما ذكرنا ذلك الجانب من شخصية يوسف .. ليعلم الذين لا يعلمون ..

الذين لا يؤمنون بالنبوات.. أن الأمر حق..

ولكنهم يجهلون ..

يجهلون أن وراء ظلام عقولهم .. نورا .. يؤتيه الله من شاء من عباده ..

وأن بحار أنوار النبوات .. لا تنفد .. لأنها تستمد من نور الله الذى لا ينفد !!

ثم انظر إلى عبقرية يوسف .. تموج موجا .

فيقول : « ثم يأتى من بعد ذلكَ عامٌ ، فيه يغاث الناس ، وفيه يعصرون » !!

هذا من أعجب العجب !!

حدده بالعام الخامس عشر !!

سبع سمان .. وسبع عجاف .. ثم عام كله خير وامطار وفيضان من النيل ..

« يغاث الناس » فيه ينزل الغيث .. فيفيض نهر النيل بفيضان عال .. يعوض الناس الجدب الطويل !!

وتزدهر المحاصيل .. إلى درجة تفيض معها الثمار ..

« وفيه يعصرون » يعصرون الفواكه ، كالعنب ، والزيتون ، والسمسم وغيرها ..
وفيه تكثر الفواكه والخضر المحفوظة ، وتفيض عن الحاجة !!
إن يوسف يقرأ من لوح الغيب .. إنها النبوة ..
ياأيها الذين يجهلون ماهى النبوة ويكذبون !!

يُدعى إلى الإفراج فيأبى ؟!!

تالله .. وبالله .. ووالله .. لو أن هؤلاء الذين ينكرون النبوات .. علموا قطرة من بحار أنوارهم .. لجاءوهم .. خشعاً .. ركّعا .. يتذللون !!
ولكنهم يجهلون !!
يجهلون أقدارهم .. فذهبوا يكذبون !!
أصدر الملك أمرا .. بالافراج عنه فورا .. « وقال الملكُ ائتونى به .. »
أمر ملكى بالافراج عن يوسف فورا ..
فهل استجاب يوسف .. واهتبلها فرصة .. للخروج فورا .. من السجن !!
كلا .. وإنما قال للرسول : « ارْجِعْ إلى رَبِّكَ ، فاسأَله مابال النسوةِ اللاتى قطعنَ أيديَهنّ .. » ؟!!
معدن عجيب !!
ليس المهم عنده أن يخرج .. وإنما المهم أن تظهر براءته .. للجميع !!
ولو أن أحدا مكانه .. لهرع .. واستبق الباب .. إلى الحرية ..
وسجلها له .. سيد الأنبياء .. محمد .. صلى الله عليه وسلم .. حين قال :
« وَلَوْ لبِثْت فى السجن طول مالبث يوسف لأَجبْت الداعِىَ . » [البخارى]
وحين يشهد محمد .. صلى الله عليه وسلم .. ليوسف .. بالعظمة .. فى هذا المقام .. فإنما هى الشهادة !!
لأن محمدا .. صلى الله عليه وسلم .. أعلى الأنبياء مقاما .. وأكبرهم نورا ..

ومايتبئك مثل خبير !!

شخصية عجيبة .. هذا الذى اسمه يوسف !!

فى أعلى ... علاليها .. ويتهم نفسه ؟!!

وأعجب العجب .. وبعد أن شهدت امرأة العزيز أنها هى التى راودته عن نفسه ..

وبعد أن شهد النسوة .. أنهن ما علمن عليه من سوء ...

وبعد أن علم الملك .. وعلم الجميع .. أنه برىء من التهمة .. براءة تامة ..

بعد أن تحقق له كل ذلك ..

بعد أن شهد الجميع ببراءته .. فكان فى أعلى علالى النزاهة ...

وأعلى قمم البراءة ..

من ذلك المقام .. تنزل يوسف من عليائه ..

وذهب يتهم نفسه .. تواضعا فى جناب الله تعالى ..

فأعلن : « وماأُبَرِّىءُ نَفْسى، إنَّ النفسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوء ، إلا مارَحِم رَبى.. »!!

وتلك هى نفوسهم .. وذلك أنموذج من نماذج نفوس الأنبياء ..

لوأن أحدا مكانه .. لذهب يتيه .. على الناس .. أن علموا براءته .. ونزاهته .. وتحققوا حقيقة معدنه ..

ولكنه على الفور شع اشعاع الأنبياء ..

فأعلن أن نفسه غير بريئة ..

انكسارا لله تعالى .. وتواضعا فى جنابه ..

وتسجيلا للفضل له سبحانه وحده ..

فنفسه أعلى النفوس .. ولكنه يرد الفضل إلى ربه ..

« إلا مارحم ربى» ... إلاما تفضل الله تعالى عليه من النفوس .. فزكاها . . وآتاها نورا .. يحجزها عن السوء !!

كما فعل به سبحانه .. فأراه برهانه .. فجعل له نورا .. حجزه عن السوء ..
جانب خطير جدا من شخصية يوسف ..
جانب نفسانى .. يجدر بعلماء النفس .. أن يتدارسوه .. ويفقهوه .. ويغرفوا من بحاره الممتدة ..
لو كانوا فاعلين !!!

الملك .. يكتشف .. شخصية يوسف ؟!

لقد كان الملك .. ذلك الفرعون .. على عهد يوسف ...
كان رجلا عظيما ... أن اكتشف ذلك ... الجوهر الثمين .. جوهر يوسف ...
وصاح الملك من فوره آمرا : « .. ائتونى بهِ ، أستخلِصهُ لِنَفْسى .. »
وجاء يوسف عزيزا .. كريما .. بريئا .. عظيما .. تطمح إليه الأبصار ..
وكذلكم أولئكم العظماء .. الأنبياء !!
حركاتهم عظمة .. وسكناتهم عظمة .. وأحوالهم عظمة !!
« فَلَمَّا كَلَّمَهُ .. » ؟!
فلما كلم يوسف الملك .. وكلمه الملك ..
كان حديثا طويلا .. اكتشف اثناءه الملك .. شخصية يوسف ..
ولحديث الأنبياء رنين .. يترقرق من مقاماتهم العُلى ..
فيتسلسل إلى القلوب كما تسرى ذرات النور .. فى خلايا الكائنات ..
لقد آنس الملك .. منه .. نورا .. فى صورة بشر .. وبشرا فى صورة نور !!
فرعب هنالك شيطان الفرعون .. وأشرقت حقيقة يوسف .. فى قلب الملك ! !
فكانت لحظة اشراق .. اكتشف فيها الملك .. يوسف ..
فصاح به لفوره : « ..إنك ، اليومَ ، لدَيْنا ، مَكينٌ ، أمينٌ » .
اليوم ؟!! اللحظة .. من هذه اللحظة .. من الآن ..

مكين ؟!! سوف تمكن لك من الحكم يايوسف .. فأنت رجل فوق الرجال ..
أمين ؟!! .. أمين على أمانة الحكم .. بلغت أمانتك حدا ... وراء الأمانات !!
فهل اكتشف الملك .. شخصية يوسف .. كلها ؟!!
كلا .. ما اكتشف منه إلا خلالا معدودة .. النزاهة .. الأمانة .. الشرف ..
ولكن بحار أنوار يوسف .. مازالت مكنونة .. أعين الملك فى غطاء عن عجائبها !!
لقد اكتشف الملك منه ذرة .. فلما انفجرت تشعشعت طاقاتها .. فبهرت الملك .. وأخذت عليه عقله !!

فكيف إذا كشف الغطاء .. عن شخصية يوسف .. بمكنوناتها ..
إذاً مااستطاع الملك أن يقوم لها .. ومااستطاع لها إبصارا !!
وتلك رحمة من ربك .. يكشف للناس .. من انوار الأنبياء بقدر مايحتملون .. لابمقدار ما يُـكِنّون !!
لقد بهرت انوار تلك الذرة من مكنونات قلبه .. الملك .. فألقى إليه بملك مصر .. طوعا ..
كما بهرت محاسن صورته .. امرأة العزيز .. فألقت بنفسها إليه طوعا ..
وكما بهرت تلك المحاسن الظاهرة .. نسوة العاصمة .. فالقين بأنفسهن بين يديه .. مستسلمات !!
فيالشخصية يوسف .. كم فيها من عجائب !!

على خزائن الأرض ؟!

ونادى يوسف : « .. اجْعَلْنى على خزائن الأرض ، إنِّى حفيظٌ عليمٌ . »
الشخصية هنا .. تستعلن وجودها ..
لقد كان حديثا .. بين الأثنين .. بين الملك ويوسف ..
واعلن الملك استعداده أن يرفع يوسف إلى أعلى المناصب ..

فطلب يوسف من الملك ، أن يلقى إليه بمقدرات البلاد كلها ..
وهذا هو معنى « خزائن الأرض » ..
فليس المعنى أن يكون وزيرا للخزانة ، أو التموين ..
كلا .. وإنما كل الخزائن .. كل مقدرات البلاد .. كل امكانيات البلاد ..
ليخطط يوسف تخطيطا اقتصاديا عاما شاملا .. لسياسة البلاد ..
يريد يوسف أن يكون الرجل الأول .. صاحب السلطة المطلقة .. لينفذ سياسته التى يراها خيرا للجميع ..
وقد كان .. وصدر المرسوم الملكى .. يوسف بن يعقوب .. رئيسا للوزراء ..
وبقى الملك مجرد رمز .. يملك ولا يحكم !!
وكان تمكينا أى تمكين ..
«وكذلك مَكّنا ليوسفَ ، فى الأرضِ ، يَتبوَّأُ منها حيث يشاء ، نُصِيب برحمتِنا من نشاء ، ولا نضِيع أجر المحسنينَ . »
فانظر .. من سجين .. متهم .. لا حول له ولا قوة ..
إلى الرجل الأول فى المملكة .. صاحب السلطة العليا فى جميع البلاد !!
من رجل يعيش فى زنزانة ... أشبار فى أشبار معدودة ... لا يستطيع الحركة إلا بإذن ..
إلى مطلق الحرية .. مطلق الأمر ..
« يتبوأ منها حيث يشاء »!!

يوسف .. فى تجربة الحكم ؟!

وتمت النعمة .. ورفع الله يوسف النبى .. فصار يوسف الملك ..
واجتمع للشخصية اليوسفية .. كمال النبوة .. وجلال السلطة ..
وتلألأ منه .. جمال النبوة .. وجلال الملك ..

فكان النبي الملك .. والملك النبي ..

وتلك أخطر مرحلة من مراحل تلك الشخصية . .

لأن يوسف النبي .. قد وضع فى التجربة .. تجربة الحكم ..

فاذا ماتقهقرنا إلى وراء . . لنستطلع ماجعله الله تعالى . . من نواميس . . لاعداد يوسف .. اعدادا عجيبا .. لذلك الدور .. دور الحكم والملك والرياسة العليا ..

نرى آيات وآيات . . كما قال سبحانه : « لقد كانَ فى يوسفَ وإخوَتهِ آياتٌ للسائلينَ » ..

« والآيات المشار إليها هنا .. هى النواميس الإلهية .. التى تسرى فى خفاء ..

« إنَّ رَبِّى لطيفٌ لِّما يَشَاء ..»

والمراد باللطف هنا .. سريان النواميس فى الكائنات .. وهم لايشعرون . .

إنك إذا نظرت إلى شجرة نامية ... تنتشر فى أغصانها الأشواك ... والأوراق الخضراء ... قلت: ماذا يراد من تلك الشجرة الشائكة ؟

فاذا ماانبثقت من أشواكها .. وردة حمراء .. أو بيضاء . . أوصفراء . . ذات جمال وازدهار ورائحة زكية . .

أدركت أن المراد هو الزهرة . . هو الثمرة الجميلة . . وليس المراد تلك الأشواك الشائكة من الأعواد ..

كذلك النواميس الإلهية .. فى الكائنات .. وفى البشر بصفة خاصة . .

إذا ماأراد الله تعالى أن يعد إنسانا ممتازا .. لأداء دور ممتاز فى التاريخ ..

أنبته نباتا حسنا .. ثم ابتلاه بأنواع من الاختبارات .. الشاقة ... الثقيلة ..

فإذا ماا اجتازها بنجاح .. كان أهلا لحمل الرسالة التى اختاره الله تعالى لأدائها . .

وتجد ذلك الناموس . . ساريا . . جاريا . . فى شخصية يوسف . . من البداية . . إلى النهاية ..

عند الاختيار .. ترك الله أبناء يعقوب .. الأحد عشر جميعا .. واختار يوسف من بينهم ..

لماذا ؟! لأن الطفل يوسف .. كان ممتازا .. والامداد على قدر الاستعداد ..

أو : « الله أعلم حيث يَجعل رسالَتَه » !!

فلما تم اختيار الكائن .. اصطفاء الطفل .. الممتاز ..

أو لما تم اجتباء الطفل .. « وكذلك يَجتَبِيكَ ربُّكَ » ..

بدأت النواميس الإلهية .. عملها على الفور ..

وبدأ ادخاله تجارب الاختبار .. تجربة إثر تجربة ..

فإذا مانجح فى تجربة .. أهله ذلك النجاح ، إلى دخول امتحان تجربة أشق من سابقتها .. وهكذا ..

تماما كمايؤدى الطالب امتحان القبول بنجاح ..فيؤهله ذلك لدخول المرحلة الإعدادية..

فإذا ماأدى امتحان الاعدادية بنجاح ..أهله ذلك لدخول المرحلة الثانوية ..

فإذا ماأداها بنجاح أهله ذلك لدخول الجامعة ..

فإذا ماأدى امتحان الجامعة بنجاح أهله ذلك لدخول الدراسات العليا ..

فإذا ماأداها بامتياز أهله ذلك ليحصل على الدكتوراة .. أوالأستاذية ..

هنالك يستحق أن يكون أستاذا .. أن يكون إماما لغيره !!

نفس الناموس .. يجعله الله تعالى ساريا .. جاريا .. فى الأنبياء .. وفى الأولياء .. وفى الأصفياء ..

يدخلهم امتحانا إثر امتحان .. فإذا نجح الفرد منهم فى أداء الامتحان .. أدخله مرحلة أرقى .. فاذا نجح فى أدائها .. رفعه إلى مرحلة أعلى .. وهكذا ..

حتى يصبح النبى .. أو الولىّ .. أو الصفىّ ... أهلا لأن يكون أستاذا لغيره ... أن يكون للناس إماما ..

ونجد ذلك مكنونا فى قوله سبحانه : « وإذ ابتلى إبراهيمَ رَبُّه بكلماتٍ ، فأتمهُنّ ، قال : إنى جاعِلُكَ للناس إماماً .. »

إنى جاعلك للناس أستاذا .. إنى مانحك شهادة الأستاذية .. لتقود الناس إلى ربهم..

ومعنى « أتمهن » أى نجح نجاحا تاما .. وفاز فى كل مرحلة فوزا عظيما ..

أهلته لأن يدخل المرحلة الأرقى . . وهكذا ..

نعود ونقول : فلما تم اختيار الطفل .. أدخل فورا إلى التجارب ..

فى سن الثالثة .. أدخل تجربة عنيفة جدا ..

ائتمر به رجال كبارهم إخوته .. وألقوه فى الجب !!

ونجح يوسف فى التجربة .. وكان علامة نجاحه الباهر .. أن نودى « لتنبئَنَّهم بأمرِهم هذا وهم لا يشعرُونَ » .

ثم أدخل تجربة أشق .. تجربة أرق ..

بيع بدارهم معدودة .. وتعرض للمهانة ..

فنجح فى تلك التجربة .. وكان علامة نجاحه أن مكن الله له من قلب العزيز .. وقلب امرأة العزيز ..

« وكذلك مَكَّنا ليوسفَ »..

فلما بلغ أقصى قوة الشباب .. والنضج .. والجمال ..

أدخل تجربة من أعنف التجارب ..

وشنت سيدته .. امرأة العزيز عليه .. غرامياتها .. ومراوداتها ..

وهو يستعصم ويعرض ... وكلما أعرض عنها ... ازدادت إقبالا عليه ... وحبا له ... وهياما بجماله ..

ونجح يوسف فى التجربة ..

فأدخل تجربة أشق ... فأحيط بعدد عظيم من الجميلات ... بنسوة العاصمة ... بنساء الصالونات ...

وبعد أن كان يمتحن بامرأة واحدة .. هى امرأة العزيز وحدها ...

هاهو يمتحن بجميع جميلات العاصمة ..

فتنة تموج عليه كموج البحار ..

ونجح يوسف فى ذلك الاختبار كذلك ..

فلما نجح .. أدخله اختبارا أشق .. وأثقل .. أدخله السجن ..

متهما بتهمة باطلة كريهة .. ولفقوا له قضية باطلة أنه أرادالاعتداء على امرأة العزيز .. وشرع فى اغتصاب عدد من الجميلات الحسناوات ! !

ونجح يوسف نجاحا باهرا فى تلك التجربة ..

فلما جاز تلك المراحل كلها .. وسجل فى امتحانها امتيازا فوق امتياز ..

منحه الله لقب الأستاذية .. إنى جاعلك للناس إماما ...أى « وكذلك نجزى المحسنين»

واستحق يوسف عن جدارة ... وامتياز ... « وكذلك مكنا ليوسفَ ، فى الأرضِ يتبوأُ منها ، حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجرَ المحسنينَ . »

أى .. وسلكنا بيوسف المسالك .. التى تؤهله .. لأن يكون ملكا عظيما .. وحاكما عادلا .. ورئيسا رحيما ...

فلما اكتمل .. ونجح .. آتيناه أجره .. آتيناه الملك !!!

فليس الأمر .. مجرد عطاء حيثما اتفق ...

كلا .. وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ..

إنما هو العدل فى العطاء .. والامداد على قدر الاستعداد ...

ولقد دخلت الشخصية اليوسفية ، اختبارات إثر اختبارات ...

فنجحت .. وارتفعت .. فآتاها الله جزاء إحسانها .. « ولا نضيع أجر المحسنين » !!

وتلك الاختبارات تعود على شخصية يوسف .. بفائدتين ..

فائدة لشخصه .. تزيد شخصيته كمالا وعلوا ..

وفائدة للناس ... حتى إذا ما حكم .. أحس بمتاعبهم وآلامهم .. وعمل على تخفيفها وإزالتها .. فكان رحمة للناس جميعاً ..

أذاقه مرارة الآلام .. ليرحم الناس اذا حكم ؟!

أذاقه مرارة الظلم ... حين ضمه إخوته ...

ومرارة الحرمان حين حرموه من أبيه ...

ومرارة الغربة حين بيع فى مصر

ومرارة الرق حين صار مملوكا للعزيز ...

ومرارة الاتهام الباطل حين اتهموه فى امرأة العزيز ، ونسوة المدينة ...

ومرارة التعذيب بالباطل ، حين أدخلوه السجن ..

ومرارة السجون .. ومر به على تعذيبها وآلامها ..

ومرارة الإهمال ... حين ألقى فى ظلمات السجون .. لايدرى به من احد ..

حتى إذا مارفعه .. إلى مقام السيادة والملك ...

أحس آلام هؤلاء جميعاً .. وسعى سعيا حثيثا فى إزالة آلامهم ..

وتلك هى التربية الإلهية لهؤلاء العظماء الحكماء الأنبياء ...

النبى .. فى الملك ؟!

أكثر الناس لايلتفتون ... إلى خطورة تجربة يوسف ...

ويمرون على تلك المرحلة مرا خفيفا ...

بينما هى أخطر مراحل شخصية يوسف ..

وإنما تتأتى خطورتها .. من أنها تجربة فذة فى تاريخ البشرية ..

ولقد آثرنا تسميتها بالملك .. دون رياسة الوزراء .. لأن يوسف كان رئيساً للوزراء .. يملك جميع السلطات .. وكان الملك مجرد رمز للعرش ...

فكان هو فى الحقيقة الملك المطاع الآمر الناهى ...

وآثرنا ذلك المذهب .. لأنه مكنون فى قول يوسف « رب قد آتيتنى من الملك .. »

وقوله سبحانه: «فقد آتينا آل إبراهيمَ الكتابَ والحكمةَ ، وآتيناهم ملكا عظيما»

وكان ملك يوسف .. مما آتى الله تعالى آل إبراهيم من الملك العظيم .

وجاءت تجربة يوسف.. النبي الملك.. فذة.. لا يعدلها إلا تجربة داوود وسليمان.. من بعد.

فقد كان داوود نبيا ملكا ..

وكان سليمان نبيا ملكا ..

والخطورة فى تجربة يوسف.. أنها برهان على امكانية تطبيق المثاليات فى واقع المجتمعات.

فمن الناس من يظن أن سمو الأنبياء إنما هو من باب المثال .. وأن تطبيق مايدعون إليه من باب المحال !!

وينظرون إليهم على أنهم نماذج مثالية .. يقترب منها .. ولا يستطاع تطبيقها !!

فجاء يوسف النبي .. ورفع إلى مقام النبي الملك ..

ليكون آية للناس .. على أنه إذا وجد الإنسان المؤمن .. قام الحكم الصالح .

وإذا صلح قلب الحاكم ، صلح حكم الناس ..

ولقد كان يوسف قلبا .. منيرا ..

قلب نبي . ابن نبي ، ابن نبي ، ابن نبي ..

فهو فى الذروة من النور ، وفى القمة من السمو .. وفى أعلى درجات القرب من رب العالمين .

فلما أوتى الملك .. تلألأت منه عجائب النبوة ..

ومكنته السلطات التى بيده من إنفاذ أمر الله تعالى فى الناس وفى البلاد ..

وما ظنك بنبي عظيم .. أوتى نور النبوة ..

وقد صار ملكا .. يحكم .. كيف يكون ؟!

لقد استقبل يوسف .. النبي الملك .. فسادًا عريضا .. فى البلاد المصرية ..

استقبل طبقة حاكمة .. فاسدة .. سلوكا .. وأخلاقا .. ودينا ..

فاسدة في أنفسها .. وفي بيوتاتها ..ويكفيك دليلا على فساد نسائهم.. أنهن كن يراودن يوسف عن نفسه .. انحلال عام تام في كل شيء . .

دولة منحلة .. كانت تعاني الانهيارات في كل شيء ..

كان مجتمعا منحرفا .. مظلما ..

العقائد فاسدة : « ... إني تَرَكْتُ مِلةَ قَوْمٍ ، لايؤمنونَ باللهِ ، وهم بالآخرةِ ، هم كافرونَ . »

هذا هو تصوير يوسف .. الصادق الأمين لعقائد المجتمع المصري آنذاك ..

قوم .. شعب .. لايؤمن بالله .. وشعب يكفر بالآخرة !!

ظلمات بعضها فوق بعض . .

عقائد فرعونية فاسدة .. من أوهام الفراعنة ، وأصنامها ، وعباداتهم الباطلة . .

ومجتمع ظالم .. ويكفي دليلا على ذلك أن اشتركت الطبقة الحاكمة في تلفيق التهمة المنكرة ليوسف ..

« ثم بَدَا لَهم مِن بَعْدِ مَارَأَوا الآياتِ لَيَسْجننّه حَتى حِينٍ »!!

هكذا .. بمجرد أن بدا لهم ذلك .. قرروا أن يسجن يوسف ..

وإلى متى ؟! حتى حين ؟!

مانهاية ذلك الحين ؟ !

يرجع إلى مزاجهم الشخصي .. لا تحديد لذلك السجن ..

شخص برىء يسجن بدون تحديد !!

إجرام .. واستهتار .. وإهدار لحريات الناس .. وكراماتهم .. وحقوقهم كآدميين بلامبالاة .. كأن لم يحدث شيء ! !

وحين يبلغ الحكم إلى هذا المدى من الاستهتار بالآدميين . . فهو أسوأ أنواع الحكم..

ثم هو مجتمع في انهيار تام .. خلقيا . .

نساء مستهترات عابثات .. باحثات عن المتعة والسهرات !!

ويكفيك دليلا على ذلك ما كان من الاعيب امرأة العزيز مع فتاها .. والاعيب هاتيك النسوة مع يوسف !!

ووزراء فاسدون .. كأنهم الحجارة المرصوصة .. لايقيمون عدلا .. ولايحقون حقا ..

ويكفى أن الملقب بالعزيز .. كان وزيرا للداخلية .. ورأى ما رأى من امرأته .. فكان كل ماصدر عن المذكور « يوسف أعْرِض عن هَذَا » ..

يوسف .. اكتم هذا ..

هذا هو كل ما كان من وزير الداخلية آنذاك !!

ومجتمع يعج بالفساد الجنسي عجّا ..

يصور ذلك قولهن : « وقالَ نِسوَةٌ فى المدينةِ ، امرأة العزيزِ ، تراوِدُ فتاها ، عن نَفسهِ ، قَدْ شَغَفَها حبا .. »

هذا هو مايشغل بال المذكورات !!

أقاصيص الحب .. وكان حزنهن الأكبر .. أن امرأة الوزير .. ظفرت بهذا الجميل .. من دونهن !!

وياليتهن كن مكانها .. لعرفن كيف يستهوينه بجمالهن !!

فلما وجدن الفرصة اليه .. بدا ذلك منهن واضحا .. وأخذن فى مراودته !!

ويصور لك ذلك الاستهتار الجنسي .. والانحلال الخلقى ..

حين نسمع امرأة .. كامرأة العزيز .. تعلن فى حفلة عامة .. على جميع الحاضرات ... والحاضرين من السادة والكبراء ..

تعلن : « ولقَدْ راوَدْتُه عن نَفسهِ ، فاستَعْصَم ، ولئن لمْ يفعَل ما آمره ، ليَسجَنَنّ وليكونًا من الصاغِرينَ » . !!

امرأة وزير .. وزير الداخلية .. تعلن فى حفلة عامة ..

« ولقد راودته عن نفسه » ..

تعترف بذلك اعترافا .. على الملأ .. فى حفلة ساهرة عامة .. فى العاصمة .. فيها كبار رجال الدولة .. ونساء الطبقة الراقية كلها . .

وأوقح من ذلك .. وأدل على استهتار نساء ذلك المجتمع وانحلالهن . .

أن تقف وتعلن وتهدد : « ولئن لم يَفعل . ما آمره ، ليسجنن »!!

ولئن لم يفعل ؟!!

كأنها تعلن : ولئن لم يأتنى يوسف .. ويمتعنى كما أشاء : . ليسجنن ..

لآمرن زوجى ..وزير الداخلية .. فيدخله السجن بجرة قلم !!

مجتمع منحل .. فاسد . .

ومظالم هنا وهناك ..

كان ذلك هو المجتمع المصرى .. الذى أصدر الملك أمره .. أن يكون يوسف رئيسا لوزرائه !!

مهمة ثقيلة جدا ..

وماذا يفعل نبى الله يوسف .. ليزحزح ذلك الفساد العريض . . السارى فى كل خلية من خلايا البلاد ؟ !

فلا عقيدة .. ولا أخلاق .. ولاعدالة اجتماعية .. ولا نظم ثابتة مستقرة ..

وهذا يفسر لك لماذا حرص الملك أشد الحرص على إسناد رياسة الوزارة إلى يوسف..

انه يريد رجلا .. انه كان يبحث عن رجل أمين . .

فوجد ضالته فى يوسف .. فألقاها إليه . . ليحمل عنه تلك الأعباء الثقال ..

وليس أشق فى الوجود .. من حكم مجتمع قد انتشر فيه الفساد !!

يوسف .. فى مقام القيادة ؟!

ألقى الملك بأعباء القيادة والسلطة إلى الرجل المكين الأمين ..

وتلقاها .. الرجل .. الحفيظ العليم ..

ونهض بها على أعلى مايتصور من النهوض بأمانة الحكم .. ونزاهة السياسة ..
ووضع يوسف فى التجربة .. أوسع تجربة ..
ودخل امتحان السياسة .. أعلى سياسة .. فهو الرجل الأول فىالبلاد المصرية ..
والرجل الأول فى منطقة الشرق الأوسط .. لما كان لمصر من سيادة وقيادة واشعاع فيما جاورها .. كما هودورها التاريخى دائما ..

فإذا تأملنا قوله تعالى : « ولما بلغَ أشدّه ، آتيناه حكْماً ، وعِلْماً ، وكذلك نجزى المحسنين » ..

أدركنا أن يوسف أوتى الحكم شابا قويا ..
وقد ثبت تاريخيا أنه كان فى سن الثلاثين ..
« جاء فى الكتاب المقدس :
« وكان يوسف ابن ثلاثين سنة لما وقف قدّام فرعون ملك مصر . فخرج يوسف من لدن فرعون واجتاز فى كل أرض مصر . »
« آتيناه حُكما » .. آتيناه سلطة عظيمة .. جعلناه رجل مصر الأول ..
« وعِلما » عبقرية السياسة .. وعبقرية العلم بعموميات السياسة .. وخفيات الأمور ..
فيوسف إذاً كان عبقريا .. أعلى أنواع العباقرة ..
تجد ذلك مكنونا فى قوله تعالى : « عِلما » .. علما عظيما ، وراء علوم البشر ..
آفاق عليا من النور .. والعلوم اللدنية .. والمعارف القدسية ..
أعلى انواع العبقرية ..
كان سياسيا عبقريا ..
وحاكما عبقريا ..
وصدّيقا .. ونبيا .. عبقريا !!
فكانت شخصيته .. شخصية خارقة .. ذات آيات بينات ..
فمن جهة الهيئة .. كان رجلا جميلا .. وقصة جماله الخارق .. معلومة ..

فهو قوة فى البدن .. وقوة فى الشباب .. وقوة فى الشخصية ..

من رآه هابه .. وأعظمه .. و اثار احترامه الشديد ..

فكل مقومات العظمة الشخصية كانت تتلألأ فى وجهه الكريم ..

فهو انسان كريم .. عظيم .. مهيب أخاذ .. مؤثر فى الغير .. يثير احترام الجماهير .. الخاصة والعامة ..

وإذا علم أن الأنواع التى كانت تحكم مصر من قبله كانوا شخصيات منحلة ..

علمنا إلى أى مدى .. كانت مشاعر الشعب المصرى .. نحو يوسف .. الذى جاء من بعد هؤلاء . . وإنما يتلألأ البدر إذا اشتد الظلام . .

اجتمع لشخصية يوسف كل ما يمكن أن يجتمع لشخصية بشر من الكمال والجمال والجلال ..

فهو مؤهل لأن يكون ملكا .. قبل أن يرفع إلى الملك ! !

هذا عن الظاهر ..

أما عن الباطن .. عن قلب يوسف .. فحدث ولاحرج !!

قلب نبى كريم .. تتموج فيه الأنوار الإلهية موجا !!

وإذا اكتمل لانسان كمال الظاهر .. وكمال الباطن .. فهو النبى ..

وذلكم كان يوسف !!

وإذا علم أن الثابت تاريخيا أن يوسف مات عن مائة وعشر سنين ..

جاء فى الكتاب المقدس :

« « وسكن يوسف فى مصر هو وبيت أبيه . وعاش يوسف مئة وعشر سنين ..

« ثم مات يوسف وهو ابن مئة وعشر سنين .. فحنطوه ووضع فى تابوت فى مصر . »

وأن يوسف كان محبوبا من الشعب .. ومن الملك ..

كان معنى هذا أن يوسف مكث فى منصب رئيس الوزراء نحوا من ثمانين عاما !!

إلا أن يكون اعتزل الحكم أثناء حياته ..

وأكبر الظن أن هذا لم يحدث ..

فأين يجد المصريون مثل يوسف ؟!!

ثمانون عاما من النور ..

فهى أسعد فترات الحكم فى تاريخ مصر على الأطلاق .

فلم يحدث أن حكم مصر نبى إلا يوسف !!

ماأعظم هذا .. وماأسعد أهل مصر بهذا !!

لقد كانت فرصة العمر .. وهدية السماء إلى أهل مصر ..

وحين يحكم الأنبياء ..فقل ما شئت من الرحمة المبثوثة..والنعمة السابغة ..والعدل التام. والنور المنطلق ..

لقد كانت تجربة وحيدة فريدة أن يحكم مصر نبى كريم !!

تخطيط سياسى اقتصادى عظيم !!

واستمكن يوسف من «خزائن الأرض» ..

من مقدرات .. وسلطات .. جميع البلاد .

وخطط تخطيطا محكما لستقبل المجاعة القادمة..

ونفذ أرقى أساليب حفظ المحاصيل ..

فأمر أن يختزن الفائض عن الاستهلاك السنوى ..

من القمح والشعير والفول والذرة والسمسم والفول السودانى وغيره من محاصيل مصر.. فى سنابله ..

أى يترك فى أعواده كما هى ..

وأمر فاستولت الدولة على فائض الاستهلاك من جميع هذه المحاصيل ..

وكانت السنون السبع الأولى وفيرة الخيرات ، وفيرة المحاصيل ..

وكان على كل زارع مصرى .. أن يورد إلى الدولة فائض استهلاكه ..

ومن الحتم أن يوسف أصدر أوامره، أن تورد كميات محددة عن كل فدان زرع حبوبا. قدرها تقديرا عادلا يتناسب وعدل النبوة ورحمة المرسلين .

وكانت الدولة تستقبل فى مخازنها تلك الكميات الوافرة من المحاصيل المتروكة فى أعوادها وتجمع فى مخازن .. أو خزائن الدولة ، فائض سبع سنين سمان . .

فكانت الخزائن تموج بملايين الأطنان من القمح والشعير والذرة والسمسم والفول وغيرها ..

المجاعة ؟!

وجاءت السبع العجاف .. فانخفض النيل انخفاضا خطيرا .

وجفت الأرض .. وهلك الزرع .. وكانت مجاعة رهيبة .

استمرت سبع سنين متواليات !!

وامتد الجفاف والقحط إلى المنطقة .. حتى شمل الأردن وغيرها . .

وهذا يفسر لك : لماذا قدم إخوته إلى مصر يلتمسون شيئا من الحبوب ؟

وتلألأت عبقرية يوسف ..

فخطط تخطيطا عظيما .. لاستقبال تلك المجاعة ..

وكان عليه أن يقوم بحاجات الملايين الجائعة .. طوال سبع سنين :

ليس هذا فقط .. وملايين غير المصريين .. من سكان الأردن وفلسطين وغيرها ..

إن المنطقة كلها قد أقحطت .. وتوشك أن تهلك .

وتلألأت النبوة .. فى يوسف ..

فأعطى الناس بالتساوى .. بمقادير معينة .. معلومة ..

حتى انقضت تلك السنوات ولم تشعر الملايين بآلام المجاعة الرهيبة !!!

عام الخير؟!

« ثُمَّ يَأْتِى مِن بعدِ ذلكَ عامٌ ، فيهِ يغاثُ الناسُ ، وفيه يَعْصِرُونَ »

وانقضت السنون السبع العجاف .. وذهب الجفاف .

وأقبل فيضان النيل عاليا علوا فوق العادة .

فغمر الأراضى .. واهتزت بكل زوج بهيج ! !

وأعطت الأرض ... التى كانت معطلة سبع سنين ... لا تزرع ولو تروى .. محصولا وفيرا جدا .

لأن الارض الزراعية إذا تركت عاما بعد عام بلا زراعة ثم زرعت .. كان المحصول وفيرا ..

فكيف وأكثر الارض مضى عليها سبع سنين لا تزرع ولا ينزل عليها ماء ؟

لقد كان عاما مباركا .. ضوعفت فيه المحاصيل ...

وزاد من خيرها .. أن الامطار هطلت بغزارة على أرض مصر .. وما جاورها ..

فاجتمع خير النيل .. إلى خير السماء ..

ويصور لك وفرة محاصيل ذلك العام .. قوله تعالى « وفيه يعصرون » ..

أى أن الثمار التى تعصر .. كالسمسم .. والكتان .. والعنب .. والبرتقال ..

فاضت عن الاستهلال السنوى .. مما اضطر الناس إلى عصرها .. واختزانها عصيرا !!

نَرفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نشاء ؟ !

وما انقضت تلك الاعوام .. الخمسة عشر ...

سبعا فى خصب ..

وسبعا فى جدب ..

وعاما فى رخاء ..

حتى كانت عبقرية يوسف .. فى الحكم .. والسياسة .. والاقتصاد ..

قد شاعت وذاعت .. وجاوزت حدود مصر .. إلى جميع أنحاء العالم ..

وأصبح يوسف .. أعظم شخصية سياسية .. فى أنحاء العالم ..

يتحدث عن عجائبها .. وبراعتها .. وعبقريتها .. العالم كله !!

« نرفع درجات من نشاء » .. لقد رفع الله له ذكره .. فهو أشهر رجل عالمى ...

ورفعه درجات .. بما آتاه من علوم النبوة .. فهو نبى عظيم ...

ورفعه درجات فى علوم الاقتصاد السياسى .. فهو أبرع وأقدر رجل فى العالم .. فى مجال السياسة والاقتصاد .. وحل مشكلات الشعوب ..

ورفعه درجات حين نجح فى احقاق الحق .. واشاعة العدل فى شعب كان قد فسد فيه كل شىء ..

ورفعه درجات .. حين أقام الأخلاق .. فى شعب كان قد ذهبت أخلاقه ..

ورفعه درجات .. حين ساس شعب مصر .. بل منطقة الشرق الاوسط كلها .. قرابة ثمانين عاما .. سياسةالعدل .. والرحمة .. والقيم العليا ..

ورفعه درجات .. حين لم تطغه السلطة المطلقة .. وإنما كان ملكا مطاعا .. بينما هو لربه عبدا مطيعا .. « إنه من عبادنا المخلصين » !

ورفعه درجات .. حين أتاح للمصريين أجمل فرصة .. فى تاريخهم .. فنعموا بأعدل حكم شهدوه .. أو يشهدوه .. إلى يوم القيامة ..

حكم الأنبياء .. وما أدراك ما الأنبياء !!

ورفعه .. درجات .. ودرجات .. ودرجات .

لا يعلمها الا هو .. كما قال : « وفوقَ كلِّ ذِى عِلمٍ عليمٌ » !!!

« تم »

ماذا في هذا الكتاب ؟!

فيه... حياة النبي الكريم... الذي قال فيه... رسول الله... صلى الله عليه وسلم...

« إن الكريم ...

« ابن الكريم ...

« ابن الكريم ...

« ابن الكريم ...

« يوسف ... نبي الله ...

« ابن يعقوب ... نبي الله ...

« ابن إسحاق ... نبي الله ...

« ابن إبراهيم ... خليل الله. » !!!